الطريق

إلى

حكم

إسلامي

محمد علي ضناوي

الإهداء

إلى دعاة الحكم الإسلامي في كل مكان

أهدي هذا الطريق

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الطريق

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

وبعد ...

فإذا نظرنا إلى مسلم اليوم، رأينا كيف تتجاذبه التيارات الضخمة وكيف تعكس هذه ... في أعماقه صراعاً "داخلياً" عميقاً .

فهو بفطرته يحن إلى إسلامه وماضيه، وهو بواقعه خاضع لمؤثرات فكرية غربية أو شرقية ، ولمحاكاة نموذجية في أكثر المناحي والشؤون، لعادات الغرب ومدنيته .

وإذا نظرنا إليه مجدداً رأينا كيف يعيش في كل جانب من جوانب حياته نكسة خطرة، لعل أبرزها وأوضحها أنه بعُدَ عن ربِّه فتلاشت دولته التي أرادها له الله. وطبيعي أن انساناً يعيش انتكاسة في روحه ووجوده مضطرباً "تائهاً" تتخطفه الفلسفات وتتجاذبه المذاهب، مقطوع الصلة بماضيه ومبتور العلاقة بحضارته، لا يعرف دوره في الحياة ولا يدرك غايته في الوجود، لا دولة ترعاه ولا نظام يحفظه، لا يمكن له أن ينتصر في معركة الحياة والوجود ؟!!

ويترتب على ما تقدم أن المسلم اليوم لا يملك إسلامه أو لا يملكه إسلامه وأن مجتمع اليوم لا يجوز أن ينعت بالإسلامية، أو يتحمل أوزاره ومساوئه الإسلام الغريب ...

وفي أعماق هذه المأساة يحاول دعاة الإسلام أن يعيشوا إسلامهم أولاً، أن يعيشوه في أنفسهم وفي عائلاتهم وفي مراكز أعمالهم. ثم يحاولون ثانياً أن يوجدوا وسطاً "إسلامياً" خاصاً بهم، يعيشون فيه مناخ الحياة الإسلامية وجوها العابق بالمحبة والمودة والأخلاق

الكريمة. ويحاولون ثالثاً تضخيم هذا الوسط حتى يتمخض عنه تيار يقوى على مجابهة تيار اللاإسلامية وعلى إعادة الإسلامية السليمة إلى هذا المجتمع المنكود .

* * *

والحقيقة أن "الطريق" إلى حكم إسلامي، في هذا الجو المشحون بالتناقضات، أمر صعب تكتنفه كثير من المخاطر والأهوال .

بيد أنه لا مفر ولا مهرب منه إلا إليه ...

فالحكم الإسلامي فريضة والطريق إليه واجب، والتخلف عنه ردّة، وهو مآل الرجاء وغاية الإطمئنان ...

ففي ظلال هذا الحكم يشعر المسلم بوجوده ويدرك أبعاد شرعه ويحيا معاني الحياة الكريمة العزيزة ...

إذن لا بد من وضع الخطى على أول الطريق... ولا بد من المسير الدائب الحثيث، ولا بد أخيرا من طرق أبواب السلطة... ولا بد من إعلان لا إله إلا الله، نداء خفاقاً ، للإنسانية والحياة ...

وأول الطريق أن يقرر المسلم إنهاء أزمته في الوجود وإنهاء أزمته في الحضارة وذلك بتعرفه العميق على غاية وجوده وعلى دوره في الحياة وأنه خليفة في الأرض مستناب بأمر الله ...

وثانيه : أن يتفهم معنى الحضارة ومغزى النظام ويدرك بعمق أن الإسلام هو الحضارة وأن الإنسان، الخليفة، لا يصلح له إلا نظام الإسلام .

وبعد أن تتأكد هذه المعاني لا بد من التساؤل عن مفهوم الدولة الصحيح حتى إذا ما أدركناه، وعقدنا العزم على ترجمته إلى واقع حي ، كان لزاماً علينا أن نعي بإخلاص، تجربة الماضي، حين آبت مجتمعاته إلى فطرتها السوية فوافت، بذلك، مستوى الإسلام في منهجه وأسلوبه ... وكان علينا أيضاً، أن نحلّل بعمق، تجربة أخرى حين أريد لهذا الواقع المسلم أن يتحلل من التزاماته وأن يتمرد على ذاته وأن ينقلب إلى ضده .

أي لا بد من دراسة مفهوم الدولة السوي والكيفية التي أقام بها الإسلام دولته والكيفية دالت بها تلك الدولة الراشدة .

ثم علينا ونحن في طريقنا إلى بناء حكم الإسلام من جديد أن نصور واقعنا المظلم كما هو وكما أعده وأخرجه أعداء هذا الدين... ننقله من مراجعه ومصادره دون أن نزيد أو ننقص لأن دراسة أرض المعركة بصدق من أهم العوامل التي تؤثر في مجريات الأحداث ...

فأمامنا "هجوم ماكر" على الإسلام، وأمامنا أيضاً "ردّة الفعل الطبيعية " حركة المجابهة لصد هذا الهجوم ولتخذيله وللإنتصار عليه .

وبعد أن درسنا الماضي وتعرفنا على أبعاد الحاضر وجب طرح السؤال "كيف نقيم حكم الإسلام من جديد؟" ووجب الإطلاع على مختلف أساليب العمل في إقامة الحكم .

وهذا كله شق في المسألة .

والشق الآخر يواجهنا بقوة إذا ما منَّ الله علينا بحكم الإسلام من جديد !

... ما منهاج هذا الحكم أي ما هي مقوماته الأصيلة وخصائصه الذاتية ؟ ومن أين تستقى هذه المعالم الأساسية وكيف يمكن أن تتكيف هذه في كل واقع وفي كل مكان وزمان ؟

ثم كيف يمكن أن يتجمع المسلمون من جديد وكيف يكون الترابط فيما بينهم وعلى أي شكل من أشكال التجمع يلتقون أو يجب أن يلتقوا ؟

ثم كيف يحقق الإسلام دوره الفعال في مجموعة الأمم المتصارعة ليعيد الأمن والسلام لهذا الإنسان التائه في هذا العالم المضطرب ؟

ولا ريب أن هذه المحاولات محفوفة بالمخاطر والأشواك لذلك فهي بحاجة إلى مزيد من التخطيط وروية في التفكير ودقة في التوجيه والتنفيذ .

وكأيّ محاولة ، لا بد لها : من "قاعدة" تنطلق منها و"طريق" تسعى إليه للوصول إلى "الهدف" المنشود .

وكل محاولة تفقد هذه العناصر الأساسية : القاعدة والطريق والغاية . أو بعضها ، يكون مصيرها ، في الأعم الأغلب ، الفشل والإحباط، وبقدر ما تمتلك المحاولة الوضوح والعمق في أساسها بقدر ما تقوى على تجسيد نفسها في واقع حيّ فعّال .

* * *

كل ما تقدم ... فصول في كتاب جعلتها في قسمين :

القسم الأول وهو الذي بين يديك، والقسم الثاني وهو الذي يتحدث عن منهج وشكل التجمع آمل أن يصدر قريبا إن شاء الله .

وان كان لي من حق التمني على القارىء الكريم فهو أن يقرأ الكتاب بالتتابع وأن لا يقفز عن آية أو حديث أو رأي أو خبر كان في علمه ... فالكتاب فصول متصلة وحلقات مترابطة والقفز يسيء إلى المعنى ويفقد التكامل في البحث ...

وأخيراً ... ان وفّقت فيما ذهبت إليه فمن الله ... وإن أخطأت فمن نفسي ... وأحمد الله وأستغفره في الحالتين وأرجوه أن يتقبل مني عملي وأن يحقق أمنيتي وأن نرى كم الإسلام في الوجود ...

انه طريق شائك وطويل .

ولكن لا بد من سلوكه ...

فهو المضمون ...

ولا نصرَ لنا إلا به ...

" فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله ".

المؤلف

طرابلس

أول شعبان سنة ١٣٩٠ هـ

أول تشرين أول سنة ١٩٧٠ م

توطئة في فصلين

غاية الوجود الإنساني

الحضارة والنظام

غاية الوجود الإنساني

إن أعقد مشكلة يواجهها الإنسان عند دراسته لنفسه وللعالم المحيط به "معرفة" موضعه في هذا العالم و"معرفة" الإرتباط الصحيح الذي يجب أن يقوم بينه وبين كائنات هذا الوجود العجيب. هذه المشكلة التي تفرض ذاتها بقوة وعمق ، لا يستطيع الإنسان ـــ أو ليس من مصلحته ـــ أن يتهرب من مواجهتها أو ان يتقبل المعالجة الجزئية السطحية دون التغلغل لأعماقها وملامسة جوهرها ...

مشكلة الوجود الإنساني

هذه المشكلة ، معرفة وجوده الكوني وصلته بالوجود ، تخلق في روحه حالة من القلق والإضطراب تحييه في تمزق داخلي ، وتدفعه لأزمة شعورية هائلة ، لا يقدر على إزالة آثارها وإعادة البناء النفسي المتكامل العميق ، إلا عندما يجد الحل ويهتدي إلى السبيل ! إن مرحلة التفتيش عن الذات الواعية المدركة، ومرحلة التعرف على مطانة "هذه الذات" بين العوالم ومرحلة إقامة الصلات الصحيحة بينهما هي أخطر المراحل ، منهجاً ونتيجة ، على حياة الإنسان في هذه الأرض ، فالمنهج الذي يتبناه الإنسان في بداية "التطلع" الكوني هذا، له أثره البعيد في ترتيب النتائج الحاسمة : في ضياعه عن "ذاته" أو معرفته الكلية ...

تشويه التصور

الإنسان، لا يعيش وحده فهو في كون فسيح مليء بالأحداث وبالآيات، مليء بالموجودات والأشياء مليء بالإنسان ذاته... يخلو الإنسان لنفسه ويستبطن الكون ـــ فيسمع صوتاً "عميقاً" يخرج من لدن الكون يناديه، بعمق الفطرة، كي يتناغم معه في حياة مبنية على نظام ، واطمئنان قائمة على معرفة أصيلة أزلية وليست عارضة صدوفة .

ويحاول الإنسان أن يكون هو والكون والحياة في تناغم مستمر وفي انسجام دفاق حي . لكن ما ان يهم في محاولته هذه حتى يرتطم بمحجبات معمية تشوه معالم التصور السليم فتفقده السبيل وتحرفه عن الصراط وتدفعه دفعاً بسياط من حديد نحو مصيره

الأسود المحتوم ... وهي ، في أثناء تشويهها ومسخها للتصور وللإرتباط الكوني ، تمني هذا "الإنسان المحاول" بالوصول إلى الهدف المنشود.

إنَّ الشعور بالذات وبالعالم شعور متين عميق نظيف من حيث المبدأ ، شعور يولد مع الإنسان وينمو ويتضخم ، ثم يغدو معضلة انسانية تأخذ سبيلها إلى "مجامع ذاته" بحدة وعنف فإما أن تملكه وإما أن يجابهها بحلّ عميق الجذور يضرب إلى مكان الحقيقة الأزلية الخالدة.

المشكلة الأساسية هي
في نوع العلاقة بين الفرد والعالم

من هنا يمكن أن نقول : "ان المشكلة الأساسية الأولى ليست كما تراها الفرويدية، أي كبت تلك أو هذه الحاجة الغريزية بل هي كما وجد كثير من المفكرين والعلماء ، في نوع العلاقة التي تربط الفرد بالعالم"(1) .

ويمكن أن نضيف : " قد يستطيع الإنسان أن يكيف نفسه بالنسبة لكل شيء ، ولكنه يعجز عن إجراء التكيف هذا بالنسبة لشيء واحد ، ألا وهو أن يرضى بموقف مبهم غامض حول الأشياء والأحداث التي تحيط به حول طبيعتها ومعناها ...

لكن الإنسان يثير هذه المشلكة فيسأل نفسه : من أنا ؟ ما هو مكاني أو مبرر وجودي في هذا الكون ؟ ماذا يجب أن أصنع اليوم أو غداً ؟ "أو ماذا يجب أن أكون...؟".

"الإنسان هو المخلوق الوحيد ، الذي يحس عفوياً بأن هناك في الطبيعة أكثر مما تراه العين ، هذه المجابهة للمجهول بالاضافة إلى وعيه للموت أضافت إلى وجوده بعداً "مثيراً" جعله يتجاوز القبول الحيواني الساكن الأبله للتاريخ ويحاول دائماً أن يعطي الحياة معنى مستقراً "ثابتاً" .

هذه المشكلة ... مشكلة معرفة الوجود الذاتي وصلته بالكون العجيب ومعرفة مبدئه ومنتهاه ، وإدراك غاية الوجود الكلي للكون والإنسان والحياة ... هذه المشكلة وما

(1) الأيديولوجية الانقلابية ص ١٧٦ ــ ١٧٩ .

يتفرع عنها ويتصل بها من موضوعات كانت ولا تزال معضلة البحث الإنساني وسبباً "أصيلاً" في لقاء الإنسان مع الحقيقة أو ضياعه عنها .

لمعالجة المشلكة الإنسانية

أسلوبان بشري ورباني

ولقد تصدى الإنسان لمعالجة هذه المشكلة... تصدى لها وحيداً "منفصلاً" عن الحقيقة الكبرى عارياً من تصور عميق سليم... وتصدى لها بفيض الهي دفاق وبقبسات ربانية خالدة ... فلا غرو بعد ذلك أن نرى التصدي الأعزل عاجزاً عن استئصال الأزمة ... وحل المشكلة ، بينما التصدي الآخر ، يطلق للروح أشواقها فترى ، بأصالة ووضوح، عمق الارتباط بين مختلف أجزاء الكون العجيب .

إنّ التصدي لمعالجة المشكلة جزءا لا يتجزأ من الإنسان بل هي حركة دائبة متصلة بوجوده ، فإذا التوت ـــ هذه الحركة ـــ في خطوط متكسرة أو منحنية خوفاً من المجابهة الواضحة البينة تكسر الإنسان في أعماقه والتوى في سيره نحو المعرفة الكبرى ، وإذا ما تصاعدت في خط مستقيم تصاعد الإنسان بعبقه الروحي وبكينونته الفطرية نحو شاطئ الأمان حيث الإطمئنان والإستقرار ... كذلك إذا خمدت هذه الحركة خمد الإنسان وتلاشى عن الوجود الحياتي المعروف .

فللتصدي، إذن، قيمة كبرى ... لذلك كان على الإنسان أن يقف طويلاً يراجع رصيده وزاده قبل أن ينطلق في حركة المجابهة والتفتيش .

ومن خلال العرض السابق نجد أن أمام الإنسان تصورين لا ثالث لهما.

ـــ فإما أن يتبنى التصور الإيماني للكون والإنسان والحياة .

ـــ وإما ان يتبنى مشكلة الوجود الكوني بفرده بناء لتصوره الخاص عن معضلات هذا الوجود .

وبمعنى آخر هناك تصور رباني وآخر بشري أو تصور إسلامي وآخر جاهلي[٢] ولا بد من الإختيار بينهما قبل الانطلاق نحو الهدف المنشود .

---

(٢) راجع فصل (المجابهة) من هذا الكتاب .

* * *

التصور البشري واحد
وان اختلفت أشكاله :

ولقد انتقل التصور البشري عبر مراحل عديدة وكان لكل مرحلة شكل وموضوع حتى ملئت جعبة الفكر الإنساني بمذاهب عديدة وبمنطلقات مختلفة وكاد الباحث يقول بتصورات "بشرية" لا بتصور" واحد وبنظرات "انسانية" لا بنظرة واحدة ...

والحقيقة ان مجابهة المشكلة الوجودية للإنسان والحياة ــ من لدن الإنسان ــ كانت عبر الزمن ، مجابهة واحدة ، نظرة واحدة ، فلسفة واحدة ، تصوراً واحداً وان اختلفت أشكال المجابهة والنظرة والفلسفة والتصور .

فالتصور البشري اغريقياً كان أو كنسياً منحرفاً ، أو عقلياً ، أو حسياً طبيعياً أو مادياً ، أو ماديا جدلياً أو وجودياً داروينياً أو فرويدياً ليبرلياً أو اشتراكياً أممياً أو قومياً أو ... أي شيء آخر تصور واحد يهدف إلى شد الإنسان نحو الأرض وقطع كل صلة بينه وبين الحقيقة الأزلية الكبرى : الله ... تصور واحد يعمل لبتر الإرتباط الروحي بالكون والإنسان والحياة ويسعى لطمس معالم الفطرة النظيفة في أعماق النفس الإنسانية السوية ... تصور واحد يحاول ــ بقصد أو عن غير قصد ــ تشويه غاية الوجود الإنساني في هذه الدنيا ومسخ دور الإنسان على هذه الأرض ...

التصور البشري ... تصور واحد ... ولو اعتمد ، في سبيل الوصول إلى أهدافه أساليب مختلفة ... فتأليه عقل الإنسان أو الطبيعة أو المادة أو الحرية اللاواعية أو الجنس أو الإقتصاد ... الخ ... كل ذلك أساليب مختلفة تخدم غاية واحدة وتدفع هذا الكائن المعذب التائه "الإنسان" نحو هوة سحيقة ليس لها قرار ... نحو قلق محتوم واضطراب مخيف وهم قتال ..

نحن إذ نقرر هذه النتيجة الخطيرة لجهد الإنسان "الفرد الأعزل" في مجابهة ومواجهة مشكلة الوجود والإرتباط الكوني ، لا ننسى أن نقدر في هذا الجهد ، القدرة المبدعة والقوة الخلاقة التي فيها وصل إلى هذا التعدد في اساليب الفلسفة وطرق المعرفة ... وهما ــ أي القدرة والقوة ــ سر من أسرار هذا الإنسان المعجز . إن هذه الأساليب والأشكال

بقطع النظر عن غايتها المسيخة وهدفها الملوث ، ـــ بقصد أو عن غير قصد ـــ دليل أكيد على حاجة الإنسان لتفهم وجوده وصلته بالكون والحياة ... وهي فضلا عن ذلك ذخيرة فكرية كبرى تُعين "شكلاً" ، على تعميق فهم الوجود وإدراك البعد الإنساني في هذا الكون الفسيح ...

من أشكال التصور البشري

العقلية :

ومن أصحاب هذا التصور مفكرو المدرسة العقلية ، فهؤلاء جعلوا العقل أساس المعرفة الصحيحة ومنحوه حق الإشراف على كل اتجاهات الحياة وما فيها من سياسة وقانون ودين "وسموا عصرهم هذا ـــ النصف الثاني من القرن الثاني عشر ـــ بعصر "التنوير" أو بعصر الـــ (Deism) أي عصر الإيمان بالفلسفي بغله ليس له وحي وغير خالق للعالم .

الحسية :

ومنهم الحسيون الوضعيون الذين جاؤوا ـــ في فجر القرن التاسع عشر ـــ بنقيض للمعرفة الكنسية والمثالية العقلية وأعلنوا عن "معرفة يقينية حقة" ألا وهي الطبعية ... فالطبيعة تنطق عن نفسها ويجب على الإنسان أن يعتمد منطقها إذا أراد أن يعيش فيها ، ومنطقها وحده لا منطق المؤلهين ولا منطق العقليين ولا أي منطق آخر ... هو الذي يخط الطريق المستقيم ويحدد أهداف الإنسان الكبرى في الحياة .. [٣] .

الماركسية :

والماركسيون ـــ الماديون الدليون ، حطموا القيم الذاتية وأولوا المادة ثقتهم الكبرى وجعلوها مصدر كل شيء حتى الإدراك والعقل فهو نتيجة المادة أو هو "مادة عالية التنظيم" وأما الذي يتحكم في سير التاريخ فهو تنازع الأضداد والطبقات ، فالعامل الإقتصادي هو أهم عوامل الحياة وهو الذي يسود الوجود الإنساني وبه تتحقق سعادة الفرد في ظل الجماعة ...

---

(٣) يراجع الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار للدكتور محمد البهي .

الوجودية :

أما الوجوديون فقد جعلوا "الشعور" موجوداً لذاته أي أنه موجود ليحقق نفسه لا ليحقق ماهية خارجة عنه ــ كالأشياء المادية ــ . والموجود بالذات أي "الشعور" متغير ، قوامه النزوع المستمر نحو المستقبل والتنصل المستمر من الماضي ، فهو موجود له في كل لحظة حالة غير اللحظة السابقة على خلاف الأشياء المادية ذوات الذاتية الصثابتة ... ومن هنا كانت حرية الإنسان صميم وجوده الشعوري القلق ، فهو حر لأنه يخلق نفسه بنفسه كل لحظة والقول : "ان الإنسان حر" مرادف للقول : " ان الله غير موجود" (٤) ولِمَ لا أكون حراً ... ما دمت حذفت كل جوهر من فوقي ومن خلفي فأنا غير مرتبط ولا مربوط بمثل ناموسية .. (٥) الخ .

وبعد هذا الإستعراض السريع نجد صواب ما ذهبنا إليه وهو أن التصور البشري تصور واحد يهدف لغاية واحدة ، وهي إبعاد الإنسان عن الحقيقة الكبرى وطمس معالم دوره الأصيل في الكون ... تصور واحد ولو تعددت المذاهب ... وجميعها ــ كما تلمسنا ــ تضع هذا الكائن المسكين "الإنسان" ــ عن قصد أو عن غير قصد ــ في حلبة صاخبة من الصراع المؤدي إلى قلق وحيرة وارتباك ...

* * *

أما التصور الإيماني فهو تصور بسيط قريب من الفطرة الإنسانية وملاصق للطبيعة البشرية وملتحم مع الكون بأسره ...

التصور الإيماني يخاطب
الكينونة الإنسانية ويردها إلى الله :

التصور الإيماني تصور فعال لا تعقيد فيه ولا غموض ، يواجه المشكلة الإنسانية والكونية بسهولة ويسر ... يبسطها حتى تراها بوضوح ثم يعيد تركيبها لتراها بعد ذلك بوضوح أكثر ... وأهم ما فيه أنه يمنح الإنسان عندما يريد التصدي للمشكلة الوجودية ،

---

(٤) الموسوعة العربية الميسرة ــ مادة جان بول سارتر ص ٩٤٢ .

(٥) كتاب من الجوهر الى الوجود لكمال الحاج .

قوة التصدي الإلهي ، فيغدو صاحبها ، كبيرا عظيما سيد الموقف ، يوجه المشكلة وآثارها بلين وأناة .

هذا التصور ... يخاطب الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وبكل أشواقها وبكل حاجاتها وبكل اتجاهاتها ويردها إلى جهة واحدة تتعامل معها ، جهة واحدة تطلب عندها كل شيء وتتوجه إليها بكل شيء ...

كذلك يرد الكينونة الإنسانية إلى مصدر واحد تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمنها وقيمها وموازينها وشرائعها وقوانينها وتجد عنده إجابة على كل سؤال يجيش فيها وهي تواجه الكون والحياة والإنسان ، بكل ما يثيره كل منها من علامات الاستفهام ... (٦) .

ولنا بعد ذلك أن نسال التصور الإسلامي عن الإنسان ومشكلته وصلته بالوجود ؟ من هو كيف وجد ولماذا ؟ ما ارتباطه بالأكوان والعالم وما علاقته بنفسه وبالآخرين ؟ ما هي قدراته وامكاناته ؟ كيف يعيش ولماذا يعيش وما هو مصيره ومصير العالم ؟ ...

وتبعا لمنهج التصور الإسلامي في تبسيط المشلكة ثم إعادة تركيبها لنراها بوضوح أكثر فإننا نحدد أبعاد المشكلة بالإنسان والكون والحياة (٧) .

ففي الإنسان : يرفض الإسلام نظرية التجزئة التي تنادي بالعقل أو بالحس أو بالقلب أو بالشعور كمصدر أساسي للمعرفة الصحيحة ، ويقول بكلية الإنسان الشاملة ، بكينونته المطلقة ، بروحه التي هي من الله .

ولا يعني هذا تحديدا لماهية الروح : فالروح من أمر الله وما أوتينا من العلم إلا قليلاً ، إنما ندرس هنا خاصة من خواص الروح فنرى ، من خلال هذه الومضة الالهية ، كل شيء في الوجود . ننظر بها إلى أنفسنا إلى الناس إلى الكون إلى الحياة ... فلا يكل النظر ولا يرجع حسيراً ولا تضطرب معه المعرفة لأننا نظرنا بكلية شاملة لا تعرف التجزئة بكلية لا تعرف نقائض العقل والحس والقلب والشعور ، أو أي شيء آخر ...

---

(٦) مقومات التصور الإسلامي وخصائصه ــ سيد قطب ص ١٢٦ .

(٧) خوفاً من الخروج عن نطاق البحث والاستطراد الكلي مع التوسع الموضوعي في هذا البحث الخطير فإننا سنضطر للايجاز آملين من الله ان يوفقنا لتوسيعه في كتاب مستقل .

الروح أداة المعرفة الكبرى
والوعي خاصة من خواصها :

هذا التجميع لوسائل المعرفة يوجد الوحدة في أعماق الذات الإنسانية فلا يدعها بعد ذلك فريسة للتجزئة أو للخطأ أو للظن ، أو لمحدودية العقل والحس والشعور . ان الروح الالهية التي حلت بالإنسان الأول بالنفخة الربانية المباركة ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴿١٢﴾ ﴾ التحريم .هي التي أوجدت في الإنسان (القدرة الخاصة) المميزة له عن كل خلق الله ، عن الملائكة وعن الحيوان وعن الجماد . هي التي أوجدت فيه (الوعي) وعي الذات ووعي الكون والحياة وهي التي منحته (الإدراك) وكل ما يتصل به من خصائص ومقومات ..

لقد نشأ الوعي في الإنسان ونشأ الادراك ، لحظة إيداع جسد الإنسان روحاً من الله فاستحالت عندها مادة هذا الجسد إلى ذات عاقلة مفكرة مدركة مميزة واعية تملك (القدرة) على معرفة ذاتها ومعرفة ما حولها وتملك (القدرة) على انشاء رابطة بينها وبين ما ترى ، وعلى (التمييز) بين هذه الأشياء بدقة وعمق ! هذه القدرة هي روح منحها الله سبحانه لهذا الإنسان . وكأنها من علم الله الذي خص منه ما شاء لهذا الكائن العجيب تكريما له وتشريفاً وتأهيلاً للقيام بالدور المقدس الذي رسمه له ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ﴿٧٠﴾ ﴾ الاسراء .

فآدم ، الإنسان الأول ، منذ الوهلة الأولى من حياته استطاع أن يسمي الأشياء بأسمائها أي ان يعيها بعد أن (تعرف) عليها وبمعنى شامل (المعرفة) ترتقي كلما تأصلت العلاقة بين الإنسان وبين ما يحيط به : فكلما أحسن الصلة بما حوله من الوجود وأقام الإرتباط المتين كلما تمقتت (معرفته) وتأصلت، لا تخشى دركاً ولا حداً .

ومن هنا كان الوعي (خاصة) من خواص الروح لا كما تقول الماركسية (خاصة مادية عالية التنظيم)[٨] ـــ وتأكيداً على هذا المعنى يتلقى وعي الإنسان ، وبصورة دائمة إمدادات خفية تنير له الدرب وتشع أمامه ما ظلم من جوانب الوجود فإذا هو يرى بنور الله .

جاء في الحديث : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) [٩] .

وجاء في الحديث القدسي : (ما يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها..) [١٠] .

النبوة ارتقاء في وسيلة المعرفة :

وللإنسان قدرة على الإرتقاء أكثر فأكثر وعلى تلقي (المعرفة) من مصدرها الأول ... لكنها (قدرة) مرتبطة بحالة فريدة لا تتكرر ولا تعمم ، حالة اختص بها صنف من الناس ، هم بشر ، لكن ارتقت أرواحهم وتفتحَ (وعيهم) وتوسع (إدراكهم) بإرادة الله ليتلقوا عنه مباشرة أو بواسطة وحي أو من وارء حجاب [١١] أسلوباً في المرعفة ومنهجاً في الحياة ... أولئك هم الأنبياء .

الكون مسبّح مسخّر للإنسان :

أما الكون ... الكون العجيب ... ففيه من الآيات ما يدعو إلى الدهشة والاستسلام ... فهذه الأكوان الفسيحة الهائلة ... هذه العوالم المتمادية المتصلة ... هذه المساوات والنجوم والشمس والأقمار ... هذه الأرض ... والجبال والبحار والأشجار ... هذا النسيم والهواء والريح ... هذه الغيوم والثلوج والأمطار ... وهذه الدنيا بما فيها من معطيات ... هذه وتلك تدعوك برفق وإيمان إلى إصاخة السمع لتعي عمق تسبيحها وتمجيدها للخالق المبدع ولتحرك في مكامن روحك ومضات التناغم والتجاوب فتتناغى

(٨) الجلز .

(٩) رواه

(١٠) رواه

(١١) يقول الله سبحانه في سورة الشورى ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١ ﴾ .

مع الأكوان في تسبيح وتنـــزيه من خلق ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ **آل عمران.**

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ **الاسراء .**

ثم ان لهذا الكون رسالة غير التسبيح الذي هو أصل وجوده ــ رسالة تحققها الأكوان بعفوية ونظام تعقيد ودون معارضة ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾ **الانشقاق.** تحققها بكليتها ... بكينونتها المفطورة عليها ... فلا تشعر ــ وأنت تتبع آثار هذا التطبيق ــ بأي اختلال أو انحراف .

فما انقطعت الشمس عن أنوارها ولا الغيوم عن أمطارها ولا الشجر عن ثمارها ولا الأرض عن دوراها . بل كل في تأدية رسالته ... في خدمة هذا الإنسان ...

فالأكوان مسخرة لهذا الإنسان مذللة له...قائمة على تلبية حاجاته ومتطلباته ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴿١٣﴾ ﴾ **الجاثية.**

فمن العجيب ان يتعبده الإنسان !

إن ارتباط الأكوان بالإنسان ارتباط مصيري محتوم فلا معنى للأكوان دون الإنسان فغذا ما زال الإنسان من الوجود زالت الأكوان بصورة تلقائية حتمية ... فخالقها قد أودعها وضمنها من الخصائص والقدرات والزظائف ما لا تتحمله دون هذا الكائن البشري فهي له بكل ما فيها وبكل أعماقها ...

والعجيب أن الإنسان ، الذي سخرت له هذه الأكوان ، حين يتصدى لفهمها يضل ويفتن ويتخبط في دياجير مظلمة من أفكار وفلسفات ... فهو مرة يتعبدها ومرة أخرة يعتبرها مصدراً (أصيلاً) في (معرفة) وجوده ومرة ثالثة يجعلها مادة يصدر عنها هو بالذات ومرة رابعة ... وخامسة .. الخ .

أما التصور الإسلامي فإنه يقيم الإرتباط بين الكون والإنسان على أساس السيادة ... السيادة المطلقو للإنسان على الكون وما فيه ... فهو ليس عبداً للكون وللمادة بل هو

سيد يتصرف بالكون تصرف السيد ذي الارادة باذن الله ... وهكذا يجعل الإنسان فوق الدنيا يسوسها لمصلحته وفق ما تقتضيه حاجته ... فهي ـــ أي الدنيا ـــ ليست مصدراً للمعرفة ولا مصدراً للوجود ... وليست في ذاهّا إلا حاجة يقضي الإنسان العبد وطرَه منها ويدعها ليسمو فوقها وليصل بعد ذلك مع جوهر خلقها إلى تسبيح عميق للواحد الأحد ...

* * *

أما الحياة ... فهي قبس من نور الله ... يضفي اليها البهاء والجمال ويوحي بالخير والأمان الحياة وهي في عهدة هذا الإنسان ؟؟...

لقد تجاوز الإنسان غاية الوجود فرتع في حبور وظن انه لا يحور فالحياة عند كثير من الناس ، فلاسفة وعاديين ، متعة وشهوة ، لذة وبهجة كالحيوان ، أكل وشرب ونوم ونكاح ، وإذا ما اخترع الإنسان واكتشف فلتحقيق أسلوب أفضل في حياة المعدة والجنس وفي حياة الترف واللهو ...

صراع الأفكار في الحياة !

ولقد ازدحمت الفلسفات والأفكار حول معنى الحياة ... وراحت كل واحدة منها تدلي بدلوها وتقدم زبدة ما عندها ... وهي بجهجها هذا تحاول صبغ الحياة بصباغها وتحاول ان يفهم الإنسان الحياة فهماً (ذاتياً) كما تريد ...

واصطرعت الأفكار ... كلها تبغي ظاهراً معالجة أسلوب الحياة خدمة لهذا الإنسان وحتى يحيا حياة طيبة يسعد فيها ويهنأ ... فكانت المادية اللبرالية والماركسية والاشتراكية والأممية والقومية والوجودية والفرويدية وحتى الفوضوية ...

ولكن جميع هذه الأفكار بقيت في إطار لم تتعداه بقيت في بحث واحد لم تتجاوزه : في الكسب والمعيشة والجنس والشهوة والفرد والأمة ... بقيت في هذا الحد المحدود البسيط الذي لا يشكل إلا جزءاً يسيراً وربما تافهاً من حياة الإنسان ...

ودائماً هّربت هذه الفلسفات والتصورات المادية الجاهلة هّربت عن قصد أو عن غير قصد من معالجة جوهر غاية الوجود لماذا وجد هذا الإنسان وما معنى الحياة ؟ من

أجل الصراع ... صراع الذات مع الطبيعة أو مع المادة أو مع نفسها أم من أجل تحقيق ذاته في وجود مبهم غائم ؟؟..

أم من أجل طعام وشهوة ؟ ام من أجل رياسة وجاه ؟ أم من أجل ماذا ؟ .

أسئلة تلح بذاتها وتفرض نفسها بداهة على فكر وإدراك هذا الإنسان تشتد عليه وتطالبه برجاء وقوة أن يمنحها الجواب الشافي ؟؟.

ويعجز التصور الجاهلي أن يجيب عن أي من هذه الأسئلة ويتهرب من الجواب ويحور في الكلام ويتشبث بألفاظ وبمشتقات الألفاظ حت تسأم النفس البشرية من الحل فتتهاوى في الضياع واللامبالاة أو تريد بقوة وارتفاع نحو التصور الإيماني التصور الإسلامي.

الإنسان في الحياة : خليفة مستناب فعليه أن يعي دوره ويلتزم بحدود الاستنابة :

فالإسلام يعطي للحياة معنى تشعر ـــ وأنت تتلقاه ـــ بتجاوب الكينونة البشرية معه ، بتجاوب الأعماق الإنسانية بالتحامها معه في كل فقرة من فقراته وبكل جزء من جزئياته ...

والإسلام يعلن بوضوح تام أن الإنسان وجد في هذه الحياة نيابة عن الله سبحانه فدوره في الحياة دور خليفة مستناب في تصريف الأمور والشؤون .

فالخلافة نظرية أصيلة في التصور الإسلامي ، وعلى ضوئها يفسر الإسلام دور الإنسان في الوجود ، دوره في الحياة ، دوره في التفاعل والابداع ... من أجل هذا سخرت له الأكوان وذللت له الأفلاك وسعى الوجود لخدمة من كرّمه الله فاستنيب في الحياة ...

(اذن فهي المشيئة العليا تريد أن ستلم لهذا الكائن الجديد في الوجود ، زمام هذه الأرض وتطلق فيها يده وتكل إليه ابراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين والتحليل

والتركيب والتحوير والتبديل وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات وتسخير هذا كله ـــ بإذن الله ـــ في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه (١٢) .

وإذن ليس هناك في الوجود أسمى وأرقى من هذا الدور الخلاق ... دور الخلافة في الأرض ... وليس هناك من تفسير كلي للحياة أبلغ وأصوب من هذا التفسير العميق الدقيق ... الذي زوى طرفيه كل القيم الذاتية والمبادئ السليمة من أجل حياة أفضل .

ولا بد لهذا الإنسان المستناب ، أن يعي دوره العميق هذا وأنْ يقوم بمستلزمات الخلافة ولا يمكن أن يوفق في هذا إلا إذا اتبع منهج الله الذي استخلفه ... منهجه في الحياة وفي الوجود ، في صغائر الأمور وكبائرها ، وفي مختلف الشؤون والفنون : في الدولة والحكم ، في الإقتصاد والسياسة ، في التشريع والتنظيم في التصور والتفكير ، وفي كل شيء ...

وغاية الخلافة غاية رفيعة مقدسة تتهاوى إزاءها كل الغايات وتتضاءل ... غايتها أن يعرف هذا المستناب من أنابه .. فيرتد إلى الأرض ليعيش فيها وليحقق ، ارادته وفق ما أراده المستخلف بصدق وأمانة وإخلاص ...

غاية الخلافة ، تحقيق عبودية الإنسان لله في كل مجالات الحياة :

غاية الخلافة ان تتوحد الأرض والسماء ، والإنسان والأكوان ، والحياة والممات بحركة واحدة لا تعارض فيها ، وبنغم واحد لا نشاز فيه . فكل ما في الوجود من انسان وأكوان وحياة يعبد الله ... يمجد الله ... كل ما في الوجود ، في ذاته وفي جوهره وفي واقعه ، يعلن العبودية الكاملة لله ... فإن تحركت الأكوان ففي عبودية الله وإن تحرك الإنسان ففي عبودية الله وإن استمرت الحياة ففي عبودية الله .

وفي هذا يقول الله سبحانه ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات (فالتعبد لله أي العبودية المطلقة له هو غاية الوجود وهو الوظيفة الكبرى الأساسية المكلف بها الإنسان الحي الواعي ـــ فعندما يمارس وظيفته هذه ، عند ذلك وعند ذلك فقط يدرك

(١٢) في ظلال القرآن ـــ للأستاذ سيد قطب الجزء الأول ص ٦٥ الطبعة المصرية .

غاية الوجود ويحس انه موجود حقيقة في هذه الدنيا ... موجود لغاية سامية متناغمة مع غايات الأكوان المحيطة به ، منسجمة مع وجود العوالم حوله ، فكلها تسير بدائرة العبودية لله ، كلها تتعبد الله ، تسبحه من أعماقها وتقدسه بحركاتها وتمجده بكليتها . وبهذا العمق الإيماني يستحيل الجماد الميت إلى حي له وجود وله غاية يشارك الوجود الإنساني غايته ويسيران معاً بانسجام وتناغم نحو الله ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ ﴾ **الذاريات.**

(هذه الحقيقة الكونية الهائلة هي التي تنير الدرب للإنسان التائه وهي التي تقوده إلى شاطىء الأمان والإستقرار ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ ﴿٢٥٧﴾﴾ **البقرة.** روى ابن كثير في تفسيره (يقول الله تعالى ابنَ آدم: خلقتُك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب فاطلبني تجدني فإن وجدتني وجدتَ كل شيء وإن فُتُّكَ فاتَكَ كلّ شيء ...) أما إذا أراد هذا التائه أن يستكبر في الأرض ويتفلت من عبودية الله فيكون قد تعبد هواه ودخل عالم الظلام والنسيان والضياع ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ **البقرة**(١٣).

العبودية مظهر الوعي الإنساني ودليل على الوجود

ويؤكد التصور الإسلامي على العبودية ويسعى لتعميقها في مختلف جوانب الوجود ... فكل حركة وسكون من قبل هذا الخليفة المستناب ، يجب أن تفسر على ضوء العبودية وكأن هذا التصور أراد أن يربط وبصورة نهائية بين الحس الوجودي عند الإنسان وبين العبودية ... فكلما تعمق الإنسان في فهم العبودية وتطبيقها على مظاهر وجوده كلها كلما أحس بوجوده وبارتباطه بالكون ، وكلما بعُد عنها بروحه وبوعيه وبفعله كلما ارتكس في هبوط بشع مفزع إلى دون الإنسانية الرفيعة بل إلى دون الحيوانية ... وبهذا يصور القرآن الذين كفروا بأنهم كالأنعام بل هم أضل ...

(١٣) من مقال للمؤلف بعنوان (أنا عبد ... لله اذن أنا موجود) منشور في مجلة حضارة الإسلام المجلد السابع العدد ٨ ص ٢١ .

* * *

وبعد أن بسطنا المشكلة وعالجناها مجزأة في الكون والإنسان والحياة ... كان لا بد ـــ إذا أعدنا تركيبها لنراها بصورة اجمالية وفقا لما أعلناه عن منهج التصور ـــ أن ندقق بوجه عام في هذه الأجزاء الهامة .

مشكلة الإنسان مشكلة التعرف إلى الله :

فقد رأينا بوضوح كيف تناسقت الأجزاء في عقد فريد وفي التحام شديد لخدمة الغاية الكبرى وهي معرفة الله سبحانه... ومن هنا نرى أن المشكلة الإنسانية تتلخص في معرفة الله أو عدم معرفته... وهو الصراع الأصيل في الإنسان. فالإنسان، منذ مطلع التاريخ يعاني هذا الصراع فيمر بأزمة إيمان وأزمة روح تليها أزمة أخلاق وأزمة وجود حتى يقيض الله له نبياً أو نبياً رسولاً يهديه سواء السبيل ويعرفه بالله العلي القدير ويضع بين يديه منهج الحياة السليمة السوية .

فالمشكلة اذن ليست مشكلة مادة أو جنس أو اقتصاد أو حكم ... انما هي مشكلة التعرف إلى الله ... وهي بذلك بسيطة جدا ومعقدة جدا ، بسيطة حين نواجهها بتصور سليم ، بتصور ايماني عميق ، ومعقدة حين نجابهها فرادى عزلا ، بعقول قاصرة قطعت صلتها بالحقيقة الخالدة الكبرى : الله .

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ الملك .

الحضارة والنظام

يكاد (مدلول) لفظ الحضارة ينحصر في التقدم العلمي والرقي في وسائل الإنتاج وفي مختلف أنواع الصناعات ...

وهذا المفهوم (الالي) للحضارة ، بمعنى الارتباط المصيري بين (التكنولوجيا) والحضارة مفهوم خاطىء بحاجة إلى تصحيح وتقويم . (فالتكنولوجيا) ظل الحضارة وليست ذاهّا ، فإذا انحسر الظل يوماً فلا يعني نفيها كما أن وجود (ظل) لا يحتم وجودها. فقد تكون أمة من الأمم متحضرة ، أو تملك مقومات الحضارة السليمة ، ومع هذا فهي ليست متقدمة علمياً والعكس هو الصحيح أي أن أ/ة من الأمم قد تملك العلم امتلاكاً ، وقد يخرج من مختبراهّا اختراعاً واكتشافاً إلا أن المنطق السليم يحظر علينا أن ننعتها (بالحضارة) .

فالعلم ، أو التقجم العلمي ، أو التكنولوجيا نتيجة لفهم الإنسان لما حوله من موجودات الأرض والسماء وكنوز التراب والجبال . فالعلم اذن اكتشاف العلاقة مع ماديات الأرض وطريقة استخدامها ، فهو بالتالي ، وسيلة لغاية هي اسعاد الإنسان وتحقيق ذاته (الإنسانية) في الوجود ، وتلك هي الحضارة .

إنّ الإنسان الغربي اليوم على عكس هذا المستوى الكريم . فهو عبد للعلم ، ولثمرات العلم ، يدور حثما دار العلم ، ويعطيه بدفع جنوني كل ما يملك قلبه وروحه وأعصابه وهو يصطرخ : هذه هي الحضارة ...

ولا يسعنا هنا إلا ان نورد دليلاً من الغرب على فظاظة هذا الموقف الخطير ... وهذا الدليل نسوقه من كتاب (الإنسان ذلك المجهول) لمؤلفه الطبيب الكسيس كاريل حيث يقول :

حضارة العصر صدرت عن جهل بطبيعة الإنسان :

(ان الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب . لأهّا لا تلائمنا ، لقد انشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، اذ اهّا تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية

وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياهم ورغباهم . وعلى الرغم من الها انشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا (١٤) .

ويقول في موضوع تأثير الحضارة الصناعية على (الإنسان الغربي) :

لقد أهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعمال ، إهمالا تاما عند تنظيم الحياة الصناعية . اذ ان الصناعة العصرية تنهض على مبدأ الحد الأقصى من الإنتاج بأقل قدر من التكاليف حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد ان يحصلوا على اكبر مبلغ مستطاع من المال ... وقد اتسع نظامها دون أي تفكير في طبيعة البشر الذين يديرون الآلات ودون أي اعتبار للتأثيرات التي تحدثها طريقة الحياة الصناعية التي يفرضها المصنع على الأفراد وأحفادهم (١٥) .

* * *

لا تدعو إلى إهمال العلم ونتاجه إنما إلى تحديد مكانه من الإنسان والحياة :

وما أثبتناه ، لا يشكل دعوة إلى التخلي عن العلم وثمراته ، أو إلى التوقف عن الاكتشاف والاختراع ، أو إلى إهمال تحسين التكنولوجيا والتقدم العلمي ، وإلى الجمود على حد من الابداع في الإنتاج المادي ، فهذا كله غير وارد في منهج التصور الإسلامي ... اذ ان الإنتاج المادي ، وما فيه من ابداع ورفاه ، ضرورة ملحة لحياة هذا الإنسان ولاستمرار نموه ، ودليل سريع على قيام هذا الإنسان المستخلف بواجبات الخلافة ... إنما الذي عنيناه أن يكون هذا الإبداع بكل مدلولاته في خدمة الإنسان ، فتلك هي ارادة الخالق الذي سخر له ما في المسوات وما في الأرض جميعاً منه ... ومن بديهية الخدمة ان تنمي خصائص الإنسان بأن لا تناقضها أو تحتقرها فكيف يجعل دور الإنسان في هذه الأرض دورا ثانويا أو تابعا للابداع المادي كما هو الحال في حضارة القرن العشرين !! .

ولو أنّ الإنسان الغربي فهم هذا المعنى لما سمعنا من ابنائه من يتكلم بحرقة عن مصيره في ظل هذه الحضارة المادية وعن مصيرها هي بذاها .

---

(١٤) المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(١٥) المرجع السابق ، ص ٤٠ .

الانهيار في الحضارة المادية أوحى إلى المفكرين ضرورة ايجاد فكرة أخرى للتقدم قائمة على سيادة الإنسان :

فقد ذكر الدكتور كاريل في مقدمة كتابه (١٦) انه كتب هذا المؤلف لأولئك الذين يجدون شجاعة كافية ليدركوا ــ ليس فقط ضرورة احداث تغيرات عقلية وسياسية واجتماعية ــ بل أيضاً، ضرورة قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أقرب للتقدم البشري .

وينعي الكاتب الروماني الشهير قسطنطين جورجيو في قصته (الساعة الخامسة والعشرون) المدنية الغربية : الأوروبية والأميركية والروسية ويعلن إفلاس هذه الحضارة الآلية في تقويم الحياة الإنسانية بعد أن فقدت كل مقومات الياة ويرنو ببصره ، من بعد إلى أمة ذات أصالة تتفهم الواقع البشري وتتقدم لانقاذ البشرية بفكرة أقرب للتقدم كما قال كاريل ــ تنقذ بها انسان الحضارة الصناعية من وهدة الشقاء ومن حظيرة العبودية لالة صماء نكداء ، وهو في تطلعه هذا يحدد ابعاد الفكرة الجديدة التي ستنبثق منها حضارة جديدة فيؤكد قيامها على سيادة الإنسان في الأرض وتحرره من ربقة الالة وكل منجزات الحضارة الغربية واستخدامه لها بكونها وسيلة لغاية سامية وهي ــ كما أسلفنا ــ تحقيق ذاتية انسانية عليا .

ولندع كونستانتان جورجيو يقول (ان الانهيار الآلي سيعقبه اعتراف بالموهبات الإنسانية وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ولا شك من آسيا ولكن ليس من روسيا . ان الروس قد انحنوا خاضعين امام نور الغرب الكهربائي فلن يعيشوا ليروا الاشراق . سيكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي وسيستعمل النور الكهربائي لانارة الشوارع والبيوت ولكن لن يبلغ به مرتبة الرقيق ولن يرفع له معابد وصوامع كما هو الحال اليوم في بربرية المجتمع الآلي الغربي انه لن يضيء بنور (النيون) خطوط القلب والفكر . ان رجل الشرق سيجعل نفسه سيداً للآلات والمجتمع الالي (١٧) .

---

(١٦) الانسان ذلك المجهول ، ص ١٢ .

(١٧) حضارة الإسلام المجلد ص .

اذن ، لا إهمال للإنتاج المادي ولا للتكنولوجيا ، ولا للتقدم الصناعي إنما فقط ، ربط هذا الإنتاج بمركزية فكرية سليمة بتصور سليم ، بمعطيات سليمة .

المنهج الرباني يدعو إلى استخدام الكون وإلى ربط العلم بنظام للحياة هابط من الله :

إنَّ المنهج الرباني ، لا ينكر استخدام الكون بما فيه من طاقات بل يطلبه ويوجبه فهذه سنة مؤكدة لا مناص منها ولا مهرب ، إنما يرفع الإسلام النكير عندما تعطي قلبك لهذا الإنتاج وعندما تجعل التقدم الصناعي في قلبك لا في يدك أو كما قال جورجيو ان ترفع له المعابد والصوامع وتضيء القلب والفكر بخطوط (النيون) والذرة ... و... الخ .

هذا المعنى الدقيق العميق في الفهم الحضاري هو ما أشار إليه القرآن وهو يقص مواجهة نبي الله هود لحضارة (عاد) المادية الصناعية الهائلة فقال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾ الشعراء.

فهود ، في مواجهته لتضخم التقدم العلمي ، لم يرفع المعول ليهدم هذا الصرح الشامخ من الصناعات والعلوم ، ولم يدعُ إلى الانفصال عما وصلوا إليه ، كسبيل للإنقاذ، بل راح يدعو إلى ربط هذا التقدم العلمي واستخدام خيرات الأرض بالغاية الصحيحة التي خُلق من أجلها هذا الإنسان وإلى (ضبط) هذا الربط ليكفل عدم الجنوح والخروج ، وعدم المعاودة إلى التصور الجاهلي القديم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ الشعراء. وإلا فالمصير أسود مخيف ... عذاب يوم عظيم .

هذه المجابهة بكل أبعادها ومعالمها وبكل مقوماتها وأسسها ، هي التي نحتاجها اليوم ، إذا ما أردنا تلافي تدمير البشرية وتحقيق حفظ التقدم العلمي وحفظ السيادة الإنسانية ولا يكون ذلك الا في (ربط) الابداع المادي الغربي بالتصور الإسلامي السليم عن الكون والإنسان والحياة (وضبط) هذا (الربط) بنظام للحياة لكل معالم الحياة ؛ للإقتصاد والسياسة والحكم والإجتماع ، مستقى من مصدر هذا التصور ، من الله سبحانه ... هذا

(الربط) هو الذي يحقق لنا وللوجود البشري ، مرة ، أخرى ، حضارة صحيحة تستحق عن جدارة لفظ حضارة .

على النظام مسؤولية كبرى في ضبط الربط :

إن عملية ضبط الحياة في نظام منسق متفق مع عمق التصور ومنسجم مع خصائص الإنسان هو أدق من الربط نفسه ، فالنظام مسؤول عن استمرار الربط ومنع الإنحراف ومسؤول عن بقاء الناس في الخط المستقيم ، وعن تأصيل ابعاد التصور فيهم وفي أجيالهم الصاعدة ، وايضا هو مسؤول عن نشر هذا التصور في العالم حتى يستقيم الناس جميعا على امر واحد وعلى نهج واحد وعلى حضارة واحدة .

اذن للنظام خطر كبير ، فهوز صورة الفكر ، وهو الواقع التطبيقي للنظرية ، ولا حياة للتصور دون تطبيق ولا جدوى منه دون تنفيذ . والنظام بقدر ما يكون عميقا في الواقع بقدر ما تظهر اثار التصور واضحة جلية ، وأي انحراف في النظام أو في نهجه أو في تطبيقه يصيب مقتلا من التصور ويحجب اشعاعه من الوجود ...

ولا يمكن أن تستقيم حياة مجموعة من الناس إلا عندما تكون أنظمتهم في الحكم والسياسة والإقتصاد والإجتماع ، في الأسرةى والحي والدولة ، نابعة من تصورهم للكون والإنسان والحياة ... ولا يمكن ان يوجد الانسجام بين الناس وبين انظمتهم الا عند وجود صلة روحية بين الاثنين : تعارف يضرب بجذوره إلى الأعماق .

إن الإنسان السوي ليرفض التجزئة بين حياتيه الفكرية والواقعية فهو لا يقبل ، أو ليس من مصلحته أن يقبل ، خضوعه لاتجاهات عديدة . فاتجاه يحكم قلبه وآخر عقله وثالث حياته الإجتماعية ورابع حياته السياسية وخامس حياته الإقتصادية وسادس وسابع الخ ... فذلك يخلق التمزق في أعماقه وحياته ، التمزق الذي لن ينتج عنه إلا القلق والإضطراب والفوضى وبالتالي الإنهيار الكامل ...

ماركس يبرر انفصاله عن الدين :

لقد كتب ماركس في تبريره الانعزال والانفصال عن الدين أنه أي الدين يسبب التمزق في الشخصية الإنسانية والدليل على ذلك ان الدين أي (المسيحية) ـــ أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله ـــ فأصبح الحكم السياسي والأنظمة الأخرى بيد الإنسان يضعها

حسب ما يريد ويشاء في حين بقي هذا الإنسان خاضعا في حياته الشخصية والخلقية للقيم الدينية ... فمثلا الإنسان في حالة الإعتداء عليه يكون في حالة متناقضة فالقيم الدينية تأمره بالغفران والتذلل (من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الأيسر) والقوانين البشرية تخوله الاقتصاص والتعويض فبأي الإتجاهين يأخذ ؟ ان استجاب لهاتف الدين ضاعت حقوقه وكتبت الذلة عليه وان استجاب لنداء فطرته في دفع الأذى والاقتصاص حسب القانون يكون قد خالف الدين وهكذا يقع هذا الإنسان فريسة للتمزق !!!

هذا التبرير وان أصاب به ماركس بالنسبة للدين المسيحي المنفصل عن الحياة العامة، إلا أنه لا يصدق إزاء الإسلام العظيم ... فالإسلام قد حاول دون وجود التمزق أصلا بانبثاق نظام كامل للحياة عن تصوره السليم . وبالنسبة للمثل المضروب فالآية التالية ترينا كيف عالج الإسلام هذا الاشكال ببساطة وهدوء ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ الشورى. فمن أراد مبادلة السيئة بأخرى فهاكه نظام يضمن الحقوق ويكفل التنفيذ [١٨] . ومن أراد الصفح والعفو فهذا شأنه وله ذلك ، ما لم يمس النظام العام .

النظام وليد الفكرة :

فالنظام ينبع من فكرة الأمة من مبادئها في الكون والحياة ... فكما انه لا يمكن تطبيق نظام الحكم الشيوعي مثلا في امريكا أو نظام الحكم الاميركي في روسيا ... كذلك يستحيل ــ دون تصادم ودون صراع وألم ــ تطبيق أي نظام في أرض لا تمده بأسباب الحياة ... لا يمكن مثلا ان نقول بنظام ديمقراطي غربي أو شرقي أو نظام اقتصادي شيوعي

(١٨) ذكر الدكتور سعيد رمضان في مقال له في مجلة (المسلمون) المجلد الخامس العدد السادس سنة ٩٥٦ صفحة ٥٢٩ انه لما كان في اميركا حدثه استاذ كبير في علم الإجتماع بعد محاضرة القاها هناك وتحدث فيها عن العدالة الإجتماعية في الإسلام فقال له : (إذا صح ان الذي ذكرته الليلة موجود في الإسلام فإنك تكون قد ساهمت اسهاما كبيرا في معالجة عقدة عميقة في نفسي) قلت له : كيف ! فقال : (ان الذي وصلت اليه بعد كل دراساتي في الإجتماع جعلني اؤمن ان الجنس البشري ضعيف لا يؤتمن على نفسه محدود تجعله حدوده يتعثر ويتغير ويهدم ما بناه ، ومقتضى العدالة الالهية إذا كان لهذا الكون اله ان يتدخل ليضع للذين خلقهم حدوداً تهديم امام شهواتهم العارمة وجهلهم المركب وقد اصبحت اعتقد ان هذا التدخل ضرورة يفرضها العدل والرحمة بهذا الإنسان الضعيف !) فلما اطلعته في لقاء آخر على ترجمات لبعض آيات قرآنيةى وأحاديث فغر فاه في دهشة بالغة وأحسست بزلزال عجيب في نفسه فتأمل !!!

أو رأسمالي ، وان ننادي بالوقت نفسه بالتمسك بالقيم الدينية الإسلامية ... فهذا تناقض فاضح مرفوض شكلا وموضوعا كرفضنا تطبيق الرأسمالية في روسيا والشيوعية في اميركا .

الأنظمة تنبع من الفكرة ... فهي التي توجد الأنظمة وتنسقها وتفرضها . وليس العكس بصحيح بمعنى أن النظام لا يخلق الفكرة ، النظام يحافظ على الفكرة ، يدافع عنها ، لكنه لا يوجدها .

* * *

الإنسان مشكلة الحضارة الكبرى :

إنَّ عناصر (الحضارة كما يقول الأستاذ مالك بن نبي [١٩] أو مشكلتها تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية : مشكلة الإنسان ، ومشكلة التراب ومشكلة الوقت ، فلكي تقوم حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات وانما بأن تحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها .

ولا ريب أن الإنسان العنصر الأهم ، إذ هو الذي يستطيع توجيه الوقت وتوجيه التراب أو هو الذي يملك الاستفادة من الكون في زمن محدود أو حد معلوم .

فمشكلة الإنسان هي المشكلة الكبرى في الحضارة فإذا أدركنا توجيهه نكون قد وجهنا كل شيء وجهنا الوقت والتراب وبالتالي صنعنا الحضارة .

ولقد تحدثنا في الفصل السابق عن جوانب من المشكلة الإنسانية ... وهنا في هذا الفصل . وانسجاماً مع مضمونه العام لا بد من تبسيط جوانب أخرى من المشكلة .

الإنسان ـ على الزمن ـ واحد لم يتغير فهو بحاجة إلى تصور ثابت :

الإنسان منذ وجوده الأول وحتى نهايته واحد ذو خصائص واحدة ومقومات واحدة . فلا يختلف أي انسان عن أي انسان آخر في أي زمان ومكان ... الإنسان هو الإنسان ، سواء كان ابيض أو أسود وسواء كان هنا أو هناك وسواء كان في لحظة الوجود الأولى أو في القرن العشرين ... هو الإنسان بالحس والشعور ، بالطبائع والروح ، بالأشواق والضرورات بالآمال والآلام ولا عبرة بعد ذلك ولا قيمة لشكل الثياب أو

---

(١٩) كتاب شروط النهضة ومشكلات الحضارة ، ص ٤٨ ـــ ٤٩ .

المسكن أو المركب فلو ان هذا الكائن سكن الخيمة أو القصر ، البادية أو المدينة ، البحر أو الجبل أو لبس من ألوان الثياب ما لبس أو ركب ـــ كدابة له ـــ جملاً أو قطاراً أو طائرة أو أي شيء آخر فإنه سيبقى انساناً بخصائصه وأعماقه . فقيمة الإنسان في جوهره لا في مظهره ومهما كان للمظهر ، من أشكال الحياة من أثر فإنها لا تتجاوز دائرة ضيقة تبقى بعدها الخصائص الإنسانية ثابتة لا تتغير .

وإذا استقرأنا التاريخ [٢٠] ودرسنا الإنسان في كل عصر من العصور لوجدناه كما ذكرنا ثابتا في الخصاءص والمقومات .

إنّ هذا الثبات في الكينونة البشرية للإنسان بحاجة إلى ثبات في النهج أو إلى حضارة تضرب بجذورها إلى معطيات ثابتة إلى تصور ثابت لا يعرف الجمود أو كما قيل تصور له حركة ضمن إطار ومحور ثابت) .

إن الإسلام وحده من بين جميع الأفكار القديمة والحديثة يملك معنيات البناء الحضاري في هذا الوجود ، فهو قد منح المؤمنين به فكرة كلية عن الكون والإنسان والحياة متسقة دون تصادم ، دون تعقد ، واضحة دون أي لبس أو غشاوة . وهكذا غدت معالم الحياة ـــ الذات الإنسانية والكون العجيب ـــ مكشوفة جلية .

و لم يكتف الإسلام بهذا الوضوح الأيدلوجي ... فأمد انسان هذه الحياة ، بأنظمة تكفلت ثبات تصوره من جهة وتجسيد فكره العالي بواقع حياتي سليم ، ومن أجل ذلك كانت الأنظمة الإسلامية في كل ما دق من الحياة وما عظم ...

أنظمة الإسلام صدرت عن معرفة اصيلة بالإنسان فهي ثابتة متطورة :

إنّ أنظمة الإسلام الحياتية شاملة لكافة نشاطات الإنسان ... فيكاد لا يوجد أو الأصح لا يوجد مرفق من المرافق الحياتية الا وللإسلام فيه رأي وتوجيه أو ضبط وتنظيم ، فمن الغرائز الإنسانية إلى الأسرة إلى المجتمع إلى الدولة إلى الحكم ، والإقتصاد ، والقضاء ، إلى الحرب والسلم ، إلى كل شيء. ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ الاسراء

(٢٠) قصص الأنبياء مع أقوامهم اصدق تفسير في هذا الصدد .

وهذه الأنظمة وضعت بناء لمعرفة أصيلة بحاجات الإنسان وامكانية تطور هذه الحاجات عبر الزمن . فهي لم تهمل عنصر المرونة في خصائصها ومقوماتها بل جعلتها قاعدة انطلقت منها فوافقت بذلك (حاجة التكيف) وفق مقتضيات الزمن .

إلا أنّ هذا لا يعني ان أنظمة الإسلام متطورة فتتكيف مع الواقع اياً كان دونما اعتبار لأصل ثابت فيها . إذ ان هذا يعني ان الواقع يفرض ذاته على الإسلام فيطوره . وهذا ما لا يقبله الإسلام بل نرى الإسلام يعمل بكل ما فيه من تصور ونظام لتطوير الواقع حسب منهجه وأبعاده .

إنَّ الإنسان ، كما ذكرنا ، ثابت من حيث الجوهر ثابت في الكينونة . في الخصائص والمقومات . فالذي يتطور ، فيه وفي حياته ، الأشكال ، الصور ، المظهر ، أي جزئيات في التركيب العام ، ومن هنا فهو بحاجة ــ كما أسلفنا ــ إلى منهج ثابت في الخصائص والمقومات لكنه مرن ، يتطور مع الشكل يتحرك في الصورة ، أما المضمون ، أما الجوهر فهو ثابت راسخ أي جامد .

إنَّ الأنظمة الإسلامية ، بوجه عام ، جامدة ، تضمن الأسس التي لا حيدة عنها ولا خروج ولا تعديل ولا تبديل ، إلا أنها أيضاً مرنة فيما تبقى في القضايا القابلة للتطور والتغيير في الأشكال الفمروض فيها أن تتكيف في واقع أو ظرف معين .

وبهذا تكون الأنظمة الإسلامية ــ وحدها خلافا لسائر أنظمة الأرض ــ قد جمعت الثبات في الأسس والمرونة في التكيف ، أي انها جاءت منسجمة مع التركيب الإنساني ، ثبات في الجوهر وتغير سلبي في المظهر وبذلك غدت ــ بلا ريب ــ أقدر النظم على حمل أعباء الحياة الإنسانية .

إنَّ الإنسان ــ في أي زمان ومكان ــ يستطيع بسهولة الإعتماد على الأنظمة الإسلامية الحياتية أو بعبارة أصح أن يسلم لها فتمده هذه بصورة دائمة بأسباب النجاة وبمعطيات الاطمئنان .

والأنظمة الإسلامية موحدة للتوجيه والتشريع :

وليس من قبيل الصدفة ، وقد ربط الإسلام أنظمته بفكرته الشاملة عن الكون والحياة والإنسان وبوظيفة هذا الإنسان في الوجود ، ان يأتي القرآن بقواعد التشريع وبمبادىء أنظمة الحكم والإقتصاد والإجتماع في طيات آيات التوجيه وكأن ذلك اشارة ربانية خالدة إلى ضرورة إحكام الصلة بين التوجيه والتشريع . ولعل آية الشورى خير مثل في هذا الصدد ، فالآية تقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ فقاعدة الحكم الأساسية ، نظام الشورى كله ، قد جاء بوضوح تام ، مرتبطاً بالتوجيه ، أو ان التوجيه قد جاء متلاحماً مع التشريع الشوري .

إنَّ هذا المعنى الدقيق ليؤكد حقيقة طالما غفل عنها الناس وهي الوحدة العميقة بين التوجيه والتشريع وعدم الفصام بينهما ، ومما لا شك فيه أن الفصام النكد الذي جرى بين هذين المعلمين الكبيرين في دنيا الناس كان نتيجة لظروف سيئة مرت بها الإنسانية المعذبة ولا تزال .

إنَّ تلاحم الأنظمة بالفكرة المطلقة عن الكون والإنسان والحياة يوجد الانسجام المطلق بين الإنسان والحياة ويدفع هذا الإنسان ، بقوة وعمق وبصيرة ، للقيام بدوره الخلاق المبدع في خلافة الله . عند ذلك يكون التفجير الحضاري تعبيراً عن عمق الارتباط بين الإنسان والحياة . ويتعاظم هذا الارتباط ويشتد كلما أدرك الإنسان مبتغاه حيث السعادة والاطمئنان .

الحضارة وحي هابط :

وهنا نستطيع أن نقرر باطمئنان أن (الحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من المساء ويكون للناس شرعة ومنهاجاً أو هي ــ على الأقل ــ تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة الا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية ، إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته وتتفاعل معها) (٢١) .

---

(٢١) مالك بن نبي ، كتاب شروط النهضة ومشكلات الحضارة ص ٥٥ ــ ٥٧ .

والإسلام هو الحضارة والشرود عنه تخلف :

ونستطيع ان نقرر بوضوح أكثر ان (الإسلام هو الحضارة) لأن الإسلام وحده استطاع ان يعرف الإنسان بحقيقته وأن يمنحه بعد ذلك كافة أسباب التقدم ، وان يربط هذا التصور بأنظمة تكفل الاستمرار بخط تصاعدي بناء . (من أجل ذلك كله تكون القيم والأخلاق والايحاءات والضمانات الإسلامية هي اللائقة بالانسان ، ويكون الإسلام هو الحضارة ويكون المجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر) [٢٢] .

ونقرر أيضاً ، بصورة عكسية ، ان الحضارات عبر الزمن ، التي لم تتخذ من التصور الإيماني تصوراً لها في كل شؤون حياتها والتي لم تتعرف على حاكمية الله في كل أمور دنياها والتي لم تربط إنتاجها المادي العلمي بفكرة الخلافة في الأرض و لم تضبط هذا الربط بأنظمة تنبثق عن الوحي الهابط كما يسميه مالك بن نبي فإنها لا تستحق لفظ حضارة ولن تكون مجتمعاتها ـــ مهما بلغت من تكديس أو ابداع الإنتاج المادي ، مجتمعات متحضرة بل هي بمؤسساتها ودولها متخلفة عن الوعي والتقدم الصحيحين .

شهادة من عاش الشرود عن منهج الله قديماً وحديثاً :

إنّ الإنسانية متى شردت عن منهج الله وشرعه لن تكون باي حال متحضرة لأنها في أعماقها شقية بائسة قلقة تتخبط ولا تهتدي إلى السبيل . يقول "ول ويورانت" الكاتب الاميركي في كتابه مباهج الفلسفة [٢٣] :

(وثقافتنا اليوم سطحية، ومعرفتنا خطرة، لأننا أغنياء في الآلات فقراء في الأرض، وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الديني وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقياتنا. ويبدو العالم كله مستغرقاً في فردية مضطربة تعكس تجزؤ المضطرب اننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التي اقلقت بال سقراط، نعني : كيف نهتدي إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلمية التي بطل أثرها في سلوك الناس ؟ اننا نبدد تراثنا الإجتماعي بهذا الفساد الماجن من جهة وبهذا الجنون الثوري من جهة أخرى حين نفقد الفلسفة التي بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التي توحد الأغراض وترتب سلم

---

(٢٢) سيد قطب ـــ معالم في الطريق ، ص ١٥٣ .

(٢٣) كتاب مباهج الفلسفة ترجمة مؤسسة فرانكلين الجزء الأول ص ٦ ـــ ٧ .

الرغبات ، اننا نهجر في لحظة مثاليتنا السلمية ونلقي بأنفسنا في هذا الانتحار الاجماعي للحرب . وعندنا مئة ألف سياسي ، وليس عندنا (رجل حكم) إننا نطوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل ، ولكننا لا نعرف أين نذهب و لم نفكر في ذلك أو هل نجد هناك السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة ، اننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التي أسكرتنا بخمر القوة ولن ننجو منها بغير الحكمة) .

هذه شهادة من (غربي) يعيش وطأة الشرود عن منهج الله ، ويرسم لنا بصدق حال الحضارة الغربية السائدة في الأرض ويرينا القلق والحيرة لفقدان التصور السليم ولانعدام الربط بين الفكرة وبين النظام ، (ليس عندنا رجل حكم واحد) وان الإنسانية ــ الشاردة عن الحضارة الحقة ــ تقذف بنفسها إلى الإنتحار !

وليس ببعيد عن هذا المعنى ما تكشفه لنا قصيدة في نهاية العهد البابلي فترينا أيضاً تخبط الإنسانية ــ في ذلك الزمن ــ عندما فقدت مقومات الحياة وشردت عن منهج الله .

ومن خلال القصيدة نرى الشاعر يرسم لنا صورة عن الضياع والتشتت أو البؤس والقلق ، فهو يبتغي السعادة إلا انه لا يجدها في المرأة ، ولا في الثراء ، ولا في التعبد لإله عاجز ناقص ، ولا في الاستبداد ، فإذا ما تضخم عنده الضياع وجد سبيلاً لحسم الحياة : القتل والانتحار [٢٤] .

---

(٢٤) الألف الثاني قبل الميلاد ــ وهذه القصيدة نقلناها من كتاب الإنسان والحضارة تأليف يوسف الحوراني ، وقد أثبتها مجزءة في الصفحات ٢٣٧ ــ ٢٣٨ ــ ٢٤٠ ــ ٢٤٢ بعد ان قدم لها بقوله : (ولعل اصدق من عبر بعمق عن هذه الحالة ، حالة الضياع والقلق الإنسانيين ، كان كاتباً بابلياً مجهولاً نقلت الينا نصوصه ألواح الطين . التي تعود إلى فترة النزع البابلي قبل ان تتسلم الحضارة الأصيلة أيدي الآشوريين الفساة ، هو حوار بين عبد وسيده ، ينطبق على حالة كل مجتمع بلغ شيخوخته ، وهو حالة أثرياء المدنية الغربية في ومنا هذا) وقد أشار الاستاذ حوراني انه نقل القصيدة من كتاب (ما قبل الفلسفة) الذي بدوره نقلها عن (لاتفدن) أو (الحكمة البالبية) وهذه هي :

قال السيد لعبده :

وافق معي ايها العبد :

نعم يا سيدي نعم (اجاب العبد)

السيد : سأحب امرأة

العبد : احب يا سيدي أحب (فالرجل الذي يحب امرأة ينسى العوز والبؤس)

السيد : لا ايها العبد سوف لا أحب امرأة

العبد : لا تحب يا سيدي لا تحب فالمرأة مصيدة وفخ وشبكة ، المرأة سيف حديدي حاد مسلط ، معد لقطع رقبة الشباب .

وافق معي ايها العبد وافق :

هذه هي قصة الحضارات الزائفة وهي قصة واحدة لا تختلف فصولها ولا احداثها لأن الإنسان فيها انسان واحد على الزمن ، فقد المنهج فارتكس في ضياع قتال . وبالحقيقة هي قصة تخلف واحد لأنها حجبت انسان الحياة عن أي نور يتطلع إلى خالقه ونفسه وكونه والهته باندفاع جنوني مخيف نحو عربدة علمية يُضيع فيها ذاته .

إلا اننا في نهاية هذا الفصل نحب ان نؤكد حقيقة ــ أسلفناها سابقا ــ ان هذا الانهيار الآلي سيعقبه اعتراف بالموهبات الإنسانية كماي قول جورجيو : (لأن الناس لا يستطيعون ان يتبعوا الحضارة العصرية في مجراها الحالي ، لأنهم آخذون في التدهور والانحطاط ، لقد فتنهم جمال علوم الجماد انهم لم يدركوا ان احساسهم وشعورهم يتعرض للوانين الطبيعية ، وهي قوانين أكثر غموضاً وان كانت تتساوى في الصلابة مع القوانين الدينية ــ كذلك فهم لم يدركوا انهم لا يستطيعون ان يعتدوا على هذه القوانين دون ان يلاقوا جزاءهم . ومن ثم يجب ان يتعلموا العلاقات الضرورية للعالم الدنيوي ولأترابهم أبناء آدم ولذاتهم الداخلية ، وتلك التي تتصل بأنسجتهم وعقولهم . فإن الإنسان يعلو كل شيء

العبد : نعم يا سيدي نعم

السيد : احضر لي حالا ماء ليدي ، احضره إلى هنا فسأقدم فريضة لالهي

العبد : قدم يا سيدي قدم ، فالرجل الذي يقدم فريضة لالهه يطمئن قلبه ويزيد ذخراً على ذخر .

السيد : لا أيها العبد سوف لا أقدم فريضة لالهي

العبد : لا تقدم يا سيدي لا تقدم ، عود الاله ان يجري خلفك كالكلب ولما يسأل أين خدمتي ؟ اجبه انك لم تطلب ، وافعل شيئا آخر .

وافق معي ايها العبد وافق

العبد : نعم يا سيدي نعم

السيد : ساقدم هبات للمزارعين في أرضي

العبد : افعل ذلك يا سيدي افعل ، فالرجل الذي يقدم هبات لمزارعيه تكون هباته وكأنها وضعت في كف الاله مردوخ نفسه

السيد : لا ايها العبدج ، سوف لا اعطي هبات لمزارعي

العبد : لا تعط يا سيدي فاصعد فوق خرائب المدن القديمة وتجول حولها تأمل في جماجم المتقدمين والمتأخرين فمن هو صانع الخير منهم ؟ ومن هو صانع الشر ؟

وافق معي ايها العبد :

العبد : نعم يا سيدي نعم

السيد : والآن ما هو الصالح ؟ ان أدق عنقك وأدق عنقي بعدك وتسقط في النهر ، ذاك هو الصالح .

العبد : من تراه طال حتى وصل السماء ، ومن بلغت ضخامته حتى يحتضن الأرض.

السيد : لا ايها العبد ، سأقتلك انت فقط واجعلك تسبقني

العبد : وهل يريد سيدي ان يعيش لثلاثة ايام بعدي؟

في الدنيا فغذا انحط وتدهور فإن جمال الحضارة بل حتى عظمة اتلدنيا المادية لم تلبث ان تزول وتتلاشى) [٢٥] .

إنَّ طريق الإنقاذ ، طريق واحد واضح جلي أعني : ربط الإنتاج المادي بتصور سليم متين عن الكون والإنسان والحياة ، وضبط هذا الربط بأنظمة مستمدة من مصدر هذا التصور وجعل هذه الأنظمة بيد (رجال حكم) لا هواة سياسة . أو بمعنى آخر إقامة حكم الإسلام من جديد أي العودة الصحيحة إلى طريق الله .

(٢٥) الكسيس كاريل ، ص ١٠،١١ .

الفصل الثالث

مفهوم الدولة في الإسلام

إنَّ غاية الأنظمة الإسلامية كما ذكرنا (ضبط الإرتباط) بالله سبحانه بحيث تغدو الحياة بكل صورها ومعالمها مومؤسساتها، منصبغة بالصبغة الربانية ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴿١٣٨﴾ ﴾ البقرة. سالكة أهدى السبل ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴿٩﴾﴾ الاسراء. ومحققة في الوجود أعظم أمة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿١١٠﴾ ﴾ آل عمران .

انبثقت الدولة من ضمير الشرع

لضبط تصرفات الناس في الإتجاه الذي ارتضوه لأنفسهم

ومن هذه الغاية الكبرى للأنظمة ، ينبثق مفهوم الإسلام للدولة ، ، فهي ليست أداة للقهر والإكراه ، وليست وسيلة لتحقيق نفوذ طبقة على أخرى ، كما أنها لا تخضع للعوامل والمؤثرات المادية : من أدوات إنتاج إلى إنتاج ومن ارادة فرد أو أفراد ، إنما هي لضبط تصرفات الناس في الإتجاه الذي ارتضوه لأنفسهم فهم قد ارتضوا الإسلام ديناً وشرعة ومنهاجاً فلا بد نتيجة لذلك من ضابط يشرف على هذا الرضى ، ويسعى جاهداً لتنفيذ عقده ، بكل دقة واخلاص . وذلك الضابط هو الدلوة ، فالدولة اذن أداة لتجسيد رغبات الناس المؤمنين ، كل الناس ، ووسيلة لزيادة النمو والتقدم في مختلف جوانب حياتهم.

ولا بد من الإشارة[٢٦] هنا إلى أن الضابط أي الدولة وهو في طريقه لتجسيد الرغبات لا يهتم من حيث المبدأ بارادات فردية أو حتى جماعية ان خالفت المصدر الذي أوجده ... فهو أي الضابط ، غير مدين في وجوده إلى طبقة من الطبقات أو فئة من الفئات أو عصبية من العصبيات أو إلى إنتاج ووسائل إنتاج ! فهو قد انبثق من صميم هذا الشرع الذي آمن به : المصلي في محرابه والزوج في بيته ، والفرد في مجتمعه ... وليس لأحد من هؤلاء فضل يد في ايجاد هذا الضابط بل قد جاء هو متفضلاً عليهم في ضبط تصرفاتهم وتنمية قدراتهم والسير بها إلى الله . ومن هنا ليس لأي كان ، أي حق تجاه الدولة ، يراه لنفسه ، إلا ما أوجبه الشرع وما اقره وليس للدولة عقد مباشر كما ذهب إليه روسو وكثير من المفكرين إنما العقد بين الفرد وبين الله .. فالإنسان ، بدخوله في

(٢٦) ونرجئ التفصيل الى القسم الثاني من هذا الكتاب ان شاء الله .

الإسلام وبإيمانه بعقيدة لا إله إلا الله ، وقد ارتبط بعقد له شروط وموجبات ومواصفات ... وله أيضاً بدل تكفل الله به في الدنيا وفي الآخرة ، فمن شروط العقد وموجباته أن يأتي الله مؤمنا من أعماقه معترفاً بالوهيته وحاكميته خاضعاً لكل أمر أو نهي يصدر عنه ، وبدل هذا العقد الذي تعهد به الله سبحانه ، فمن هنا ليس بين الفرد أن يمنح هذا الإنسان المستسلم لمشيئته ، منهج حياة يضيء له الطريق ويوصله بطمأنينة وهناء إلى الآخرة .

ليس بين الفرد والدلوة عقد مباشر

إنما العقد بين الله والفرد والدولة شخص ثالث :

وقد تم هذا التعاقد فعلاً بين الله والإنسان في فترات من التاريخ ، ثم جدد بقوة وحزم في عهد النبوة الأخيرة فتجلى اعطاء الله سبحاهه واضحاً بهياً ناصعاً في شريعة الإسلام ، تصوراً للإنسان والكون والحياة ، ومنهجاً سليماً في الواقع والسلوك ...

وجاء أمر الله موجباً ، وجود ضابط للإشراف على هذا العقد ، للمساعدة على تنفيذه ، ولتنميته على الزمن ، فكانت الدولة .

فالدولة ، اذن ، شخص ثالث يختلف عن الله تبارك وتعالى وعن الإنسان ، وليس بينهما وبين الإنسان أي عقد مباشر .

من أجل هذا قلنا ، شخص ثالث يختلف عن الله تبارك وتعالى وعن الإنسان ، وليس بينها وبين الإنسان أي عقد مباشر .

وبناء على هذا الوصف نقول ليس للفرد الذي دخل الإسلام أو داره ان يرفض ولاية أو سلطة الدولة وليس له أيضاً ان ينفصل عنها ويقبل بسلطة أخرى . وليس للدولة أيضاً ان تسقط رعايتها أو ضبطها لفرد من الأفراد أو تتخلى عن موجباتها ازاءهم طالما ان هؤلاء متمسكون بعقودهم وهي قائمة على شرعة الله.

الدولة في أوروبا :

إن فكرة العقد المتبادل بين الفرد والدولة أو بين الشعب والدولة فكرة قد نشأت في أوروبا في ظروف وملابسات معينة وهي على هذا الأساس لم يعرفها الإسلام ، ولا

يقرها على كل حال . (وسنعرض لهذا الأمر تفصيلا في القسم الثاني من هذا الكتاب ان شاء الله) .

فمن مقتضيات فكرة التعاقد المباشر (ومنها المذاهب السياسية في الحكم وخاصة الديمقراطية) ان تساير الدولة ارادة هذا الشعب وارادة اغلبيته فهي مدينة بوجودها لهم ، وهم قد تعاقدوا معها لتسيير شؤون حياتهم وفق ما يملون عليها ، لذلك فليس لها الحق ان ترفض ما يريدون أو يريد اغلبيتهم أو ما يريد البعض الذي يسير الآخرين .

إنّ هذه المسايرة كما نرى في مجتمعات الدنيا تخلق جوا من النفعية والأنانية وربما الاستبداد وتخضع اداة الضبط إلى فئة من المستغلين النفعيين مما يجعل هذه الاداة ، كما يزعم الكثير اداة للقهر والإكراه ، الأمر الذي يفسح المجال للماركسية اللينينية ، ان تقول ان الدولة مظهر من مظاهر تنازع الطبقات ووجودها دليل على وجود الطبقات المتصارعة.

الدولة في الإسلام تخضع للشرع لا للعشب :

إنّ المفهوم الإسلامي للدولة يحررها من الخضوع لإرادات البشر فهي لم تنبثق عنهم ولا بوحيهم ، وبالتالي لا تسير على أهوائهم ومنوالهم ، ووفق كثرتهم أو اجماعهم وإنما تخضع الدولة بكل مفاهيمها وقيمها ونظراتها إلى المنهج الذي اوجدها والشرعة التي حتمتها .

وعندما يتأصل هذا الفهم في نفوس الناس من أن الدولة ليست من عندهم انما هي من عند الله تنتهي عندهم قصة الأكثرية واقلية ، ويشعرون من أعماقهم بقيمة هذا الضابط في تصريف شؤونهم والسير بهم نحو الله ، ويدركون بكينونتهم ، وبكل ما فيهم ، ضرورة تذليل كل صعب أمامه ، والمحافظة على وجوده . فهو لهم وليس عليهم ، معهم وليس ضدهم ، يعمل لمصلحتهم ويعينهم لتنفيذ العقد مع الله ولايصال البدل من الله .

وهكذا تحتل الدولة دور الوسيط بين الله والناس ... ومن أجل هذا كانت الدولة لله وللناس . فالله سبحانه لا يعطي البدل الا عبر الدولة . والناس لا يستطيعون تنفيذ العقد

إلا من خلال الدولة . ومن هنا تغدو الدولة في الإسلام ضرورة كبرى وحتمية لا مفر منها ولا تستقيم الحياة بدونها .

وفي سبيل القيام بهذا الدور الخطير تملك الدولة من الأنظمة والشرائع ما يحقق لها غرضها بكل بساطة ويسر ... ولعل أهم ما تملكه في هذا الصدد ، التصور السليم عند الناس : تصورهم عن الإنسان والكون والحياة وتصورهم عنها وعن غايتها وعن دورها في الوجود ، وبوحي هذا التصور تلمس الدولة عند الناس ايجابية في الطاعة والانضباط ، فتسوسهم بسياسة الله وتحقق فيهم وبهم الخلافة في الأرض بكل معناها ومبناها .

سلطة الدولة تنقذ المنحرفين :

إنّ شعور المسلمين نحو الدولة ، بأنظمتها وتشاريعها ، شعور بناء مهيب منتج . فليست الأنظمة للاستبداد والطغيان وليست لظلم طبقة لحساب أخرى وانما هي وسائل الضبط التي يملكها الضابط بإذن الله . فالسوط الذي ترفعه الدولة ازاء المنحرف عن منهج الله مجرماً كان أو عاصياً أو محتكراً هو البلسم الشافي . يتقبله المنحرفون بضمير مبكت مؤنب . وأكثر من ذلك فإن هذا السوط ، ليغدو عند هؤلاء الذين سقطوا في لحظة من لحظات الضعف البشري احب اليهم من التستر والنجاة والحياة ، فتراهم يسرعون يعلنون عن انحرافهم طالبين انزال العقوبة بهم ملتمسين بذلك سبيل العودة إلى المنهج الذي فرطوا فيه !

إننا لا نملك إزاء الحوادث العديدة [٢٧] التي وقعت في صدر الإسلام إلا تفسيراً واحداً هو سلامة وعمق التصور عند هذه الطليعة المباركة ، التصور لكل مجالات الوجود: للإنسان والكون والحياة ، وللدولة والنظام ، وللحاكم .

---

(٢٧) عن بريدة رضي الله عنه قال : جاء ماعز بن مالك إلى النبي فقال : يا رسول الله طهرني ، فقال : ويحك ارجع فاستغفر الله وتب اليه قال : فرجع غير بعيد ثم جاء فقال : يا رسول الله طهرني فقال مثل ذلك . حتى إذا كانت الرابعة قال رسول الله : مم أطهرك ؟ قال : من الزنا . فسأل رسول الله ﷺ: أبه جنون فأخبر بأنه ليس بمجنون فقال : أشرب خمراً ؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر ، فقال : أزنيت ؟ قال : نعم فأمر به فرجم ... ثم جاءته امرأة حامل من الأزد فقالت : يا رسول الله طهرني . فقال : ويحك ! ارجعي فاستغفري الله وتوبي اليه فقالت : أتريد ان تردني كما رددت ماعز بن مالك انها حبلى من الزنا . فقال ك أنت ؟ قالت : نعم قال لها : حتى تضعي ما في بطنك ، وفي رواية أخرى قال لها : اذهبي حتى تلدي . فلما ولدت قال اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه فلما فطمته اتته بالصبي في يده كسرة خبز فقال : هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها ...) مسلم والنسائي . وقصة الثلاثة الذين خلفوا عن رسول

ومما هو جدير بالاعتبار ان هذه الوثبة لم تكن من صنع السياسيين ولا العلماء الفطاحل بل كانت بين أناس يتسمون بالبساطة ورجال لا يزالون في بداوهم ن غير ان أنظارهم توجهت في تلك اللحظات إلى ما وراء أفق الأرض فتجلت لهم آيات في أنفسهم وتراءت لهم انوارها في الآفاق .

نعم إنه لمن الغريب أن يتحول هؤلاء البسطاء ذوو الحياة الراكدة عندما مستهم شرارة الروح إلى دعاة إسلاميين تتمثل فيهم خلافة الحضارة الجديدة وان يندفعوا روحها وثبة واحدة إلى تلك القمة الخلقية الرفيعة ثم ما لبثت ان انتشرت في حياة فكرية واسعة متجددة (٢٨) ...

إقليم وشعب الدولة !!

ولا بد أن تتجسد الدولة في اقليم معين ، ومجموعة من لابشر ... الا ان هذا لا يفرض علينا نوعاً من الأرض وصنفا من البشر ذلك ان الإسلام في نظرته الكلية ، يسقط من حيث المبدأ (٢٩) اعتبارات درج الناس عليها في دراستهم لنشوء الدولة وعناصرها ... فليس من شرط الإسلام في لادولة ان تكون في اقليم بذاته فقد تكون هنا أو هناك في بلدنا أو في بلد سوانا ، في ارض العرب أو ارض العجم ، فالأرض ارض واحدة ، هي لله يورثها عباده الذين اصطفى .

وحيثما ذكر اسم الله في بلد عددت ارجاءه من لب اوطاني

الله ﷺ في غزوة تبوك ولم يخرجوا معه إلى الجهاد بل بقوا في المدينة عن قصد وعمد تنبئنا بالمعنى الدقيق الذي اشرنا اليه ونراه بوضوح في حديث كعب ابن مالك ، احد المخلفين من رواية الامام احمد اذ قال : (فلما بلغني ان رسول الله قد توجه قافلا من تبوك حضر بثي وطفقت اتذكر الكذب واقول بماذا اخرج من سخطه غدا واستعين على ذلك بكل ذي راي من اهلي فلما قيل لي ان رسول الله قد أظل قادما زاح عني الباطل وعرفت اني لم انج منه بشيء ابدا فأجمعت صدقه ... فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لي تعال فجئت امشي حتى جلست بين يديه فقال لي : ما خلفك ألم تكون قد اشتريت ظهرا ؟ فقلت يا رسول الله اني لو جلست عند غيرك من اهل الدنيا لرأيت ان اخرج من سخطه بعذر . لقد اعطيت جدلا ولكنني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله ان يسخطك علي ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه اني لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل والله ما كان لي عذر والله ما كنت قط افرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك) ويبدأ العقاب بنهي المسلمين عن محادثة ومكالمة الثلاثة المتخلفين مما اضطرهم إلى الاعتزال ثم امر الثلاثة بأن يجتنبوا زوجاهم ويستمر ذلك خمسين يوما فتأمل

(٢٨) مالك بن نبي ، شروط النهضة ومشكلات الحضارة ، ص ٥٧ ،٥٨ .

(٢٩) تفصيل ذلك والتعليق عليه في فصل الوحدة من القسم الثاني من هذا الكتاب .

وما يقال عن الأرض يقال أيضاً عن الناس ... فليس شرطاً ان يكونوا من جنس واحد فكلهم بشر ، ويمكن ان يتعايشوا فيما بينهم ، في ظل العقيدة والنظام ، وضمن التصور والانضباط ، فلا فضل لجنس على آخر الا بانصهاره في بوتقة الإسلام ، فالعربي مسلم ، والعجمي مسلم ... وكلهم عند الله سواء ...

اذن ، فالإعتبارات المادية في بناء الدولة ليس لها قيمة بذاتها اذ يمكن تجاوزها إلى سواها ... أو هي بالأحرى اعتبارات شكلية يسهل معها التغيير والتبديل بل ربما الاسقاط الكلي أو الجزئي ...

إن العقيدة هي المحور الاساسي في دولة الإسلام وهي العنصر الأهم أو هي الأصل ... وما دونها ثانوي يذوي امام تماسك الفكرة واصالتها في أعماق أهل هذه الدولة .

من أجل هذا قسم الفقهاء العالم إلى دارين لا ثالث لهما دار الإسلام ودار الجاهلية(٣٠) ففي الأولى تظهر شريعة الإسلام خفاقة عالية وفي لاثانية يبرز الإنحراف والبعد عن منهج الله في الحياة ... (٣١) .

* * *

عقوبة الإنحراف تعطيل لدور الدولة في تجسيد عطاء الله :

ولله في كلا الدارين سنة لا تتخلف ولن تجد لها تبديلا... فقد وعد الذين آمنوا بالنصر والتمكين في الأرض والبقاء والإمتداد ما داموا على المنهج الذي رسم لهم... ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ الحج .

أما إذا انحرفوا فتجري عليهم سنة القرى ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ الاسراء .

إن عقوبة الإنحراف عن منهج الله عقوبة كبرى ، قد تتجاوز عقوبة أولئك الذين لم يتفيأوا ظلال العقيدة الكبرى ... فالذين عرفوا ثم كفروا ، الذين استضاءت قلوبهم بالنور

(٣٠) الأصل دار الإسلام ودار الحرب ونفضل استخدام الجاهلية بدل الحرب فهي أعمق في الدلالة .

(٣١) انظر تفصيل هذا البحث في القسم الثاني من هذا الكتاب الذي سيصدر بعد هذا القسم إن شاء الله .

ثم أظلموها بالطاغوت ، هؤلاء شر مكانا وأظلم الناس دون جدال فهم قد نكثوا العهد الذي قطعوه لله ... ونكلوا عن العقد الذي ابرموه مع الله وعطلوا في انفسهم ووجودهم ودنياهم خلافة الله ... فليس عجيبا بعد ذلك ان تتعطل دور الدولة في الوساطة وتتوقف حركتها عن العطاء مما وعد الله ...

وكلما أمعن الناس في انحرافهم عن المنهج كلما تلاشى دور الدولة في العطاء حتى يجدب الناس ولعل هذا أبلغ عقاب من الله لهذه الأمة ... فكان الثواب والعقاب في طرفي خط يسير متوازيا ابدا مع منهج الله ... فإذا ما تمثل الإسلام في واقع الحياة عقيدة وسلوكا وتشريعا أدرك الناس الثواب في نهاية الخط المتعالي وإذا ما تخلوا عن شريعة الله هبطوا هبوطا بشعا فأصابهم العقاب : الطرف الثاني من الخط الأبدي ، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الأحزاب .

ليس الإنحراف أو الهرم جزءا من حياة الدولة :

وليس الإنحراف والضعف أو الهرم حتما مقضيا في الأمة ن أو جوءا لا يتجزأ من حياتها كما ذهب إلى ذلك كثير من المفكرين ومنهم ابن خلدون (في العصر الطبيعي للدولة) ومالك بن نبي (في الدورة الخالدة) والماركسية الليينينية في (تنازع الطبقات) .

فابن خلدون جعل للدولة عمرا طبيعيا كعمر الأفراد وحدده بثلاثة أجيال تقارب المائة والعشرين ولها أطوارا خمسة تتدرج من القوة إلى الضعف فالقنوع والتبذير فالذبول[٣٢] .

واما ملاك بن نبي فقد كتب تحت عنوان (الدورة الخالدة) مرددا مع نتشه قوله (انه من السنن الأزلية ان يعيد الترايخ نفسه كما تعيد الشمس دورتها من نقطة الانقلاب) كتب يقول [٣٣] :

(من الملاحظات الإجتماعية ان للتاريخ دوراً وتسلسلاً فهو تارة يسجل للأمة مآثر عظيمة ومفاخر كريمة وهو تارة أخرى يلقي عليها دثارها ليسلمها إلى نومها العميق) ثم

(٣٢) راجع مقدمة معركة ابن خلدون ص ١٤٦ الفصل السابع عشر (أطوار الدولة) .

٣٣) مالك بن نبي شروط النهضة ومشكلات الحضارة ، ص ٥١ .

يضرب المثل على ذلك بالحضارة الإسلامية التي بدأت من غار حراء بومضة روحية هائلة ثم توسعت وانتشرت فوق سطح الأرض مستفيدة من جاذبية الروح و(العقل) ، حتى إذا ما تخلت عنهما وجدناها تخلد إلى الرض مغلبة جاذبية الأرض عليها (٣٤) .

أما الماركسية اللينينية فقد ذهبت في تفسيرها الإقتصادي إلى قريب من هذه المعاني، من وجهة نظرها ، فكلما تقدم الإنتاج وتطورت أدواته تعاظم الصراع الطبقي بين الطبقتين الموجودتين في عصر من العصور فتغلب الطبقة المضطهدة الطبقة الأخرى ثم تنشأ بحكم التطور وتطور ادوات الإنتاج ، حتى تصل إلى ديكتاتورية البروليتاريا التي هي طبقة أخيرة ــ في سلم الطبقات عبر الزمن ــ فتنتزع هذه الطبقة ــ الدولة ــ اداة القسر والاكراه ، من ايدي الرأسماليين لتتركها بعد ذلك تتحطم وتزول (٣٥) .

ان هذا التحتم المطلق في عمر طبيعي أو دورة خالدة أو تنازع الطبقات ولو ارتدى حلة تاريخية (٣٦) ، الا انه يظهر امام التحليل الإسلامي للدولة عاريا من أية حجة منطقية معقولة !!

الدولة في الإسلام نمو وتصاعد

ان الدولة ــ في الإسلام ــ تنمو وتنمو ابدا ــ تتصاعد في خط واحد نحو العلاء متجاوزة كل الصعاب ، كل المحن والمشكلات ... مجددة دوما قواها بحيث لا ترى عليها امارات ضعف أو هوان .

الدولة ــ من حيث المبدأ ــ لا تعرف التلكؤ فالجمود فالتأخر ... بل هي دائما منطلقة إلى الله لتحقق في الرض الرسالة التي انتدب اليها الإنسان (الخلافة الكبرى) ...

---

(٣٤) المرجع السابق ، الصفحات ٥٥ ــ ٦٠ .

(٣٥) راجع بحث الدول للينين .

(٣٦) لا بد لنا ــ هنا من الاشارة الى أن التحليل الماركسي لتصارع الطبقات هو تحليل سطحي و لم ينظر الى المشكلة من جميع نواحيها الاقتصادية والسياسية والفكرية بل اقتصر على العامل الاقتصادي فقط وعلاوة على ذلك فإن تاريخ الصراع هذا على افتراض صحته هو تاريخ اوروبا وليس تاريخنا ولا يصدق في قليل أو كثير على بلادنا ذات التاريخ الخاص ...

هذه الحتمية هي الصل في بناء الدولة ومن أجل ذلك جاء الإسلام بشرائعه ونظمه ... فهو لم يأ لزمن قصير مائة سنة أو اكثر أو أقل ـــ كما حدث فعلا في التاريخ إنما جاء ليحكم البشرية كلها حتى تستقيم على أمر الله دائما في كل زمان ومكان .

فإذا ما تخلى المسلمون في عصر من العصور عن وظيفتهم الكبرى في الوجود فتوقفت الدولة عن النمو والعطاء وأسلمتهم إلى ضعفهم البشري فيكون هذا انحرافا عن الأصل ويبقى انحرافاً ، ولا يمكن ان ينقلب إلى اصل وإلى حتمية ، مهما تكرر في التاريخ ومهما تأكد على الزمن .

ان الإنحراف أمر طارئ على الدولة وعلى تصاعدها ، وهو بهذا المعنى شذوذ وظلم ... فإذا ما وقع فلا بد من دفع الثمن ، مهما غلا وعظم ، فقد يكون في التلاشي والإنحطاط وقد يكون في تدمير الإنسانية ... فهي سنة ... وهي حتمية ... ولكن سنة انحراف وحتمية ثمن .

دعوة القرآن إلى دراسة شان الأمم الغابرة

القرآن يحدد سنة لا تبديل فيها :

من أجل هذا دعا القرآن الناس للتفكير في سنن الله في الأمم والشعوب دعاهم إلى تدبير ما أصابهم وما طرأ على حياتهم كيف نشأوا وكيف تطوروا ثم كيف ظلموا وكيف دمروا ؟

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ هود .

ان هذه الدعوى القرآنية دعوة هادفة أصيلة لتلمس أسباب الإنحراف ثم لاجتثاثها من الجذور كلما بدت في افق الحياة الجديدة ... ولو أن الأولين ممن انحرفوا عن دولة الإسلام اعتبروا بسنن القرى لبقيت دولتعم خفاقة تنضح الناس بخيرات الأرض والسماء .

وبين القرآن سنن الله في الدلولة سننه في استقامتها وسننه في انحرافها ببيان معجز جلي فيقول :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ (١٠٢) ﴾ **الأعراف .**

ما أروع القرآن ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فبكل وضوح وتأكيد وحتمية ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بركات في كل شيء : في أنفسهم ، في وجودهم ، في دولتهم ، في حضارتهم ، في إنتاجهم ، بركات لا تنقطع ... ولا تنغلق ... بل دائما في فيض .. وفي استمرار ... وفي عطاء ... مفتوحة على مصارعيها تعطي دون حساب وتمد الناس بأسباب الحياة ... وتطلقهم بفطرتهم في خط الحضارة التصاعدي.

شرط التصاعد عدم الإنحراف :

إن الشرط الوحيد لكل تلك المعطيات الدفاقة استمرار المجتمع على نهج الله ، في إيمان سليم في أعماق القلوب ، وفي تقوى أصيلة في أعماق الحياة .

الشرط هو الاستمرار وعدم الإنحراف ... الإمتناع عن سبل الذين ظلموا أنفسهم والوجود ... فإذا ما تخلف الشرط هوت الأمة في ضريبة الحساب ووقعت في مخلب السنن ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٧٦) ﴾ **الزخرف .**

فالأصل، إذن، تصاعد الدولة بخط مستقيم لا اعوجاج فيه ولا تكسر ولا انحناء وأن أي انحراف في الخط يحدث على الزمن انفراجا هائلا يؤدي في النهاية إلى التدمير ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ **الاسراء** (٣٧).

وكأني بابن خلدون ومالك بن نبي قد لحظا ـــ بصورة مضطربة غير واضحة ـــ هذه الحتمية الأصيلة لتصاعد الدولة فقد اشار الأول إلى ضرورة (حمل الكافة أي كافة الناس) على شريعة الله إذا ما أردنا أن نتجنب مساوئ الملك الطبيعي والسياسي . ان الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي هو في أصل العصبية وتقرر الوجهة إلى الحق فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة والمطلوب منا ومنهم وهم مستميتون عليه (٣٨) .

أما مالك بن نبي فقد قال تعقيبا على منحني السقوط في الحضارة الإسلامية وهو الخط الذي تلا خط العقل ، الخط الأفقي المتصل بخط التصاعد الروحي (ذاك هو منحى السقوط الذي تخلقه عوامل نفسية أحط من مستوى الروح والعقل ، وطالما أن الإنسان في حالة يتقبل فيها توجيهات الروح والعقل ، المؤدية إلى الحضارة ونموها ، فإن هذه العوامل النفسية تخترق بطريقة ما ، فيما وراء الشعور ، وفي الحالة التي تنكمش فيها تأثيرات الروح والعقل تنطلق غرائز الدنيا من عقالها لكي تعود بالإنسان إلى مستوى الحياة البدائية) (٣٩) .

يجب ان ندرس الإنحراف على أنه انحراف :

وهنا لا بد لي من تأكيد الحقيقة التالية :

---

(٣٧) قال المفسرون في قوله تعالى ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ أمرناهم بالطاعات ففسقوا ! .

(٣٨) المقدمة ١٣٢ .

(٣٩) شروط النهضة ، ص ٥٩ .

ان دراسة حالات الإنحراف في الأمم والشعوب ــ على أنها حالات حتمية أو لا يمكن أن تكون دولة أن تمر بأطوار معينة أو بدورة ميتة (٤٠) !! أو بتصارع الطبقة ــ دراسة مخيفة لها معقبات سيئة في التصور والواقع .

إن الإنحراف لا يدرس إلا بعد دراسة الاستقامة كما أن المرض لا يعرف إلا بعد معرفة الصحة... وكل منهج غير هذا منهج منحرف يعالج الإنحراف بالإنحراف... والإنحراف لن يكون في كل حال إلا انحرافاً ...

علينا ألا نستحضر (الواقع) المنحرف لنستمد منه التصور والسنن... إذ ان هذا الاستحضار يُرسب في أعماقنا فساداً في التصور يوردنا موارد التهلكة ويجعلنا نخبط في التيه بلا دليل على حد تعبير سيد قطب إنما علينا ان نواجه (الحقيقة) مواجهة تلقٍ وتطلع وعندئذ نستطيع أن نرى بوضوح تام خط الإنحراف الآخذ من الخط الصاعد وغير تلك المواجهة تعطل علينا الرؤيا إذ أنها تجعلنا في صميم الإنحراف كالذي يسير وهو مغمض العينين لا يرى سواء السبيل !!

ان دراسة الدولة بداية ونهاية، حضارة وأثراً، يجب ان تنبثق من المفهوم الصحيح للدولة وللحضارة... وبعدها تدرس حالات الإنحراف، على أنها انحراف لا على أنها مظهر حتمي للدولة أو حالة عادية كانت وستكون ولن تتخلف أبدا ..!!

---

(٤٠) نعتقد أن لفظ (ميتة) أصدق في الدلالة من لفظ (حالدة) فالخلود في الأصل الصعود الذي لا دورة فيه أما إذا كان من انحراف في الخط لانشاء دورة فهذا انحراف مميت ... لا خلود فيه ...

الفصل الرابع

كيف أقام الإسلام دولته ؟

أدركنا من الفصول السابقة ، من طبيعة التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، ومن ضرورة (الضبط) لكافة شؤون الحياة وتسييرها (بأنظمة) هادفة إلى الله سبحانه، ومن مفهوم الدولة في الإسلام ... ان وجود (الدولة) حتمية إسلامية لا مفر منها ويعني هذا ان الإسلام جاء، من أول يوم عرفته الدنيا يحمل في طيات ﴿ ٱقْرَأْ ﴾[٤١] نواة، مجتمع وملامح دولة ، وخطة عمل .

لماذا لم يطلب الإسلام الدولة من أول يوم ؟

والسؤال الآن : لماذا لم يفصح الإسلام عن أهدافه من أول يوم ؟ أو لماذا لم يترل القرآن دفعة واحدة فيدعو إلى عقيدة ودولة ، إلى توحيد وتنظيم ، إلى منهج وأسلوب ؟؟ خاصة وان الإسلام واجه بيئة ضائعة، لا تنظيم فيها ولا سيادة ولا عقيدة ولا سلطة ، إلهها هواها ومنهاجها فوضى وأصدق وصف فيها ما قاله أحد ابنائها أمام النجاشي ملك الحبشة جعفر بن أبي طالب (أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف ...) [٤٢] فلو ان القرآن كان جملة واحدة بنظامه وتشريعه وعقيدته ومنهجه لأدركته تلك البيئة (الضائعة) وجودها ولأنقادت إليه بسهولة ويسر دون مقاومة ولا عناد... أو لتمكن الرسول ﷺ من قبول عرض (المشركين) في تتويجه ملكاً وسيداً فحكم بما أراده الله بالتشريع الإسلامي وبالتنظيم الرباني ولقامت دولة الإسلام في أيام معدودات ؟؟

ولأول وهلة يخيل ان مسحة من الحجة تصبغ ظاهر هذه الأسئلة بيد اننا إذا ما دققنا فيها وعرضناها على حقيقة هذا الدين وجدنا فيها من الجهل ما فيها .. ولم نجد جواباً عليها بدقة وايجاز إلا جواب رسول الله ﷺ على من عرض عليه الملك والسلطة والسيادة .

روى ابن هشام في سيرته (ان أشراف قريش من كل قبيلة اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى

---

(٤١) ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾ **العلق.**

(٤٢) ابن هشام ، سيرةالنبي مجلد واحد ، ص ١٥٣ ، طبعة بيروت دار الريحاني .

تعذروا فيه فبعثوا إليه ان اشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فاتهم فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً. وهو يظن ان قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس اليهم، فقالوا له :

يا محمد، انا قد بعثنا اليك لنكلمك انا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء وتعبت الديم وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة ، فما بقي امر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك ، أو كما قالوا له فإن كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر منا مالا وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وان كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ....

فقال رسول الله ﷺ :

ما بي ما تقولون ... ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني اليكم رسولاً، ,انزل علي كتاباً وأمرني ان أكون بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم .

فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة. وان تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم (٤٣) .

فهؤلاء لم يعرفوا بعد حقيقة هذا الدين، وما عرضوا ما عرضوا جادين... وانما للخصام والتضليل. ثم ان غاية الإسلام ليست في الشرف والملك بل في الخضوع والاستسلام لله... فعندما تتحقق الغاية تظهر الدولة كمنحة من الله... وهذا لن يكون، غلا في تجمع إسلامي كامل... وفي مكة لم يكن الخاضعون المستسلمون لمشيئة الله الا نفرا قليلا معوداً ، تجمعاً بسيطاً لم يتكامل بعد... وايضاً (ان هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح... ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ **الاسراء .** لم يترل هذا القرآن جملة ، انما نزل وفق الحاجات المتجددة ووفق النمو المطرد في

---

(٤٣) ابن هشام ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

الأفكار والنمو المطرد في المجتمع والحياة ... وفق المشكلات العملية التي تواجهها الجماعة المسلمة في حياتها الواقعية ... [٤٤] .

(انه ليس ، نظرية ، تتعامل مع ، الفروض ... انه منهج يتعامل مع الواقع [٤٥] .

(لم يشأ الله ان يترل عليهم النظام والشرائع في مكة ليختزنوها جاهزة حتى تطبق بمجرد قيام الدولة) [٤٦] .

من أجل هذا ... ما ان انقلب التجمع الحركي البسيط إلى تجمع كامل وأعطى هذا التجمع العقد لله في التزام شرعه ونهجه ، حتى انبثقت الدولة من أعماقه بصورة بدل من الله وراحت الأنظمة والشرائع تتالى بنسق بديع فريد ...

ومما تقدم نرى ان للإسلام نهجاً خاصاً وأسلوباً ذاتياً في إقامة دولته ، قد يختلف عن كل أساليب الأرض أو هو مختلف عنها حتماً ...فلا بد ، ونحن في صدد محاولة جديدة لاستئناف الحياة الإسلامية ، من دراسة النهج والأسلوب ، دراسة عميقة عسى ان نصير اليهما في نهاية المطاف بإذن الله ...

* * *

أسلوب التجمع

بدأ الرسول ﷺ دعوته عندما جاءه الأمر من الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾ **المدثر** . ومما يروى انه قال لزوجه خديجة أو كما قال (يا خديجة من ادعو ومن ذا يستجيب ؟) لكن الأمر الجديد قد ملك عليه نفسه دفعه بقوة ومضاء إلى الاتصال والتحرك فآمنت زوجته خديجة ثم مولاه زيد بن حارثة ... ثم ابن عمه علي بن أبي طالب ... ثم صديقه أبو بكر بن أبي قحافة ثم عثمان بن عفان والزبير بن العوام ، وسعد بن ابي وقاص ، وطلحة بن عبد الله . ثم ابو عبيدة بن الجراح وابو مسلمة والأرقم

---

(٤٤) من كتاب معالم في الطريق ، سيد قطب ، الصفحات ١٩ ــ ٤٣ ــ ٤٤ .

(٤٥) المرجع نفسه .

(٤٦) المرجع نفسه .

وعثمان بن مظعون وأخواه ، وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة أخت عمر بن الخطاب وأسماء بنت أبي بكر وأختها عائشة وخباب بن الارت ، وعمار بن ياسر وصهيب الرومي [٤٧] .

وهكذا بدأ التجمع العضوي في الظهور ، عناصر شتى من بطون وأفخاذ وقبائل مختلفة . نساء ورجال وصغار وكبار . فقراء وأغنياء أرقاء وأحرار وهذا أمر يخالف أبسط قواعد التجمع عند العرب . نما هذا التجمع .... وتكاثر العدد حتى أضحى مجتمعا ذاتياً يمكن ان تطلق عليه اسم التجمع الحركي البسيط الذي سرعان ما تحول ــ في الهجرة الكبرى ــ إلى تجمع حركي كامل ، اي مجتمع إسلامي ذي سلطان ودولة .

ان هذا التجمع في اطواره الثلاثة : العضوي ، والحركي ، والكمل ، هو محور العمل الإسلامي الصحيح . وهو المنهج الذي اختطه الله سبحانه لتجسيد شرعته ، ولأول مرة في الوجود فهو ، اذن ، تجمع حركي ، تجمع فاعل ، تجمع هادف .

ومن الناحية التاريخية : بدأ التجمع العضوي بدعوة الرسول ﷺ زوجته خديجة رضي الله عنها ، والتجمع البسيط بدخول أعضاء التجمع الأول دار الأرقم ابن ابي الأرقم وبخروجهم منها في إعلان عام وإنباء عن تجمعهم الجديد .

وأما التجمع الكامل فبهجرة المسلمين إلى المدينة حيث التقوا مع التجمع الحركي البسيط الذي نشأ هناك بعد التجمع العضوي . فتأمل التجمعين في تجمع واحد في مجتمع واحد .

ومن الناحية الموضوعية ... فإن التجمع العضوي هو التجمع الأهم والقاعدة التي يرتفع عليها التجمع البسيط والتجمع الكامل ... فالكامل في القمة يتضمن الحركي والعضوي اي ان العضوي يعد دائما الحركي بعناصر فاعلة (نظمت) نفسها واستسلمت للمشيئة المطلقة فيوصلها هذا اي التجمع الحركي ــ بعد التجربة والاختبار ــ إلى التجمع الكامل حيث تنعم بالطمأنينة والاستقرار .

---

(٤٧) ابن هشام ، ص ١١ ــ ١١٢ .

في التجمع العضوي
وعي الذات وبدء التحول والانقلاب :

إنّ أهم صفة في التجمع العضوي أنه تجمع فردي ، أفراده انخلعوا من ربقة الجاهلية ، من البيئة التي يعيشون فيها ، فالتقوا فيما بينهم سراً ، أي دون ان يعرف بلقائهم أحد فهم أشبه بالتجمع السري ، ينشط في الخفاء ويعمل بعيداً عن مراقبة (الآخرين) .

والحركة بهذا المعنى ، جزء لا يتجزأ من العمل العام ، لذلك فإن التجمع العضوي يبقى مع التجمعين الحركي والكامل ، وان اتخذ شكلاً آخر وأسلوباً آخر . اي ان الإحتكاك الفردي الذي يسعى إلى الاقناع ، بالمناقشة والحجاج ، يهدم (الماضي) الملوث وبناء (الجديد) الطاهر ، هو منهج التجمع ولا يصح تجمع دونه ... ولا بد في هذا التجمع من (وعي الذات) بمعنى ان يعي كل عضو ذاته يعي وجوده ، ويقدر الخطوة التي يخطوها إذ إنه مدعو إلى تغيير حركة التاريخ ولا بد من دفع الثمن .

وعندما يتكامل هذا التجمع العضوي يدرك ضرورة انقلابه إلى تجمع حركي ينبثق في قلب المجتمع الجاهلي ويعمل في حركة علنية ، لاشعار المجتمع الجاهلي بوجوده وعندما يتم هذا الانقلاب فلا بد ، عندئذ ، من دفع الثمن ، ضريبة الاختيار والتجربة ، وهي بذاتها قوة خاصة دافعة لتكامل التجمع البسيط وتحوله إلى تجمع كامل إلى مجتمع إسلامي .

التجمع العضوي في مكة :

وهذا ما كان في مكة ، وينطبق أيضاً إلى حد بعيد على عهد المدينة . ففي مكة بدأ الرسول ﷺ بالاحتكاك الفردي بالحركة العضوية بالعمل السري ، فاستجاب له من استجاب ممن ذكرنا .

وما ان توافرت لرسول الله هذه العناصر الواعية ، حتى قرر (التجمع) في دار الأرقم بن ابي الأرقم ليقوم بأخطر عمل داخلي ، بتربية وتكوين جماعيين . فهؤلاء الذين هداهم الله به مؤمنون جدد ن حديثو العهد بالإسلام وقريبو الصلة بالجاهلية ، هؤلاء وهم يواجهون محنة مشتركة وبلاء واحجا بحاجة ماسة إلى ترابط تحت سقف واحد يجتمعون فيتباحثون ، يلتقون فيرتشفون من نبع النبوة البكر الإيمان العميق والأدب الرصين وأسلوب الدعوة الصحيح .

وعكف رسول الله ﷺ في دار الأرقم على تربية وتكوين الطليعة المؤمنة واستمر عدد هذه الطليعة في ازدياد حتى بلغ تسعاً وثلاثين ... عندها شعر رسول الله ﷺ بدنو نهاية مرحلة التخفي ، وأدرك ضرورة الإعلان ومواجهة الناس ... إلا أنه كان ينتظر رجلاً أنيط بإسلامه توقيت مرحلة العلنية (التجمع البسيط) رجلاً يعز به الإسلام فتنتهي مرحلة الاستخفاء .

من أجل هذا ... دعا رسول الله ﷺ ، وسأل ربه فيما رواه الترمذي ان يعز الإسلام بأحب الرجلين إليه : بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب . وكذلك كان ... فأسلم ابن الخطاب عند اخته وانتقل إلى دار الأرقم فجهر بإسلامه ، أمام من ينتظره ، أمام رسول الله .

اعلان التجمع الحركي :

(وكان اللقاء الأول ...

(وكان ان قال عمر : يا رسول الله ﷺ ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا) . فقال الرسول ﷺ : بلى والذي نفسي بيده انكم على الحق ان متم وان حييتم) قال عمر : ففيم الاختفاء ... والذي بعثك بالحق لتخرجن) (٤٨) .

في هذه اللحظة الحاسمة ، ولد التجمع البسيط ، العلني ، وأخذ الصراع مع المجتمع الجاهلي شكلا جديداً شكل التحدي ، وشكل الثبات .

ومع ان الاحتكاك التجمعي كان قاسياً وشديداً فإن التجمع البسيط حاول ان يوجد تجمعات مماثلة هنا وهناك . فكانت الهجرة إلى الحبشة ، والاتصال بالطائف ، وبالقبائل ، وبالوافدين إلى مكة.

---

(٤٨) من مقال للمؤلف نشر في مجلة المجتمع اللبنانية العدد العاشر السنة الرابعة سنة ١٩٦٥ . ولقد جاء في حاشية السيرة لابن هشام (كان رسول الله ﷺ في دار الأرقم بن ابي الأرقم مستخفيا من قريش بمكة يدعو الناس فيها الى الإسلام في أول الإسلام حتى خرج عنها وكانت دار الأرقم بمكة على الصفا فاسلم فيها جماعة كثيرة وكان رسول الله في الدار حتى تكاملوا اربعين رجلا مسلما وكان آخرهم إسلاما عمر بن الخطاب فلما تكاملوا أربعين رجلا خرجوا وجاء في سير اخرى (ان خروجه كان في صفين عمر في احدهما وحمزة في الآخر) .

وفي المدينة أيضاً تجمع عضوي فحركي فكامل :

وحملت هذه المحاولات عوامل النجاح . فاستجاب نفر من المدينة لا يتجاوز الستة عادوا ليبدأوا التحرك من البدء من التجمع العضوي من السرية ، حتى إذا بلغوا سبعين رجلا أو أكثر انقلبوا إلى تجمع علني . وأتوا رسول الله ﷺ في مكة معاهدين مبايعين .

وكان لا بد ، وقد تكامل التجمع البسيط في كل من مكة والمدينة ، من تلاحمهما واتصالهما . وبدأت الهجرة ، وتحول التجمع المعلن إلى تجمع كامل وأعلن رسول الله ﷺميلاد التجمع المسلم ، فخاطب مسلمي مكة أعضاء التنظيم التجمعي (ان الله عز وجل قد جعل لكم اخواناً وداراً تأمنون بها) [٤٩] .

* * *

شروط ومواصفات التجمع :

ولكل من هذه التجمعات شروط ومواصفات وخصائص تضفي على كل تجمع قيمة حركية فاعلة مختلفة عن الأخرى . ولو ان كلاً منها حلقة في سلسلة البناء .

فشرط الإنتساب للتجمع العضوي الانسلاخ العقيدي عن المجتمع الجاهلي وعن كل أفكاره وتصوراته .

ومواصفات الاندماج في التجمع العلني البسيط التحدي ومواجهة المجتمع الجاهلي بالتصور الإسلامي الجديد.

وخصائص الحياة في المجتمع الكامل ، في المجتمع الإسلامي ، الخضوع المطلق لكافة أحكامه وأنظمته وتشريعه .

* * *

التحول الخطر :

ولا ريب أن أصعب مرحلة هي مرحلة التجمع العضوي ، فهو التحول الخطر في حياة الإنسان ، وليس يسيراً ــ على الإنسان ــ من حيث المبدأ ــ أن يتحول عن عادات

---

(٤٩) ابن هشام مجلد واحد ــ دار الريحاني ، ص ٢٣٦ .

وتقاليد وأفكار وتصورات إلى عقيدة جديدة ومنهج جديد. دون أن يعمق النظر ويدرك الأبعاد ويراجع رصيده مراراً ويدقق في حساباته تكراراً.

وفي ذلك يقول ﷺ : (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن ابي قحافة ما عكم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه)[٥٠].

حتى علي بن ابي طالب ؓ وهو الصبي الصغير والمكفول من قبل النبي ﷺ استمهل في قبول الدعوة الجديدة . فقد دخل علي فجأة على النبي وخديجة ــ وكانا يصليات ت فوقف ... دهشاً حتى اتما صلاتهما ثم سال : لمن تسجدان ؟ فأجابه محمد ، أو كما قال : إنما نسجد لله الذي بعثني نبياً وأمرني ان أدعو الناس إليه . ودعا محمد ابن عمه إلى عبادة الله وحده ، لا شريك له ، وإلى دينه الذي بعثه به نبياً وإلى انكار الأصنام من أمثال اللات والعزى .

(وتلا محمد ﷺ ما تيسر من القرآن ، فأخذ علي عن نفسه ، وسحره جمال الآيات واعجازها ، واستمهل ابن عمه حتى يشاور أباه .

(ثم قضى ليلته ﷺ مضطرباً حتى إذا أصبح أعلن اليهما انه اتبعهما من غير حاجة لرأي أبي طالب .

(وقال ﷺ : لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب ، فما حاجتي انا إلى مشاورته لأعبد الله[٥١] .

ظلال لا اله الا الله عند انسان الجاهلية :

وقد كان الرسول ﷺ يقدر صعوبة هذه المرحلة من أول يوم جاءه الأمر ببدء الدعوة فقد قال أو كما قال : (انقضي يا خديجة عهد النوم والراحة فقد أمرني جبريل ان

---

(٥٠) سيرة ابن هشام مجلد واحد ص ١١١ والكبوة هنا تخلف وتردد .

(٥١) حياة محمد ، محمد حسنين هيكل ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

أنذر الناس وأن أدعوهم إلى الله وان أدعوهم إلى عبادته فمن ذا أدعو ؟ ومن ذا يستجيب لي ؟) (٥٢) .

وهذا الأمر جد طبيعي ... فلفظة (لا اله الا الله) التي يطلبها النبي ﷺ من انسان الجاهلية ... تعني قبل كل شيء انقلاباً جذرياً في أعماقه ، فهي ثورة في مفهوم العبودية والخضوع .. وهي انسلاخ كامل عن قيم المجتمع الذي عاش فيه ، وهي عزلة عقيدية شاملة عن التصورات القديمة مع ما تخلفه من عادات واساليب وهي ــ بعد ذلك كله ــ نقلة حاسمة إلى آفاق جديدة وإلى تطورات جديدة.

وقد أدرك (انسان الجاهلية) هذه الظلال جميعاً عندما كان يطالب بالتلفظ بلا اله الا الله ... كشرط للانتساب إلى التجمع العضوي الجديد ، لذلك فقد تردد لكن تردد تفكير وتفاعل ... حتى إذا ما أعلنها ، التزم بها التزاماً كلياً حسب منطوقها ومدلولها ووفق ظلالها وايحاءاتها .

فها هو يرفض بقوة وإصرار المجتمع الجاهلي كله بكل ما فيه من قيم وتصورات ، وها هو يخضع بكل أعماقه وقواه إلى التجمع العضوي الجديد ينهل منه منهجاً جديداً يحكمه في كل شؤونه ويلتزمه في كل أموره .

العزلة الشعورية عند المسلم الجديد:

(لقد كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية . كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام انه يبدأ عهداً جديداً منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية . وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف الذي يحس ان كل هذا رجس لا يصلح للإسلام وبهذا الاحساس كان يتلقى هدى الإسلام الجديد.

(وكانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه نشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الإجتماعية فهو قد انفصل نهائياً عن بيئة الجاهلية واتصل نهائياً ببيئته الإسلامية .

(٥٢) حياة محمد ، ص ١٣٦ .

وحتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء آخر .

(وكان هناك انخلاع من البيئة الجاهلية وعرفها وتصورها وعاداتها وروابطها ينشأ عن الانخلاع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود . وينشأ من الانضمام إلى التجمع الإسلامي الجديد بقيامته الجديدة ومنح هذا التجمع وهذه القيادة كل ولائه وكل طاعته وكل تبعيته) (٥٣) .

ويأتي بعد التجمع العضوي السري الأولي ، التجمع العلني الحركي البسيط ، الذي لم يستكمل بعد أركان التجمع الكامل ، المجتمع الإسلامي .

وقلنا هذا التجمع الناشئ عن التجمع العضوي والمنبثق في قلب المجتمع الجاهلي لا بد له من التحرك في محاولة مزدوجة : إزالة المجتمع الجاهلي ، وتكامله هو لينقلب إلى مجتمع إسلامي كامل .

التجمع الحركي يكشف الهوية في مجابهة مكشوفة مع المجتمع الجاهلي :

والحقية ان لهذا التحرك العلني ـــ بمعنى الاحتكاك الفعلي مع المجتمع الجاهلي ـــ غاية أخرى ضمنية اي داخلية ، وهي تعميق تربية وتكوين اعضاء التجمع ، فالعضو الذي استوفى شرطه وأعلن لا اله الا الله من أعماقه وانسلخ عن المجتمع الجاهلي واعتزل شعورياً ووجدانياً ... لا بد له من تجربة عملية بعد اعلان هذه العزلة . وهذه التجربة للكون والإنسان والحياة وللحوادث والأفعال ولكل شيء في الوجود ، وبمعنى شامل ، كشف هويته الإسلامية الجديدة .

هاتان الغايتان : اعلان التجمع في محاولة الهدم والبناء ، وتعميق التكوين لعضو التجمع ، يمكن جمعها في لفظة المجابهة ، مجابهة المجتمع الجاهلي بحركة جماعية تعتمد المجابهة الفردية أساساً .

---

(٥٣) معالم في الطريق ، سيد قطب ، ص ٢٠ ـــ ٣١ .

المجابهة بين التجمع الحركي والمجتمع الجاهلي :

وحركة المجابهة هذه مرحلة خطيرة في حياة التجمع والأفراد ... فالمجتمع الجاهلي ، بعملية الدفاع عن وجوده ، سيقوم بحركة مجابهة عكسية معتمداً على سلطانه ومستخدما كافة الأساليب : القتل والتشريد ... التعذيب والتضييق ... الاستهزاء والتنديد ... وأيضا الاغراء والترغيب . من أجل هذا كانت المجابهة عملية خطيرة تستدعي كثيرا من الدقة والحذر ومزيداً من الوعي والملاحظة بيد ان الذي يضمن نجاحها ، خاصة بالنسبة لثبات الأفراد ، توافر شرط الانتساب للتجمع بكل مدلوله وعمقه .

ولقد ملئ العهد المكي ـــ بعد المرحلة الأولى ـــ بصور جلية واضحة لحركة المجابهة هذه ... فهؤلاء اعضاء التجمع العضوي يخرجون من دار الأرقم ابن ابي الأرقم صفين اثنين على رأس احدهما عمر بن الخطاب وعلى الثاني حمزة بن عبد المطلب ويقصدون الكعبة لتأدية الصلاة .

وكان هذا الخروج أول مظهر عملي اعلاني لقيام تجمع حركي في قلب المجتمع الجاهلي . وأراد ابن الخطاب ـــ وهو صاحب فكرة انهاء التخفي واعلان التجمع العضوي ومصداقاً لقوله تعالى ﴿ فَٱصۡدَعۡ [٥٤] بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ الحجر . ان يقوم فور إسلامه بعملية تحدٍ فردية .

فقال (لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أيّ أهل مكة أشد لرسول الله عداوة حتى أتيه فأخبره اني قد أسلمت . قلت : ابو جهل ... قال : فأقبلت حين اصبحت حتى ضربت عليه بابه قال : فخرج أي ابو جهل .

فقال : مرحبا وأهلا بابن اختي ما جاء بك ؟

قلت : جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به ، قال فضرب الباب في وجهي وقال (قبحك الله وقبح ما جئت به) [٥٥] .

(٥٤) في تفسير القرطبي : اصدع بمعنى أظهر دينك .

(٥٥) ابن هشام ، ص ١٦٢ .

(فت إسلام عمر في عضد قريش ان دخل في دين الله بالحمية التي كان يحاربه من قبل بها و لم يُخْفِ إسلامه و لم يستتر بل ذهب يعلنه على رؤوس الملأ ويقاتلهم في سبيله ... وأيقنت قريش ان ما تنال به محمدا واصحابه من الأذى لن يحول دون اقبال الناس على دين الله ليحتموا من بعد ذلك بعمر وحمزة أو بالحبشة أو بمن يقدر على حمايتهم فائتمرت من جديد ماذا تصنع واتفقوا فيما بينهم وكتبوا كتابا تعاقدوا فيه على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب مقاطعة تامة فلا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ، وعلقوا صحيفة هذا العقد في جوف الكعبة توكيداً أو تسجيلا .

(وكان أكبر ظنهم ان هذه السياسة السلبية سياسة التجويع والمقاطعة ستكون أفعل الأثر من سياسة الأذى والاعنات وان لم ينقطعوا عن الاعنات ولا عن الأذى واقامت قريش على حصار المسلمين وحصار بني هاشم وبين عبد المطلب سنتين أو ثلاثا ترجو خلالها ان تصل من محمد إلى اعتزال قومه اياه فيعود وحيداً ولا يبقى له ولا لدعوته من خطر . فأما محمد فلم يزده ذلك إلا اعتصاماً بحبل الله و لم يزد أهله والذين آمنوا به إلا ذوداً عنه وعن دين الله) (٥٦) .

وكان رسول الله ﷺ يعطي أصحابه ــ أعضاء التنظيم ــ القدرة الصالحة في مجابهة المجتمع الجاهلي لكل قيمة وأفكاره وتصوراته في تحمل النتائج التي تترتب على هذه المجابهة الصريحة ... (حدثني يحيى بن عروة بن الزبير قال : حضرتهم ــ أي قريش ــ وقد اجتمعت أشرافهم يوماً في الحجر فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط : سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا ... فبينا هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم .

فيقول رسول الله ﷺ : (نعم أنا الذي اقول ذلك) .

---

(٥٦) حياة محمد ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

قال فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه ، قال فقام أبو بكر عنه دونه وهو يبكي ويقول : (أتقتلون رجلا ان يقول ربي الله (٥٧) .

وانطلق أعضاء التجمع يجابهون مجتمع الجاهلية ويتحدونه في كثير من الأمور حتى وقعت أحداث كبار أضفت على تاريخ الحركة مهابة وجلالا (٥٨) .

* * *

القرآن يجابه الجاهلية فيقضي على تصورها ويقرر قواعد التصور الجديد :

ولقد واكب القرآن حركة المجابهة ـــ طيلة فترتها ـــ وجابه هو بدوره الجاهلية فهدم وبنى وأجتث جذور الجاهلية من نفوس أعضاء التجمع وأصَّل فيها العقيدة صافية شامخة.

لقد كان القرآن في مجابهته للجاهلية يسعى لإظهار زيفها وباطلها وسخفها ودجلها ... يدحض ادعاءاتها ويهدم تصوراتها ثم يقرر النظرة الجديدة ، العقيدة الجديدة ، الموقف الجديد ... والقرآن ـــ بهذا المعنى ـــ كان ينشئ عند أعضاء التجمع وعياً خاصا للحياة ومنهجاً خاصاً للوجود وتصوراً خاصاً للقيم والإنسان . ولا يقبل القرآن ان ينازعه أحد في هذا الإنشاء ، أو أن يحاكمه إلى مقررات سابقة ، فهذه المقررات جميعها مقررات جاهلية يجب ان تقتلع من النفوس والعقول ولا يجوز بالتالي أن يحاكم اليها تنزيل رب العالمين ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾ لقمان.

وهكذا كان القرآن يفيد من العزلة الشعورية للمسلم الجديد فيثبت عنده ما يريد من منهج الحياة ... من أجل هذا كان للقواعد العقيدية والمسلكية ومواقف القرآن المختلفة شأن كبير ودور خطير في انتصار التجمع العلني على المجتمع الجاهلي وفي ايجاد المجتمع المسلم ذي السلطان والدولة . إذن كل هذه (الوقاعد) كانت تشير دوماً إلى

(٥٧) سيرة ابن هشام ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٥٨) لولا مخافة الخروج عن موضوعية البحث والتطويل لأثبتنا كثيرا من هذه الأحداث ويمكن مراجعة السير للوقوف على المزيد .

ضرورة الانتقال للتجمع الكامل حيث الحاكمية المطلقة لله . فهي اذن قواعد مقررة مدربة مهيئة منبئة ئ... وهي ، في الوقت نفسه ، قواعد ذات شأن كبير في الحياة على امتدادها .

ففي ميداني العقيدة والحركة انشأ القرآن تصوراً إيمانياً رفيعاً بعد أن دحض مزاعم المشركين خلال مناقشته لتصوراتهم الفاسدة .

١ ـ في العقيدة :

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ النمل .

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ القصص .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ القصص.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ القصص .

٢ ــ الرسول ﷺ بشر :

وحرص القرآن ان ينبه الناس كل الناس ، إلى أبعاد شخصية الرسول وان يؤكد على بشريته وإلى انه رسول وكفى !!

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ الكهف .

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ الحج .

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ الفرقان .

٣ ـ الجاهليون حمرٌ مستنفرة :

ويصف القرآن الجاهلي الذين رفضوا الإيمان والإسلام ويشبههم ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ المدثر . ويقول :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴿١٦﴾ ﴾ النور .

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ الرعد.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ فصلت .

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ الجاثية .

٤ ـ المؤمنون مفلحون :

ويصف المؤمنين ، الذين استجابوا لله وللرسول ، أعضاء التجمع بقوله :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ المؤمنون.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ الزمر . يقابل القرآن بين أعضاء التجمع وبين أصحاب مجتمع الجاهلية فيقول :

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ الملك .

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الجاثية.

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ غافر .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ الزمر.

٦ـ الصراع بين التجمعين :

ويثبت القرآن مشهداً للصراع بين التجمعين... فيظهر من خلال هذا المشهد استبداد الجاهلين وقوتهم وعنفوانهم وصبر المؤمنين وعنادهم وثباتهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ المطففين.

٧ـ قواعد للسلوك تمهد لمجتمع مسلم :

وعني القرآن بتربية اعضاء التجمع ، وهم في قلب الصراع ، على مجموعة من القواد الخلقية والإجتماعية والمسلكية والتنظيمية وكأن هذه القواعد ـــ كما ذكرنا ـــ منبئة بمجتمع مسلم كامل تمارس فيه هذه الوقاعد وسواها حيث لا تكون الحاكمية فيه الا لله سبحانه ... فهذه الوقاعد التي احتفل بها القرآن المكي لم تأت عبثاً إنما جاءت ـــ كما سنرى ـــ لتثبت هذا المعنى أي لتهيء النفوس للإنتقال إلى المجتمع المسلم ... مجتمع الله .

❖ ففي العائلة :

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ لقمان.

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ الاسراء .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ الاسراء .

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ ﴾ المؤمنون.

وفي القواعد المسلكية والإجتماعية :

﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ۝٣٢ ﴾ الإسراء .

﴿ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ۝٣٣ ﴾ الإسراء .

﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ۝٣٤ ﴾ الإسراء .

﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ۝٣٥ ﴾ الإسراء

﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ۝٣٦ ﴾ الإسراء .

﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ۝٣٧ ﴾ الإسراء.

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ۝٣٨ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ ۝٣٩ ﴾ الإسراء .

وفي النظرة إلى الدنيا والانفاق :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ۝١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ۝١٩ ﴾ الاسراء

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ۝٢٦ ﴾ الاسراء

﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝١٩ ﴾ الذاريات .

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ الروم .

وفي قواعد التنظيم العامة :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَـٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ الشورى .

﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾ الشورى .

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ النحل .

﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ النحل .

وكلمة أخيرة في هذا الصدد نأخذها من التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة اثبتها تعليقاً على وصايا سورة الإسراء المشار اليها أعلاه فقال :

(من الجدير بالذكر ان الأوامر والوصايا جاءت بأسلوب الترغيب والتحذير والترهيب دون التشريع لأن هذا إنما كان في العهد المدني الذي صار للمسلمين فيه دولة برئاسة النبي ﷺ وعلى ذلك فمعظم ما نزل فيه تشريع مدني من المحذورات والمحظورات والواجبات والتكاليف قد ذكر باسلوب الترغيب والتحذير في القرآن المكي حيث نيطوي في هذا أن أسس الرسالة الإسلامية ومحكماها أصلية وطيدة منذ البدء) (٥٩) .

٨ ـ الوعي السياسي :

وأفاد القرآن من الظروف الدولية لتعميق الوعي السياسي في أعضاء التجمع ولزجهم في تحديات سياسية مع المجتمع الجاهلي رغبة في تصور سليم للأحداث والوقائع وتهيئة لهم في دخول معترك السياسة على صعيد دولة .

(٥٩) التفسير الحديث الجزء الثالث ، ص ٣٣٢ .

لما نزلت ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾ الروم . كانت فارس ــ فيما رواه الامام الترمذي قاهرين الروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب وفي ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾ الروم . وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث فلما أنزل الله هذه الآيات خرج ابو بكر يصيح في نواحي مكة : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ ﴾ فقال ناس من قريش لأبي بكر فذاك بيننا وبينكم . زعم صاحبكم ان الروم ستغلب فارس في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى ــ وذلك قبل تحريم الرهان ــ فارتهن أبو بكر والمشركون وتواصفوا الرهان وقالوا لأبي بكر نجعل البضع سنين ثلاث سنين إلى تسع سنين فسمِّ بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه قالوا فسموا بينهم ست سنين .

قال فمضت ست سنين قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبي بكر فلما وصلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس .

قال فعاب المسلمون على ابي بكر تسميته ست سنين قال لأن الله يقول بضع سنين قال فأسلم عند ذلك ناس كثير(٦٠) .

٩ ـ التجمع على العقيدة لا على العصبية :

وكلمة أخيرة في التجمع الحركي .

ان أسلوب التجمع الذي اتبعه الرسول ﷺ كان اسلوباً جديداً مرفوضاً بحد ذاته من العرب فهؤلاء قد اعتادوا على أسلوب التجمع العصبي في تجمع عصبي في قبيلة أو فخذ أو بطن ... فللنسب شرف ، وللثراء قدر ، وللجاه نفوذ ولا يجوز على أي حال أن يلتقي ،

---

(٦٠) من حديث للترمذي ذكره ابن كثير في تفسيره الجزء الثالث ، ص ٤٢٣ .

في مساواة ، عبد وسيد ، فقير وغني . فعندما دعا النبي ﷺ بدعوته جاعلاً التفاضل بالإيمان لا بالعصبية وبالتقوى لا بالمال كان بذلك يرسي قواعد للتجمع جديدة أساس المجتمع الإسلامي المنشود.

ولقد واجه التجمع الجديد انتقادات لاذعة من أشراف قريش والقبائل إلا انه تخطاها بثبات وعناد ... فكان هذا التجاوز تجربة حية ناجحة في تجمع كامل يقوم على صعيد العقيدة ، فأعضاء التجمع في مكة شعروا فيما بينهم على اختلاف ما هم فيه من نسب وثراء وشرف ، بوحدة عقيدية قوية اضفت على ترابطهم قوة هي أقوى من أي رباط قديم .

وكان هذا الشعور منبت لكثير من التعاطف والمودة والتضحية فيما بينهم حتى غدوا جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

هذه التجربة أخصبت نفوس العرب وأكدت لهم أن التجمع الحق لن يقوم الا على العقيدة . فغدا هذا التجمع ، بهذا المعنى أيضاً ، ضرورة تمهيدية كبرى لا بد منها قبل اقامة التجمع الكبير .

على التجمع درس ظروف المكان والزمان والافادة منها :

أشرنا سابقاً إلى أن التجمع الحركي يحاول ، وهو في قلب الصراع مع المجتمع الجاهلي ايجاد تجمعات مماثلة في أماكن متعددة . من أجل هذا كانت الهجرة إلى الحبشة ، والاتصال بالقبائل والانتقال إلى الطائف وملاقاة الوافدين إلى مكة ...

والتحرك ـــ على هذا المستوى ـــ ضرورة لا مفر منها . بيد أن ظروف المنطقة في ذلك الحين ـــ ساعدت عليه . فمن حيث المبدأ لا تأثير لقبيلة على أخرى ولا لمدينة على أخرى ، فكل مستقل بذاته ، يقرر ما يراه مناسباً . هذا الظرف فاد منه التجمع الحركي للمدى البعدي . ولا بد لكل تجمع ان يفيد من ظروف زمانه ومكانه في تخطيط حركته ضمن الدوائر التي يرسمها ويهدف لتحقيقها .

وكان ان التقى الرسول ﷺ بنفر من يثرب جاؤوا في موسم الحج إلى مكة فقال لهم (من أنتم٩ ؟ قالوا : نفر من الخزرج ؟ قال امن موالي يهود قالوا نعم قال : (أفلا تجلسون

أكلمكم قالوا : بلى فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن ... فأسلموا ... وقالوا له (انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى ان يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي اجبناك إليه من هذا الدين فان يجمعهم الله عليه فلا رجل اعز منك) ثم انصروفا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا [٦١] .

وانتظر الرسول ﷺ رد فعل الستة في يثرب ، كاختبار حقيقي لها ... فإذا العام القابل يحمل معه اثني عشر رجلا ، من اوس وخزرج ، يبايعونه على الإسلام ، عند ذلك أدرك الرسول ﷺ قابلية البيئة لترعرع العقيدة ... فكان لا بد من تركيز و (تنظيم) التجمع الجديد فأرسل موفدا من اعضاء تجمعه في مكة ، مصعب بن عمير (يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين) [٦٢] ثم كان لقاء العقبة الكبرى ... مع اثنين وسبعين رجلا وامرأتين من أهل يثرب من الأوس والخزرج فتأكد عند الرسول ﷺ ، أمر لا يقبل الشك : ان التجمع في المدينة قد قام ، فها هي العقيدة قد الفت بين الأعداء وصهرتهم في بوتقة تجمعية واحدة تسوسهم فكرة واحدة وترعاهم قيادة واحدة...

في هذه اللحظة اختمر مبدأ التلاحم بين التجمعين تجمع مكة وتجمع يثرب في قلب يثرب . وعبر عن هذه الفكرة العباس عم الرسول ، فقال مخاطباً تجمع يثرب : (ان محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، وانه قد ابى إلا الانحياز اليكم واللحوق بكم فإن ترون انكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وان كنتم ترون انكم مسلمون وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه فانه في عز ومنعة من قومه وبلده) .

وأكد الرسول ﷺ حديث العباس وأشار إلى انتقاله إلى يثرب وطلب الالتزام بالعهد والموثق (أبايعكم على ان تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم) [٦٣] .

---

(٦١) ابن هشام ٢١٨ مجلد واحد دار الريحاني .

(٦٢) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٦٣) ابن هشام ص ٢٢١ ــ ٢٢٨ .

(قال ابن اسحاق : فلما أذن الله تعالى له في الحرب وتابعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصر له ولمن تبعه ، أمر الرسول ﷺ أتباعه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة اليها واللحوق باخوانهم من الأنصار وقال : (ان الله عز وجل قد جعل لكم اخواناً وداراً تأمنون بها ، فخرجوا رسالاً وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذنَ له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة [٦٤] .

والتقى التجمعان في يثرب ، لكنهما بقيا تجمعين و لم يتحولا إلى مجتمع مسلم لأن القيادة لا تزال غائبة ، وبوجودها يتم التكامل في التجمعين ويعلن ميلاد المجتمع المسلم ، اذ ان التكامل يعني سلطة وقيادة دولة وسيادة ..

وانتقل الرسول ﷺ فولد المجتمع المسلم بكل خصائصه ومميزاته ، بكل مواصفاته ومقوماته . وبادر القائد لإتخاذ التدابير الكفيلة برعرعة هذا المجتمع الوليد وتطويره وتنسيقه وفق الأهداف الكبرى التي ارتسمت بالعقيدة من أول يوم .

فأول ما قام به حل التجمعين ، وهذه هي أبعاد الاخاء الذي حققه بين أعضاء التجمعين المهاجرين والأنصار ...

ثم أسس دار السيادة فابتنى المسجد للصلاة والحكم معاً ، وبعد ان أخذ العهد والموثق لله من الجميع مسلمين ويهود [٦٥] ، أعلن ميلاد الدولة التي تسوس الجميع باسم الله ، كبدل من الله للناس .

هذا هو المجتمع المسلم ، المجتمع الذي تتمثل فيه العبودية لله وحده في معتقدات أفراده وتصوراتهم كما تتمثل في شعائرهم وعباداتهم كما تتمثل في نظامهم الجماعي وتشريعاتهم [٦٦] ....

(ان هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر ان عبوديتها الكاملة لله وحده ، وانها لا تدين بالعبودية لغير الله . لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور

---

(٦٤)ابن هشام ، ص ٢٣٦ .

(٦٥) سنتكلم عن هذا العهد بعد قليل .

(٦٦) معالم الطريق ، ص ١١٦ .

ولا تدين بالعبودة لغير الله في العبادات والشعائر ... ولا تدين بالعبودية لغير الله في النظام والشرائع ... ثم تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلها على اساس هذه العبودية الخالصة ... تنقي ضمائرها من الاعتقاد في ألوهية احد غير الله ـــ معه أو من دونه ـــ وتنقي شعائرها من التوجه بها لأحد غير الله ـــ معه أو دونه ـــ وتنقي شرائعها من التلقي عن أحد غير الله ـــ معه أو من دونه)[٦٧] وقد وجدت هذه الجماعة من الناس ... فقام المجتمع المسلم.

التشريع : ضبط الارتباط بالله :

ان المجتمع ـــ ذات السيادة والسلطان ـــ وهو يواجه (حاجات) مستجدة لا بد له من تشريع وأحكام وتنسيق وتنظيم ... أو بمعنى آخر ... لا بد من (ضبط) الارتباط بالله ذلك الضبط الذي نشأ في اعماق هذا التجمع الكامل وعمل على تنميته وتطويره والمحافظة عليه ... فلا بد اذن من تبيان الحقوق والواجبات والأهداف والغايات ولا بد من أوامر ونواه وحدود وقصاص وأنظمة وقوانين في مختلف المرافق والميادين .

وهكذا جاء دور التشريع القرآني أي تقرير قواعد الزامية ، بعد ان جاءت بصيغة خلقية ايمانية . وهذا الدور ـــ بحد ذاته ـــ من أهم الأدوار في تأصيل مفهوم الدولة في وعي المجتمع والناس ... فالله سبحانه الذي يتوجه إليه المجتمع بالعبادة والشعائر توجه هو إلى هذا المجتمع بنظام ومنهج حياة .

وبدأ المجتمع المسلم يتلقى عن الله سبحانه أصول التنظيم والحكم فيحيلها مباشرة إلى واقع تنفيذي ، دون تردد أو نظر ... وهكذا ... وما ان مرت سنوات عشر حتى اتم الله دينه وشرعه وارتضى الإسلام للناس منهج حياة وتمت كلمة ربك حقا وعدلا .

* * *

وجدت دولة (الإسلام) بوجدود المجتمع المسلم ... وهذه حقيقة لا يمارى فيها ... بيد ان الاعلان عنها كدولة تمارس وجودها الفعلي في السيادة ، لم يكن دفعة واحدة بل مر في أطوار ثلاثة :

الطور الأول : وهو طور الاعلان الداخلي .

(٦٧) المرجع نفسه ، ص ١١٧ .

الطور الثاني : طور الاعلان الاقليمي .

والطور الثالث : طور الاعلان العام أو الدولي .

١ ـ الاعلان الداخلي موثق المدينة :

ان الاعلان الداخلي لوجود الدولة كان بتقرير الارتباط بقيادة تتبع منهج الله . وهذا التقرير صدر عن جميع ابناء المجتمع بشكل موثق وعهد ...

ولقد كان هذا الإعلان ، من أهم ما سعى إليه الرسول ﷺ فور دخوله المدينة ، فكتب بين المهاجرين والأنصار من جهة ، واليهود الآخرين من جهة أخرى كتاباً يعد أخطر وثيقة في اعلان الدولة بين أبناء مجتمع واحد [٦٨] .

---

(٦٨) لأهمية هذه الوثيقة اردنا اثباتها هنا بعد ان وزعناها على أبواب تبعا لموضوعاتها وقد جاءت في كتب السير (سيرة ابن هشام) على غير هذا الترتيب :

الباب الأول : في المبادئ العامة

١ ــ وحدة الأمة :

ــ هذا كتاب من محمد النبي ــ بين المؤمنين والمسلمين ، من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس .

وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

وان يهود بني عوف ... (أيضاً بقية اليهود كما سنرى) امة مع المؤمنين .

٢ ــ السيادة والحاكمية :

وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد وان ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله .

٣ ــ الانتظام التام :

وان ذمة الله واحدة.

وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه

وان البر دون الاثم

وان النصر للمظلوم

وان الله اصدق ما في هذه الصحيفة وابره.

وان الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله

وان الله على أبر هذا .

الباب الثاني : مبادئ في النظام الداخلي العام

١ ــ الحريات :

- **حرية الاعتقاد**

لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وانفسهم الا من ظلم أو اثم فإنه لا يوقع (يهلك) الا نفسه وأهل بيته .

حرية الاقامة والتنقل

* * *

وانه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم أو اثم .

٢ ـــ حفظ الأمن :

وان لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه

وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى (العظيمة)ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وان ايديهم عليه جميعاً ولو كان ولد احدهم .

وانه لا يحل لمؤمن اقر بما في الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدثا ولا يؤذيه وان بينهم المؤمنين واليهود) النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة

وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

وان بينهم النصر على من دهم يثرب .

وانه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد رسول الله ﷺ .

الباب الثالث : في بعض الأنظمة والتشاريع

١ ـــ في الجريمة والعقاب وحرمة النفس :

ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر .

وانه من اعتبط (قتله بلا جناية منه توجب قتله) مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود (أي فدية) به الا ان يرضى ولي المقتول ، وان المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الا قيام عليه .

المهاجرون من قريش على ربعتهم (الحال التي جاء الإسلام وهم عليها) يتعاقلون ...

٢ ـــ في العدل والمساواة والشورى :

وان المؤمنين بعضهم مولى بعض دون الناس .

وانه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم .

وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم .

٣ ـــ في الإقتصاد والتكافل :

المهاجرون من قريش ... يفجرون عانيهم (الأسير) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وان المؤمنين لا يتركون مغرما (معسراً) بينهم ان يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .

٤ ـــ في العلاقات الخارجية : السلم والحرب

وان سلم المؤمنين واحدة لا يسالم دون مؤمن في قتال في سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم .

وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه

وانه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن .

وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين

وانه لا يجاز قريش ولا من نصرها

وان بينهم النصر على من دهم يثرب .

اسماء من اشترك في توقيع الصحيفة

أ ـــ المسلمون : قريش ـــ بنو عوف ـــ بنو ساعدة ـــ بنو الحارث ـــ بنو جشم ـــ بنو النجار ـــ بنو عمر بن عوف ـــ بنو النبيت ـــ بنو الأوس .

ب ـــ اليهود : بنو عوف ـــ بنو النجار ، بنو ساعدة ـــ بنو جشم ـــ بنو الأوس ـــ بنو ثعلبة ـــ بنو المشيطبة .

٣ ـ الاعلان الاقليمي : غزوة بدر

أما الطور الثاني في إعلان دولة الإسلام ـــ وهو الاعلان الاقليمي اي الاعلان الذي يشعر أهل المنطقة بوجود قوة متماسكة ذات سيادة تمارس وجودها الفعلي وتقيم العلاقات والارتباطات ـــ فقد أتى سريعاً بعد الهجرة بأشهر أي في رمضان من العام الثاني للهجرة . فقد دخل التجمع الإسلام معركة مصير مع قريش خرج منها منتصراً مظفراً أشعر العرب قاطبة بوجوده وبتحركه وبقوته وسيادته وانه لن يسكت على من يظلم حتى يأخذ منه حقوقه كاملة غير منقوصة ...

لقد كانت غزوة بدر ـــ في حقيقتها ـــ اعلاناً هاماً لوجود دولة الإسلام ... فهذه قريش خرجت بخيلائها وجندها ورجالها ورفضت ان تعود ـــ مع علمها بنجاة القافلة ـــ قبل ان ترد بدراً فتقيم فيه ثلاثة أيام تنحر الابل وتعزف القيان وتشرب الخمر فتسمع بها العرب فلا يزالون يهابوها [٦٩].وهذا التجمع المسلم بجياعه وعراته وحفاته يدعو ربه (اللهم ان تملك هذه العصابة اليوم لا تعبد...) [٧٠] . وتدور المعركة وينتصر التجمع ... ويحدث هذا الإنتصار الضخم دويا هائلا تسمع به العرب فتتعرف من خلاله إلى ميلاد هذا التجمع الجديد ... ميلاد الدولة التي تعرف كيف تتحرك...

* * *

٣ ـ الاعداد لعام مراسلة وجهاد :

ويأتي الطور الثالث ، وهو تعريف العالم بوجود الدولة ، قويا نابعا من اعماق العقيدة والمبدأ . فدولة الإسلام قد انبثقت من لدن الله ـــ في قلب جزيرة العرب ـــ لتفيض على الإنسان في كل مكان تصورا وضبطا وارتباطاً ... ولتخرد الناس (من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الأرض إلى سعتها ... ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام..[٧١] .

---

(٦٩) من كلام لأبي جهل في غزوة بدر . يراجع ابن هشام مجلد واحد ص ٣٤٧ طباعة الريحاني .

(٧٠) من دعاء الرسول يوم بدر . المرجع السابق ، ص ٣٥٤ .

(٧١) من كلمات ربعي بن عامر الى رستم ملك الفرس .

بدأ هذا الإعلان ـــ في السنة السابعة للهجرة ـــ عندما أرسل عليه الصلاة والسلام كتباً إلى أمراء وملوك وأباطرة ذلك الزمان يدعوهم فيها إلى الإسلام ... ولعمري انه لإعلان دولي عن وجود دولة الإسلام الفتية ، ما بعده اعلان ولا اعلام ...

قال ﷺ في كتابه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد : فاني أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلمْ يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الاريسيين [٧٢] .

(يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون).

ولقد علق الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه حياة محمد على ذلك بقوله [٧٣] :

(كان هرقل وكسرى يومئذ على رأس دولتي الرومان والفرس أقوى دول العصر وصاحبتي الاملاء في سياسة العالم وفي مصاير امه جميعا ... ومن اليسير عليك اذ تذكر مكانة الدولتين ان تقدر ما يبعثه اسماهما من الرهبة إلى النفوس ومن الهيبة إلى القلوب حتى لا تفكر دولة في التعرض لهما ولا يدور بخلد احد ان يفطر في غير خطبة ودهما ... اما وذلك شأن دول العالم المعروفة يومئذ جميعا فقد ... كان عجيبا ان يفكر محمد عليه الصلاة والسلام يومئذ في ان يرسل رسله إلى الملكين العظيمين وإلى غسان واليمن ومصر والحبشة (وعمان واليمامة) يدعوهم إلى دينه دون خشية ـــ لما قد يترتب على عمله هذا من نتائج ربما تجر على بلاد العرب كلها الخضوع لنير فارس أو بيزنطية ...

لكن محمدا لم يتردد في دعوة هؤلاء الملوك جميعا إلى دين الحق بل خرج يوما على أصحابه فقال (ايها الناس ان الله بعثني رحمة للناس كافة ... ثم ذكر لهم انه مرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والحارث الغساني ملك الحيرة والحارث الحميري ملك اليمن وإلى نجاشي الحبشة يدعوهم إلى الإسلام .

---

(٧٢) يريد انه مسؤول عن اثم رعيته ؟ لمنعه اياها عن الدين الجديد ؟

(٧٣) حياة محمد ، ص ٣٨٢ ، ٣٨٣ .

وأجابه اصحابه إلى ما اراد فصنعوا له خاتماً من فضة نقش عليه (محمد رسول الله)...

ويترتب على هذا الاعلان أثره ... وتتحرك الدول للقضاء على دولة الإسلام فيهب التجمع الإسلامي معلنا بدء مرحلة جديدة في حياته : تحرير الناس ، كل الناس ، من عبودية غير الله وتخليص الأرض كل الأرض من كل طاغوت واخلاصها لله وحده ...

ومن ثم لم يكن بداً للإسلام ان ينطلق في الأرض لازالة الواقع المخالف لذلك الاعلان العام ... بالبيان والرحكة مجتمعين . وان يوجه الضربات للقوى السياسية التي تعبد الناس لغير الله . اي تحكمهم بغير شريعة الله وسلطانه ـــ والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى (البيان) واعتناق (العقيدة) بحرية لا يتعرض لها السلطان ، ثم لكي يقيم نظاما اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي ـــ بعد ازالة القوة المسيطرة) (٧٤) .

ان دولة الإسلام قد انبثقت في قلوب المسلمين من أول يوم خلعوا فيه ربقة الجاهلية ومن اللحظة التي انعزلوا فيها شعوريا عن كل قيم المجتمع الجاهلي ...

ولقد نشأت بعد ذلك وترعرعت في كل تجمع حركي ... وعندما ادرك التجمع انه يستطيع التحول إلى مجتمع مسلم كامل ، تجسدت الدولة في واقع هذا المجتمع حية نابضة فاعلة موجهة ضابطة ... ولم تأل جهداً بعد ذلك في اعلان نفسها دولياً في الأمم والشعوب ...

هذه الدولة هي عطاء من الله ... وهي الدولة "الطبيعية" لانسان هذه الحياة ـــ الذي عرف ربه ونفسه ووجوده وكونه ـــ وهي التي استظل بظلها الأوائل السابقون وهي التي حرمت ، من نعيمها ، الإنسانيةالمعذبة طيلة قرون ... فهل تشرق شمسها من جديد؟؟

---

(٧٤) المرجع نفسه .

الفصل الخامس

كيف دالت دولة الإسلام

لم تقم دولة الإسلام لتدول ... انما قامت لتبقى وارفة الظلال ، يتفيأ تحتها كل إنسان في كل زمان وفي كل مكان ...

هذه حقيقة ــ أثبتناها في فصل مفهوم الدولة ــ لكنها حقيقة مبدئية عاكسها التاريخ وتفلتت منها دولة (المسلمين) ...

لقد نشأت دولة الإسلام ــ كما رأينا في الفصل السابق ــ على عين القرآن وبيد رسول الله ﷺ وانبثقت من أعماق التجمع فكرية رخية قوية مهيبة وتحركت بالتجمع فأزالت الطاغوت ونشرت ظلال الحق والعدل في الوجود ...

وكذلك كان ، فلم نعرف دوراً من هذا الدور ، دور الخلافة الراشدة فقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق ، والدين والعلم ، والأدوات المادية في تنشئة الإنسان الكامل وفي ظهور المدنية الصالحة .

كانت حكومة من أكبر حكومات العالم وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة في عصرها ، تسود فيها المثل الخلقية العليا وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة في حياة الناس ونظام الحكم ، وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة ، ويساير الرقي الخلقي والروحي اتساع الفتوح واحتفال الحضارة ، فتقل الجنايات وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ، رغم دواعيها واسبابها ، وتحسن علاقة الفرد بالفرد والفرد بالجماعة وعلاقة الجماعة بالفرد.

ان هذا الرعيل من اتباع محمد كان خليقا بأن يسعد النوع الإنساني في ظله وتحت حكمه وان يسير بقيادته سديد الخطى رشيد الغاية مستقيم السير فانهم كانوا خير القائمين على مصالحها حارسين لها ... يعدون هذا العالم مملكة الله استخلفهم فيها ــ أولا : من حيث اصل الإنسان الذي جعله خليفة في الأرض ... وثانيا : من حيث انه انسان اسلم لأمر الله وانقاد ، فاستخلفه في الأرض واسترعاه أهلها ... وجعل لهم الولاية على أمم الأرض وجماعات البشر يراقبون سيرها وسيرتها واخلاقها ورغباتها يرشدون الضال ويردون الغاوي ويصلحون الفاسد ويقيمون الأولاد ويرأبون الصدع ويأخذون للضعيف من القوي ، وينتصفون للمظلوم من الظالم ويقيمون في الأرض القسط ويسطون على

العالم جناح الأمن ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿١١٠﴾ ﴾ آل عمران . ﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴿١٣٥﴾ ﴾ النساء [٧٥].

الخلافة الراشدة هي الوجود الحق وليست استثناء مثالياً :

ما تقدم هو الأصل في دولة الإسلام ... أي ... ان الخلافة الراشدة ـــ التي سبق وصفها ـــ هي صورة عن القرآن والإسلام عكست (بدلا) من الله لمن أعطى العهد بالخضوع له والاستسلام لمشيئته . بمعنى ان الخلافة الراشدة هي الوجود الحق المطابق لفطرة الإنسان . فعندما استقام الإنسان على النهج السليم السديد وعاشه وتفاعل معه أضحى صورة عنه وكأن المنهج قد تجسد فيه وفي هذه الحالة فقط يكون الإنسان قد أدرك نفسه وعرف ربه ووجوده ... أي ان الإنسان قد غدا طبيعيا دون تعقيد سويا دون انحراف وبالتالي فان الدولة التي تظلله لا يمكنها ان تكون الا طبيعية ، وأصيلة سوية ، لا انحراف فيها ...

فإذا قام من يصف الخلافة الراشدة بأنها (فترة استثنائية) مثالية بعد ان ردد مع ابن طباطبا قوله (لم تكن على طراز دول الدنيا وهي بالأمور النبوية والأحوال الأخروية اشبه . والحق في هذا ان زيها قد كان زي الأنبياء ، وهديها هدي الأنبياء ، وفتوحها فتوح الملوك الكبار) . وإذا ما قرر بعد ذلك ، ان المسلمين الأوائل كانوا يتوقعون (لهذه الفترة الإستثنائية المثالثة أفولاً سريعاً) [٧٦] يكون ـــ مع تقديرنا لعمله وفهمه ـــ قد جانب الحق والصواب .

فصحيح ان الخلافة الراشدة ـــ على ما وصفها السيد الندوي أو ابن طباطبا ـــ كان زيها زي الأنبياء ولا تشبه ايا من دول الدنيا ... الا أن هذا لا يجعل منها مرحلة مثالية استثنائية في حياة الإنسان ... وظني ان المشكلة ـــ في هذا الصدد ـــ ترتد إلى تفهم الإسلام من حيث هو دين ومنهج حياة ... فغذا اعتبرنا ان الإسلام بأحكامه وشرائعه مثاليا اي فوق قدرة الإنسان اي (غير واقعي) في منهجه وأخلاقه وتصوراته ... جاز لنا

(٧٥) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للسيد ابي الحسن علي الحسني الندوي ، الهند ، ص ١٢٢ ، ١١٣ ، ١١٤ .

(٧٦) النظم الإسلامية لفضيلة الدكتور صبحي الصالح ، ص ٢٧٨ .

ان نعت الفترة التي طبق فيها الإسلام بالمثالية الاستثنائية فالإنسان في هذه الفترة ارتفع ـــ وفقا لهذا المفهوم ـــ إلى (اعلى) من قدرته فصادف ، في علوه هذا ، منهجا إسلاميا فطبقه ... فلما عاد هذا الإنسان إلى انسانيته تخلى عن الإسلام باعتبار ان الارتفاع استثناء وليس أصلاً .

ويترتب على هذا :

ان الإسلام استثناء في مناهج الحياة والأديان اي انه يحمل في طياته سبب رفضه وجرثومة فنائه ... فالإنسان (الطبيعي) ـــ بمعنى العادي ـــ لا يمكنه أن يتعامل مع الإسلام أو ان يحتكم إلى الإسلام في تصوراته وشؤون حياته لأن هذه فوق مستواه ... فطبيعي ـــ والحالة كما وصفنا ـــ ان فترة التطبيق المثالث ـــ الخلافة الراشدة ـــ (افولا سريعا!!) وينقلب الوضع الحياتي إلى ما انقلب إليه في التاريخ اي ان ينحرف (المسلمون) عن تطبيق إسلامهم ويتخلوا عن منهج ربهم فهذا هو الطبيعي وبالتالي المنطقي فالإسلام مثالي وتطبيقه مثالي فهو اذن شاذ ولو كان شذوذا في المثالية والخيال !!

ويعقب هذا التصور أمران :

أولهما : تبرير (فلسفي) لانحراف المسلمين عن الإسلام إذ لا يمكن أن يبقي الإسلام مطبقا في الوجود باعتباره يتطلب إنساناً مثالياً .

ثانيهما : الإتجاه باستحالة (تطبيقية) مجددا في واقع الحياة لصعوبة ايجاد الإنسان المثالث أولا ولعدم الجدوى من التطبيق ثانيا ـــ وعلى افتراض تحققه فإن مرحلته لن تكون أطول من الخلافة الراشدة حيث الصحابة والتابعون ... وستافل افولاً سريعاً لأنها شاذة ولو شذوذاً مثالياً .

ونعتقد أن هذا المفهوم مفهوم استشراقي ، تاثر به كثير من مفكرينا وكتابنا الإسلاميين ـــ بقصد أو بدون قصد ـــ ونقلوه ، منتبهين أو غير منتبهين إلى ما يجره من ذيول منكرة ، تعمل على (تلويث) التصور الإسلامي عن الدولة والإنسان تلويثا فتاكاً ...

ومن هؤلاء ... الدكتور عبد الكريم الخطيب صاحب كتاب (الخلافة والامامة ديانة وسياسة) الذي يقول [٧٧] :

(والحق ان الخلافة التي عرفها المسلمون لأول عهدهم بعد النبي ﷺ قد استوفت حظها من الحياة ، وانها ماتت ميتة طبيعية ... وما كان لها ان تصحب الناس أكثر من هذه المرحلة القصيرة التي صحبتهم فيها ، ثم تسلمهم بعدها إلى الحياة ... الحياة كما يحياها الناس ... الحياة التي يختلط فيها الخير بالشر ، ويتصارع فيها الحق والباطل ويتغالب فيها الدين والدنيا ...

(ففترة الخلافة الراشدة ليست محسوبة من حياة الناس ، على الوجه الذي قدر لهم ان يصحبوها عليه وانما هي فترة استثنائية اشبه بفترة النبوة ...

فكما أن فترة النبي ﷺ لن تعيش في الناس ، ولن يعيش فيها الناس الا مرة واحدة والا زمناً محدوداً ينتهي بوفاة النبي ﷺ ، كذلك الفترة التي تعقب النبي لا تعيش في الناس ، ولا يعيش فيها الناس الا مرة واحدة ، لا تتجاوز بحال ابدا ما كان لفترة النبي من عمر !! وربما كان لك ان تضع هنا معادلة زمنية بين رحلة الشمس من مشرقها إلى مغربها ، وبين هذه الفترة التي تعقب غروب الشمس وانسدال الظلام .

(فترة الخلافة الراشدة) اذن كانت فترة (استثنائية) لا ينبغي ان نخضعها لمفهوم الحياة الممتدة في أجيال الناس ، كما لا ينبغي ان ننتظر قيامها مرة أخرى على الوضع الذي قامت عليه من أول امرها ، الا إذا قامت في الحياة نبوة كنبوة محمد ، ذلك امر قدر له الا يقع !

(وإنا إذا نظرنا إلى (الخلافة الراشدة) هذه النظرة ، وعلى هذا التقدير أرحنا أنفسنا من هذه البلبلة وهذا الاضطراب في أمر (الخلافة) وأزحنا عن صدورنا هذا القلق وهذا الهم الثقيل الذي نعالجه ونحن نطالع هذه الأحداث ، ونستقبل وجه تلك الفتن التي نبتت في مغارس الخلافة ... فإننا نجد لكل هذا منصرفاً ينصرف إليه ، إذا نحن لم نجعل للخلافة هذا المقام الذي كانت عليه بعد النبوة ، وإذا نحن لم نجعل للخلافة هذا المقام الذي كانت عليه

---

(٧٧) الطبعة الأولى ١٩٦٣ صادرة عن دار الفكر العربي بالقاهرة ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

النبوة ، وإذا نحن لم نتشبث بوضعها فيه ... وإذا نحن سلمنا بأنها في تلك الفترة لم تكن إلا عادية مؤداة لون تكون من أشياء الحياة التي نضم عليها ايدينا ، ويتوارثها الأبناء عن الآباء ... جيلا بعد جيل .

وليس بعيداً عن هذا المعنى ما كتبه طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى حين تساءل:

(فهل كانت هذه السيرة التي سارها النبي ﷺ واجتهد صاحباه أبو بكر وعمر في ان يسيراها ما استطاعا إلى ذلك سبيلا ملائمة لما فطر عليه الناس من الأثرة والطمع والحرص على المنافع.

وهل كانت هذه السيرة قادرة على ان تبقى حتى تغير من طباع الناس فترقى بهم إلى المثل العليا التي دعا اليها النبي ﷺ وصاحباه ؟) (٧٨) .

ويجيب :

وأكاد اعتقد ان الخلافة كما فهمها أبو بكر وعمر كانت تجربة جريئة توشك ان تكون مغامرة ولكنها لم تنتهِ إلى غايتها لأنها أجريت في غير العصر الذي كان يمكن أن تجرى فيه ...) (٧٩) .

* * *

المفهوم الصحيح للخلافة الراشدة :

ان الفهم الإسلامي الصحيح للخلافة الراشدة هو أنها أصحق مرحلة في تطبيق الإسلام تطبيقا سويا ـــ وهي تشابه دول الدنيا ـــ على حد تعبير ابن طاطبا لأنها غير دول الدنيا في المنشأ والتصور والهدف .

ان الإنسان (الجاهلي) ـــ العربي والأعجمي ـــ مان ضائعا في خضم ركام من تصورات بشرية مخرفة فلا هو يعرف نفسه ولا غاية وجوده ولا معطيات حياته ولا هو يعرف منجىً سليماً للحياة فقد كان منحرفاً عن (السوية البشرية) ساقطاً عن حدود الإنسان المكرم من الله ، خليفة الله فجاءه الإسلام ليعرفه بنفسه وبكونه وبحياته وقبل كل

---

(٧٨) الفتنة الكبرى ، ص ٢١ .

(٧٩) المرجع السابق ، ص ٥ .

شيء بربه ، وليهبه بعد ذلك (بدل) العهد الذي اخذ منه ، ليمنحه منهج حياة ودولة تشرف على التطبيق والتنفيذ . وبذلك يكون الإسلام قد رفع الإنسان فعلا ، لكنها رفعة من الضياع إلى درجة الإنسان الصحيح السوي ... هذه الدرجة التي هي (الأصل) في الإنسان ... بل هي الإنسان بالذات ... ودونها يفقد (الإنسان) معنى انسانيته فيهوي في أوهاد الضلال ، والتيه ، والضياع .

ان الإسلام جاء لبشر لهم طبيعة البشر وليتعامل معهم على أنهم بشر فلا يفترض في الناس الملائكية ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ الاسراء . (كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) رواه (والله لو لم تخطئوا فتستغفروا فيغفر الله لكم لأتى بقوم يخطئون فيستغفرون فيغفر الله لهم). أو كما قال ﷺ .

ولقد جاءت أحكام الإسلام المختلفة في الحكم والإقتصاد والمال والإجتماع بناء لمعرفة أصيلة بكينونة هذا الإنسان وقدرته وطاقته واستعداده ... وبكل شيء فيه ... ويتحصل من ذلك ان تطبيق الإسلام في العهد الراشدي ــ وفي المستقبل ان شاء الله ــ لن يعتبر مثاليا استثنائيا بل طبيعيا واقعيا وان الانقلاب الذي حدث في التاريخ بعد الخلافة الراشدة كان انحرافاً عن الطبيعة السوية) للإنسان وليس عودة بالإنسان إلى درجته الطبيعية بعد فترة (المثالية الاستثنائية) .

الإنحراف عن منهج الله

أول الأسباب في غياب الخلافة الراشدة :

ومن هذه المناقشة يتضح لنا سبب هام بل أهم الأسباب بلا جدال ، لزوال دولة الإسلام ، وهو تخلي المسلمين عن منهج الله السديد السليم . هذا الإنحراف ... هو الذي عطل دولة الإسلام عن العطاء وأوقف دور الوساطة بين الله والناس في بركات من السماء والأرض ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الأعراف .

وكأن ... لا بد من عقوبة على هذا الإنحراف وقد كانت ... (ان عقوبة الإنحراف عن منهج الله عقوبة كبرى قد تتجاوز عقوبة أولئك الذين لم يتفيأوا بظلال العقيدة

الكبرى فالذين عرفوا ثم كفروا.. الذين استضاءت قلوبهم بالنور ثم اظلموها بالطاغوت هؤلاء شر مكانا وأظلم الناس بدون جدال ... فهم قد نكثوا العهد الذي قطعوه لله ، ونكلوا عن العهد الذي أبرموه مع الله وعطلوا في أنفسهم ووجودهم ودنياهم خلافة الله ... فليس عجيبا بعد ذلك ان يتعطل دور الدولة في الوساطة وتتوقف حركتها عن العطاء مما وعد الله... وكلما أمعن الناس في انحرافهم عن المنهج كلما تلاشى دور الدولة في العطاء حتى يجدب الناس ولعل هذا أبلغ عقاب من الله لهذه الأمة وكأن الثواب والعقاب في طرفي خط يسير متوازيا ابدا مع خط منهج الله... فإذا ما تمثل الإسلام في واقع الحياة عقيدة وسلوكا وتشريعا أدرك الناس الثواب نهاية الخط المتعالي، وإذا ما تخلوا عن شرعة الله هبطوا هبواطا بشعا فأصابهم العقاب الطرف الآخر من الخط الأبدي، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا ﴾ [٨٠] .

والإنحراف ـــ كما أسلفنا ـــ لا يظهر دفعة واحدة . فهو كالخط الذي نشك به زاوية مع خط آخر ينفرج قليلاً ثم لا يلتقيان ... وهكذا يتحول الإنحراف مع الزمن دينا آخر يختلف عن الدين الأول مظهرا وجوهراً .

ولقد بدأ الإنحراف في دولة الإسلام من أخطر قاعدة فيها ، من العودة الجامعة من الحكم فكان بمثابة نقض له ... اذ حول الإنحراف الحكم إلى ملك عضوض [٨١] .

والحقيقة ان هذا الانقلاب في نظام الكم لم يظهر دفعة واحدة و لم يقبله المسلمون ولا صفوفهم مرة واحدة ، فقد مر في مراحل عديدة ، كادت تقضي عليه ... لولا ان قضى عليها بقوة الحديد والنار ...

لقد آل الحكم إلى معاوية بعد الحرب النكدة وبعد استشهاد الإمام علي كرم الله وجهه ـــ وليس في ولايته شيء ـــ خاصة بعد أن انعقد عليه الاجماع وبايعه مخالفوه ومنهم الحسن بن علي وشقيقه (دخل معاوية الكوفة ونال بيعتها ودخل الحجاز واسمى خلفتها حتى سمى الناس العام الذي حصل فيه على بيعة الأمصار (بعام الجماعة) [٨٢] .

---

(٨٠) راجع فصل (مفهوم الدولة) من هذا الكتاب .

(٨١) وصدق رسول الله ﷺ حين يقول (لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة اولها نقضا للحكم وآخرها نقضا للصلاة) .

(٨٢) النظم الإسلامية ، صبحي الصالح ٢٦٧ .

قلت : ليس في ولاية معاوية ــ من حيث هي ولاية ــ شيء فليست هي بذاتها ملوكية ولو انه سمى نفسه على ما رواه اليعقوبي (أول الملوك) [٨٣] و(اتخذ لنفسه الدور والقصور واحاط نفسه بالحجاب والخدم) [٨٤] فقد اعتاد على ذلك قبل ان يصبح خليفة (أميرا) للمؤمنين وقد رآه عمر بن الخطاب اثناء زيارته للشام و لم ينكر عليه ذلك .

الايحاءات الأولى بتوريق يزيد :

لكن ... بدأ التحول الخطير في الخلافة ، عندما بدأ معاوية في اخذ البيعة لابنه يزيد. وهناك جملة ملحوظات لا بد من إبدائها في هذا الصدد .

أولا : ان مظاهر الملك التي نقلها معاوية عن الروم أثرت في نفسه تأثيرا قويا ... فهو بدأ يحس ــ كما كانت العادة عند الروم وفارس وملوك الأرض في ذلك الحين ــ ان الملك ومظاهره ينبغي ان ينتقل إلى ابنه بمجرد وفاته ، فهو أحق الناس به ، ولو لم يكن أهلا له ... ففكرة (التوريث) هذه فكرة وافدة على معاوية الا انها وجدت مرتعا خصبا في نفسه !!

ثانيا : يبدو ان معاوية قد وجد في المناداة بالحسن بن علي خليفة ، مكان ابيه ، بعد استشهاد علي مسابقة شجعته على إعلان مبدأ (التوريث) وأخذ البيعة لابنه يزيد ...

يقول الدكتور احمد شلبي (والذي لا شك فيه ان بني هاشم هم الذين بدأوا بخلق فكرة الهرقلية في الحكم الإسلامي) [٨٥] .

ويظهر عمق هذا الرأي في تسلسل الأئمة ، عند الشيعة وحصرهم في عائلة علي دون سواها ... بقطع النظر عن الحجج التي يوردها هؤلاء في هذا الصدد.

ثالثاً : بدأت فكرة المبايعة ليزيد سنة ٤٩ هــ وكان الذي بدأها المغيرة ابن شعبة ويروى انه لما أحس ان معاوية ينوي عزله عن الكوفة قصد دمشق وقابل يزيد وقال له : ذهب أعيان أصحاب رسول الله ﷺ وكبراء قريش وذووا اسنامهم وانما بقي ابناؤهم وانت

---

(٨٣) المرجع نفسه .

(٨٤) المرجع نفسه .

(٨٥) التاريخ الإسلامي (احمد الشلبي) جزء ٢ ، ص ٤٤ .

من أفضلهم ولا أدري ما يمنع امير المؤمنين ان يعقد لك البيعة . قال أو ترى ذلك يتم قال نعم . واخبر يزيد اباه بذلك الرأي ووصفه بأنه الطريق لحقن الدماء ولجمع الكلمة (٨٦) .

ولا بد من التنويه إلى ان البيعة لم تعط ليزيد ـــ خاصة من كبراء المسلمين ـــ الا بالقوة والاكراه . ولقد قام ابن ابي بكر عبد الرحمن في المدينة ينكر اخذ البيعة ليزيد ويقول (ما الخيار أردتم لأمة محمد ولكنكم تريدون ان تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل) . وكلام عبد الرحمن هذا يكشف لنا قضية هامة فالانكار محصور فقط في تعيين يزيد بن معاوية خليفة مكان ابيه مما يوجد الهرقلية في التفكير السياسي في الإسلام . اما مبدأ التعيين فقد وافق عليه كبار المسلمين وأباحوه لمعاوية نظرا للظروف الحرجة التي مرت بها الدولة الإسلامية في ذلك الحين فقد كتب معاوية لواليه على المدينة يقول له : اني كبرت سني ورق عظمي وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدي وقد رايت ان اتخذ لهم من يقوم بهاذ الأمر بعدي . وكرهت ان اقطع امرا دون مشورة من عندك ، فاعرض عليهم واعلمني بالذي يردون عليك فلما اخذ معاوية موافقتهم على مبدأ التعيين أعلن اسم يزيد وطلب البيعة له .

هنا بدأ الصراع أو بدأ التحول في التاريخ الإسلامي أو كما يقول الاستاذ الندوي (الحد الفاصل بين الكمال والزوال ... الذي يفصل بين الخلافة الراشدة والملوكية العربية أو ملوكية المسلمين) (٨٧) فالملاحظات التي ابديناها سابقا اخذت تتفاعل في نفسية معاوية وتتأكد حتى اساء الاختيار للمسلمين ولذلك قال عبد الرحمن بن ابي بكر (ما الخيار اردتم لأمة محمد...) .

ويرى الدكتور احمد الشلبي ان معاوية (لم يكن يقصد الخير للمسلمين في تعيينه ابنه يزيد بقدر ما كان يقصد تهيئة أسباب السعادة لابنه وهذا مما يؤخذ عليه ولو كان يريد

---

(٨٦) المرجع نفسه ، ج ٤١/٢ .

(٨٧) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٢٢ .

الخير للمسلمين لاختار من بني امية من هو اصلح من يزيد (٨٨) وهذا بعد ان اكد الدكتور الشلبي ضرورة اختيار اموي لتلك المرحلة العصيبة بعد معاوية (٨٩) .

اذن فليس اختيار الخلف هو سبب الإنحراف وهو امر كان في الخلافة الراشدة (٩٠) إنما إساءة الإختيار عن عمد وحمل الناس بالإكراه على الخضوع لهذا الإنحراف والإختيار فعندما اختار معاوية يزيد ثار العلماء في وجه يزيد باعتباره ابنا لمعاوية (فلكما مات هرقل قام هرقل) على حد تعبير عبد الرحمن بن ابي بكر . فلقد خاف هؤلاء ان تتأكد على الزمن فكرة الهرقلية والوراثية في اسلوب الحكم ... وكذلك كان ....

ثورة عبد الله بن الزبير المسلحة وثورة ابن عبد العزيز السلمية :

بيد ان الإنحراف لم يمر بسهولة فقد واجهته إرادة صلبة من العلماء وعامة المسلمين، رغم الإكراه والقوة ... حتى ان عبد الله بن الزبير استطاع بثورته أن يوجد خلافة بقيت بضع سنين واعتبرها بعض المؤرخين خلافة ذلك الزمن واعتبر بني أمية خارجين عليها ... فلما اعتزل معاوية الثاني الحكم دون ان يعين خلفاً له ـــ على عادة جده وأبيه ـــ (٩١) (اختلفت كلمة بني امية فيما بينهم واختلف الناس عليهم فأوشك ملكهم ان يضيع . ويروى ان مروان بن الحكم ـــ الذي آل إليه الحكم ـــ نفسه كان على وشك ان ينطلق لابن الزبير فيبايعه.

(وكانت حالة ابن الزبير في ذلك الوقت في تقدم واضح فقد دان له الحجاز وتبعه أهل الكوفة والبصرة ـــ وكان عبد الله بن زياد قد أخلاهما وفر تحت ضغط الاحداث ـــ كما تبعه اهل الجزيرة وامراء الشام ، ولم يبق على الولاء لبني امية الا الاردن ، وتلك الحالة التي حققها عبد الله بن الزبير أو تحققت له جعلت بعض المؤرخين يراه خليفة ذلك

---

(٨٨) التاريخ الإسلامي ، ص ٤٤ .

(٨٩) المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٩٠) تفصيل ذلك في القسم الثاني من هذا الكتاب وفيه مناقشة لموضوع الخلافة والاختيار .

(٩١) يروى انه خطب الناس فقال : (اني قد ضعفت من أمركم فابتغيت لكم مثل عمر ابن الخطاب حين استخلفه ابو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم اجدهم فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم) وهذا يؤكد عمق الشورى وسطحية الهرقلية عند مسلمي ذلك العصر .

العصر ويعد مروان ب الحكم متمردا عليه ولا يعترف له بخلافة كما لا يعترف بخلافة عبد الملك الا من يوم موت ابن الزبير واجتماع الكلمة عليه [٩٢]) .

ولئن استعاد بنو امية ملكهم من جديد وتوارثوه دون المسلمين الا ان أحدهم رفض الخلافة التي آلت إليه عن طريق الهرقلية فأعاد الأمر إلى المسلمين ــ كمعاوية الثاني ــ ذلك هو عمر بن عبد العزيز الذي قال : (ايها الناس اني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه ولا طالب له ولا مشورة من المسلمين واني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لكم) [٩٣] .

وكانت هذه هي المحاولة الأخيرة ــ على صعيد رسمي ــ لمقاومة الإنحراف .ثم ــ بعد عمر ــ ثبت الإنحراف في اسلوب الحكم وغدت الهرقلية امرا متعارفا عليه في مختلف العصور وكان ذلك سببا هاما في تخلف دولة الإسلام .

وعندما ظهرت الدعوة العباسية وزال حكم الأمويين اذاع بنو هاشم انهم اولى بميراث الرسول من العلويين ــ نسبة لعلي زوج فاطمة ــ لأن جدهم عم الرسول ولا ينحدر الميراث إلى ابن العمل مع وجود العم وليس لأولاد البنات ميراث مع وجود العصبة وقد قال شاعرهم في ذلك :

انى يكون ليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأجداد [٩٤]

فمسألة الحكم غدت مسالة ميراث وورثة ... ليس الا ! فتأمل ؟

(ولقد اصبحت الخلافة في العصر العباسي وراثية تماما) ووجهت في هذه المسألة اقسى ضربة إلى تقاليد العرب[*] حين تجاهل العباسيون مشكلة السن فعهدوا بالخلافة إلى الذين لم يبلغوا سن الرشد : كما عهد الرشيد إلى ابنه الأمين وكان عمره خمس سنوات

(٩٢) التاريخ الإسلامي جزء ٢ ، ص ٥٠ ، ٥١ نقلا عن تاريخ الخلفاء للسيوطي والعقد الفريد .

(٩٣) راجع في تولية عمر وما رافقها من أحداث كتابنا (عمر بن عبد العزيز في الحكم والاقتصاد والقضاء) ص ٢٧ وما بعدها .

(٩٤) التاريخ الإسلامي ، محمد الشلبي ، ج ١٣/٢ .

(*) تخالف الدكتور صبحي الصالح في اتجاهه فالضربة لم توجه الى تقاليد عربية او غير عربية ، انما الى المنهج الإسلامي في الحكم ... فهو الذي يحذر من ولاية الصبيان كما في الحديث النبوي ، وهو الذي يمنع أصلا ارتقاء مثل هؤلاء سدة الحكم .

فقط ، وإلى ابنه المأمون و لم يكن عمره يزيد على ثلاثة عشر عاما بل اسندوا ولاية العهد إلى اكثر من واحد كما فعل المهدي والرشيد والمتوكل[٩٥] ...

ولا بد ، ونحن في صدد الإنحراف ، ان نؤكد ان الهرقلية هذه وان ثبتت ورسخت في التعامل والواقع الا انها بقيت في أذهان الجميع وخاصة العلماء والفقهاء انحرافا و لم تعتبر في يوم من الأيام اصلا وقد وجدنا من يكتب ، كالماوردي ، وابن خلدون ولو في عصور متأخرة ، فضلا عن فقهاء المذاهب المعروفين ، عن الدولة والخلافة وكيف يختار الخليفة والنصوص الشرعية التي تحكم هذا الاختيار وما شابه ... ووجدنا أيضاً من يقول بظلم الخلفاء كالامام مالك بن انس رضي الله عنه فقد سئل عن قتال الخارجين على الدولة أيجوز ذلك ؟ فقال دعهم ينتقم الله من ظالم لظالم ثم ينتقم من كليهما ...[٩٦] .

ولا بد ، ثانيا من الاشارة إلى ان هذا الإنحراف في اسلوب الحكم قد اضفى هالة خاصة على الخلفاء الملوك ... فقد غدا منصب الخليفة لا حول مركز الخلافة وبمعنى آخر ان الخليفة الملك راح يبذل ما في وسعه ليحافظ على بقائه وليمهد لانتقال السلطة من بعده إلى ولده فأخذ يتوسل باسترضاء الاقرباء ووجهاء الناس وربما بعض العلماء ... ولو كان هذا ـــ بل هو كذلك حتما ـــ على حساب بيت مال المسلمين !

على أثر تجديد البيعة لعمر بن عبد العزيز (احتجب عن الناس ثلاثة ايام متواليات لا يدخل عليه احد ووجوه بني مروان وبني امية وأشراف الجند والعرب ببابه ينظرون مزاحم يجمعان سجلات قطائع الأمراء وعهود عطاياهم والأموال التي تجري عليهم ويدرسانها دراسة وثيقة على ضوء التشريع المالي في الإسلامي وكم كان عجب عمر كبيرا عندما احصى مجموع القطائع والاعطيات للأمراء فبلغت عنده نصف ما في بيت المسلمين أو ثلثيه فما كان منه الا ان نادى بصلاة جامعة فاجتمع الناس وخرج اليهم وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (اما بعد فإن هؤلاء ـــ أي الخلفاء قبله ـــ اعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا ان نأخذها وما كان ينبغي لهم ان يعطوناها واني قد رأيت ذلك ليس علي فيه دون الله محاسب واني قد بدأت بنفسي واهل بيتي . اقرأ يا مزاحم فيخرج سجلا

(٩٥).النظم الإسلامية ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٩٦) الإسلام بين العلماء والحكام لعبد العزيز بدري نقلا عن (ضحى الإسلام) وكتاب (مالك لأبي زهرة) ، ص ١٠٤ .

سجلا وعهدا عهدا وكتابا كتابا ثم يقرؤه فيأخذه عمر وبيده آلة حادة فيمزقه ، وما زالا حتى حان الظهر ونادى للصلاة ورد جميع ذلك إلى بيت المال) [٩٧] .

فعمر بن عبد العزيز لا يهمه تجميع القوى حول شخص الخليفة وانما تدعيم الخلافة نفسها والقيام بواجبها حتى تضحى هيئة معنوية كما كان كذلك في عهد الخلافة الراشدة، لا سلطة شخصية كخلافة الأمويين .

عوامل التحلل في كيان الدولة :

ان نقض الحكم أدى إلى الإنحراف البشع ــ الذي رأينا ــ وهذا الإنحراف ادى إلى انحراف آخر ... ثم تتالى الإنحراف وتعاظم ... ولقد لخص الامام الشهيد حسن البنا عوامل التحلل في كيان الدولة الإسلامية في رسالته بين الأمس واليوم فجاء شاملا وافيا فقال رحمه الله :

(ومع هذه القوة البالغة والسلطان الواسع فإن عوامل التحلل قد أخذت تتسلل إلى كيان هذه الأمة القرآنية وتعظم وتنتشر شيئا فشيئا حتى مزقت هذا الكيان وقضت على الدولة الإسلامية المركزية في القرن السادس الهجري بأيدي التتار ، وفي القرن الرابع عشر الهجري مرة ثانية ، وتركت وراءها في كلتا المرتين امما مبعثرة ودويلات صغيرة تتوق إلى الوحدة وتتوثب للنهوض وكان أهم هذه العوامل :

أ ــ الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه مع التحذير الشديد الذي جاء به الإسلام في ذلك والتزهيد في الامارة ولفت النظر إلى هذه الناحية التي هي سوس الأمم ومحطمة الشعوب والدول ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ **الانفال** . ومع الوصية البالغة بالاخلاص لله وحده في القول والعمل والتنفير من حب الشهوة والمحمدة .

ب ــ الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن الدين كعقائد وأعمال إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها ولا حياة وإهمال كتاب الله وسنة الرسول ﷺ والجمود والتعصب للآراء والأقوال والولع بالجدل والمناظرات والمراء ، وكل ذلك مما حذر منه

(٩٧) عمر بن عبد العزيز في الحكم والاقتصاد والقضاء للمؤلف ص ٤٤ ، ٤٥ .

الإسلام ونهى عنه اشد النهي حتى قال رسول الله ﷺ : (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أتوا الجدل) .

ح ـــ الإنغماس في ألوان الترف والنعيم والاقبال على المتعة والشهوات حتى اثر عن حكام المسلمين في كثير من العصور ما لم يؤثر عن غيرهم مع انهم يقرأون قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦ ﴾ الإسراء .

د ـــ انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح و لم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة اداركهم لمعانيه مع انهم يقرؤون قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ ﴾ آل عمران .

هـــ ـــ إهمال العلوم العلمية والمعارف الكونية وصرف الأوقات وتضييع الجهود في فلسفات نظرية عميقة وعلوم خيالية سقيمة مع ان الإسلام يحثهم على النظر في الكون واكتناه اسرار الخلق والسير في الأرض ويأمرهم ان يتفكروا في ملكوت الله ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ١٠١ ﴾ يونس .

و ـــ الغرور بسلطانهم والانخداع بقوتهم واهمال النظر في التطور الإجتماعي للأمم عند غيرهم حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة واخذتهم على غرة وقد امرهم القرآن باليقظة وحذرهم مغبة الغفلة واعتبر الغافلين كالأنعام بل هم أضل ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩ ﴾ الأعراف .

ز ـــ الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم والاعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع في تقليدهم فيما يضر ولا ينفع مع النهي الشديد عن التشبه بهم والأمر الصريح بمخالفتهم والمحافظة على مقومات الأمة الإسلامية والتحذير من مغبة هذا التقليد

جاء في القرآن الكريم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [٩٨] آل عمران.

وللأستاذ ابي الحسن الندوي أيضاً نظرات في (تحريمات الحياة الإسلامية) كما اسماها في كتابه ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين فقال [٩٩] تحت عنوان (فصل الدين عن السياسة) .

(وقع فصل بين الدين والسياسة عمليا ، فان هؤلاء ــ أي الخلفاء الأمويين والعباسيين حاشا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز[*] فإن هؤلاء لم يكونوا من العلم والدين بمكان يستغنون به عن غيرهم من العلماء واهل الدين فاستبدوا بالحكم والسياسة واستعانوا ــ إذا أرادوا واقتضت المصالح ــ بالفقهاء ورجال الدين كمبشرين متخصصين واستخدموهم في مصالحهم واستغنوا عنهم إذا شاؤوا وعصوهم متى شاؤوا ، فتحررت السياسة من رقابة الدين وأصبحت قيصرية أو كسروية مستبدة وملكاً عضوضاً ...) .

وتحت عنوان (**النــزاعات الجاهلية في رجال الخلافة**) قال :

(و لم يكن رجال الحكومة حتى الخلفاء امثلة كاملة في الدين والخلق بل كان في كثير منهم عروق للجاهلية ونوعاها فسرت روحهم ونفسيتهم في الحياة العامة والإجتماع. فتنفست الجاهلية في بلاد الإسلام ورفعت رأسها واخلد الناس إلى الترف والنعيم وإلى الملاهي والملاعب وانغمسوا في المذات والشهوات واستهتروا استهتاراً . ونظرة في كتاب الأغاني وكتاب الحيوان للجاحظ تريك ما كان هنالك من رغبة جامحة إلى اللهو وتهافت على الملاهي واللذات ونهمة للحياة الدنيا وأسبابها ...) .

ثم يذكر أن هؤلاء الخلفاء والحكام كانوا يسيئون (تمثيل الإسلام) وأنهم مع العلماء والمفكرين لم يحتفلوا (بالعلوم العملية المفيدة) احتفالاً صحيحاً ... وان البدع والضلالات قد حجبت (توحيد الإسلام النقي) ...

---

(٩٨) بين الأمس واليوم للامام حسن البنا ، ص ٨، ٩، ١٠، ١١١ .

(٩٩) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٢١ وما يليها .

(*) المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

وهكذا ... كلما تأكد الإنحراف على الزمن كلما انحسر الإسلام عن الوجود الحياتي للمسلمين حتى أضحى هذا الوجود جاهلياً في التصور والسلوك ، ليس له من الإسلام إلا المسحة الظاهرة ، وإلا الأشكال التي لا تسمن ولا تغني من جوع ...

مواجهة العلماء للانحراف :

بيد ان هذا الإنحراف ـــ وهو في اشتداده وتأصله ـــ قد واجه مقاومة صلبة اتخذت شكلا لها صيحات واعية أو تحديات لاهبة ...

فعلاوة على ما ذكرناه من مواجهة الصحابة للقيصرية الملوكية فقد واجه ، على مر الزمن ـــ علماء ابرار تحديات الإنحراف في الحكام ، مما جعلهم آيات في البلوطة والثبات .

فهذا الحسن البصري يواجه عمر بن هبيرة والي زياد بن معاوية على العراق ويصيح به (... وحق الله ألزم من حق أمير المؤمنين علي ، والله احق ان يطاع ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ... فأعرض كتاب أمير المؤمنين على كتاب الله عز وجل فإن وجدته مؤافقا للكتاب فخذ به وان وجدته مخالفا لكتاب الله فانبذه .

يا ابن هبيرة :

اتقِّ الله فإنه يوشك ان يأتيك رسول من رب الالمين يزيلك عن سريرك ويخرجك عن سعة قصرك إلى ضيق قبرك فتدع سلطانك ودنياك خلف ظهرك وتقدم عل ربك وتنزل على عملك .

يا ابن هبيرة :

ان الله ليمنعك عن يزيد وان يزيد لا يمنعك من الله وإن أمر الله فوق كل امر وانه لا طاعة في معصية الله واني احذرك بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين .. [١٠٠] .

وفضلا عن سعيد بن الجبير الذي عاند الحجاج ورفض الانصياع الا للحق فقد حكي ان حطيطا الزيات جيء به إلى الحجاج فلما دخل عليه قال انت حطيطا ان سئلت

---

(١٠٠) احياء علوم الدين للإمام الغزالي الجزء الثاني ص ٣٤١ .

لأصدقن وان ابتليت لأصبرن وان عوفيت لأشكرن قال فما تقول في : قال : أقول انك من اعداء الله في الارض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة قال فما تقول في امير المؤمنين عبد الملك بن مروان قال اقول انه اعظم جرما منك وانما انت خطيئة من خطاياه قال الحجاج ضعوا عليه العذاب (١٠١) . حتى استشهد...

اما الامام الاوزاعي فقد وافى ابا جعفر المنصور فقال له :

يا امير المؤمنين : حدثني مكحول عن عطية بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : اي والٍ مات غاشاً لرعيته حرَّم الله عليه الجنة يا أمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله ان الله هو الحق المبين ...

يا أمير المؤمنين : قد كنت من شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين اصبحت تملكهم احمرهم واسودهم ومسلمهم وكافرهم . وكل له عليك نصيب من العدل فكيف بك إذا انبعث منهم فئام وراء فئام وليس منهم احد الا وهو يشكو بلية ادخلتها عليه أو ظلامة سقتها إليه . يا أمير المؤمنين حدثني مكحول ... قال كانت في يد رسول الله ﷺ جريدة يستاك ويروع بها المنافقين فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له يا محمد : ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب امتك وملأت قلوبهم رعبا . فكيف بمن شقق استارهم وسفك دماءهم واجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف منه ...

يا امير المؤمنين ان الملوك لو بقي لمن قبلك لم يصل اليك وكذا لا يبق لك كما لم يبق لغيرك ... يا امير المؤمنين بلغني ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لخشيت ان اسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك وهو عل بساطك ... وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يقيم أمر الناس الا ضعيف العقل أريب العقد لا يطلع منه على عورة ولا يخاف منه حرة ولا تأخذه في الله لومة لائم ....

يا امير المؤمنين : اشد الشدة القيام لله بحقه وان اكرم الكرم عند الله التقوى وانه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله واعزه ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه ... (١٠٢) .

---

(١٠١) الاحياء الجزء الثاني ، ص ٣٤٠ .

(١٠٢)المرجع نفسه ، ج٢/ ٣٤٢ ، ٣٤٤، ٣٥٥ .

ولقد وصلت الجرأة بسفيان الثوري ان يرد على كتاب هارون الرشيد الذي ارسله إليه يدعوه فيه إلى موافاته ويعده (الجوائز السنية) فيقول في رده :

بسم الله الرحمن الرحيم من العبد المذنب سفيان الثوري إلى العبد المغرور بالآمال هاروق الرشيد الذي سلب حلاوة الإيمان .

اما بعد ... فانك قد جعلتني شاهدا عليك باقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه وانفذته في غير حكمه ... يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ... واعلم انك ستقف بين يدي الحكم العدل فقد رزئت في نفسك اذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار ورضيت لنفسك ان تكون ظالما وللظالمين اماما . يا هارون : قعدت على السرير ولبست الحرير واسبلت سترا دون بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين ثم اقعدت اجنادك الظلمة دون بابك وسترك يظلمون الناس ولا ينصفون يشربون الخمور ويضربون من يشربها ويزنون ويحدون الزاني ويسرقون ويقطعون السارق أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل ان تحكم بها على الناس !! فكيف بك يا هارون غدا إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى احشروا الذين ظلموا وازواجهم ؟ اين الظلمة واعوان الظلمة ؟ فقدمت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما الا عدلك وانصافك [١٠٣] والظالمون حولك وانت لهم سابق وامام إلى النار ... [١٠٤] .

لماذا لم تقم ثورات منظمة تقضي على الإنحراف ؟

ولعل سؤالا هاما ينتصب امام المدقق في التاريخ لماذا لم تقم ثورات منظمة قضت على الإنحراف واعادت الأمر إلى نصابه ؟ ونعتقد ان مرد ذلك يعود إلى ما يلي :

اولا : ان اقتتال المسلمين في صدر الإسلام بين علي ومعاوية ثم بين الزبير والأمويين ، وغير ذلك من ثورات صغيرة ومقاومات على صعيد المدن ثم ما جرى اثناء الثورة العباسية قد كرّه في نفوس علماء المسلمين خاصة كل اقتتال داخلي فنفروا من

---

(١٠٣) من حديث (ما من وال يلي شيئا من أمور الناس الا اتي به يوم القيامة مغلولة يده الى عنقه لا يفكها الا عدله ..) رواه ابي الدنيا والطبراني انظر الاحياء ص ٣٤٤ الجزء الثاني .

(١٠٤) من رسالة سفيان الى هارون الاحياء الجزء الثاني ص ٣٤٨ .

مقاومة الظلم والإنحراف وآثروا الاخلاد إلى المقاومة السلبية الفكرية لما رأوا من نتائج الاقتتال السابق وآثاره السيئة في مختلف وجوه الوجود المسلم.

ثانيا : لقد نشأت عبر الزمن وخاصة في العصر العباسي حركات فكرية وفرق مذهبية وصوفية استنزفت جهود العلماء والفقهاء وعامة الناس . فاضاعت في الجميع ــ حاشا بعض العلماء ــ همة الجهاد والكفاح واقنعتهم بضرورة مسايرة السلطان والسكوت عن المنكرات اذ ان اوقاتهم لم تعد تتسع لمعالجة قضية الإنحراف فهي مشبعة بترف كلامي أو جدل مذهبي أو فلسفي .

ثالثا : لقد تشوه في نفوس الناس التصور الإسلامي وخاصة فيما يتعلق بالجانب السياسي ، اي ما خص الخليفة والحكام . وتعاقبت الأجيال والتشوه يزداد حتى كاد يقتنع الناس بأن لا حق لهم تجاه (السلطان) .

رابعا : ما تقدم حال دون ايجاد حركة منظمة تعتمد المطالبة القوية اساسا لها على حد تعبير ابن خلدون أو تعمل على تغيير الواقع ومقاومة الإنحراف والعودة بالأمة والناس إلى المكانة التي ارادها الله لهم .

خامسا : ومع هذا فإن ابن خلدون يحدثنا عن بعض ثورات دينية قامت في بغداد بعفوية دون اعداد وتنظيم مما جر عليها الفشل والنقد اللاذع من ابن خلدون نفسه وذلك في معرض حديثه عن مقومات واسلوب التغيير .

قال (ومن هذا الباب احوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء فإن كثيرا من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على اهل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه والأمر بالمعروف، جاء في الثواب عليه من الله فيكثر اتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرضون انفسهم في ذلك للمهالك وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وانما امر به حيث تكون القدرة عليه قال رسول الله ﷺ: (من راى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه) وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها الا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر

ـــ كما قدمناه ـــ ... فإذا ذهب احد من الناس هذا المذهب وكان فيه محقا قصر به الانفراد من العصبية فطاح في هوة الهلاك واما ان كان من المتلبسين في طلب الرياسة فأجدر ان تعوقه العوائق وتنقطع به المهالك لأنه أمر الله لا يتم الا برضاه واعانته والاخلاص له والنصيحة للمسلمين ولا يشك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة .

واول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الأمين وابطأ المأمون بخراسان عن مقدم العراق ... فوقع الهرج ببغداد وانطلقت ايدي الزعرة بها من الشطار والحربية على اهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلأت ايديهم من نهاب الناس ... فتوافر اهل الدين والاصلاح على منع الفساق وكف عاديتعم وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوس ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابه خلق وقاتل اهل الزعرة فغلبهم واطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل ثم قام من بعده رجل آخر من سواه اهل بغداد يعرف بسهل بن لامة الانصاري ويكنى ابا حاتم علق مصحفا في عنقه ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه فأتبعه الناس كافة من بين شريف ووضيع من بني هاشم فمن دونهم ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من اخاف المارة... وقال له خالد الدريوس: انا لا اعيب على السطلان فقال له سهل: لكني اقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائنا من كان وذلك سنة احدى ومائتين وجهز له ابراهيم بن المهدي العساكر فغلبه وأسره وانحل أمره سريعاً وذهب ونجا بنفسه . ثم اقتدى بهذا العمل بعده كثير من (الموسوسين) يأخذون انفهسم بإقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في اقامته من (العصبية) ولا يشعرون بمغبة امرهم ومآل أحوالهم[١٠٥] .

* * *

اشتداد الإنحراف وبداية الانفصال وظهور السلطة العثمانية

واشتد الإنحراف... وآل الحكم إلى اناس لم يتذوقوا حلاوة الإيمان والقرآن من فرس واتراك. وراح هؤلاء يعلبون بالخليفة، وبمركز الخليفة وبكل شيء .

(١٠٥) مقدمة ابن خلدون ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

وبدا انفصال الولايات عن بعضها ... فاستبد كل امير بإمراته وكل والٍ بولايته وتمزّق العالم الإسلامي إلى اجزاء متفرقة متبعثرة ، تعرضت ، فيما بعد ، إلى غزو صليبي فاجر ... ثم إلى زحف مغولي ماكر وسقطت بغداد ١٢٥٨ وانتقلت الذبالة الباقية من منصب الخلافة الاسمي إلى مصر [1] .

ثم كانت السلطة العثمانية ...

وبينما كانت تتقدم في آسيا الصغرى وتقف على اسوار القسطنطينية فاتحة منصورة ١٤٥٣ ، كانت الأندلس تئن تحت حروب دامية واخراج نكد (سقطت غرناطة ١٤٩٢) ومع هذا ... (فالعالم الإسلامي الذي كان قد استولى عليه الناس من جراء الكوارث التي حلت به في الشرق والغرب . شعر اثر هذه الانتصارات (احتلال القسطنطينية) التي احرزها العثمانيون على التوالي ، سواء في البر أو في البحر ، بحياة جديدة ردت إليه الآمال ورفعت رأسه كرة أخرى ... [2] وآلت الخلافة الاسمية إلى بني عثمان فأصبح هؤلاء السلاطين خلفاء ... يتوارثون الخلافة توارث المتاع ... كما فعل من قبل الأمويون والعباسيون والآخرون ...

وانحرف العثمانيون كما انحرف اسلافهم ، واخذت البقية الباقية ، الرمز الروحي ، المنصب الاسمي للخلافة يتلاشى شيئا فشيئا حتى الغاه اتاتورك ، صنيعة الاستعمار ، في الساعة السادسة والنصف من صباح ٢ آذار سنة ١٩٢٤ .

ان الخلافة على ما كان فيها من ضعف وانحراف رمز التجمع له معقباته في نفوس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ... وعندما نلغي هذا المنصب نكون قد قاومنا الإنحراف بانحراف اشد.

ونحن هنا لا ندافع عن العثمانيين ولا عن الملوكية العثمانية فرأينا حتى في الخلافة الأموية والعباسية معروف ... ولكن هذا الرأي لا يعني التخلي عنهما أو نبذهما ، بل هما مع كل ما فيهما من ضلال وانحراف ، حق نحافظ عليه ونعتبره جزءا من حضارتنا .

---

(1) انظر تفصيل ذلك في الفصل القادم الهجوم الماكر .

(2) العرب والترك محمد جميل بيهم ، ص ٨٠ .

ان الإسلام بمبادئه وتنظيماته وشموله لا يرضى بواقع الخلفاء المذل وبما آل إليه الأمر من ضعف وهوان وتخاذل وانحراف ... الا انه أيضاً لا يرضى بالغاء منصب الخلافة وبازالة معالمها من الوجود .

والخلفاء ، هم كما يقول فيهم الامام الحسن البصري (هم يلون من أمورنا الجمعة والفيء والثغور والحدود . والله لا يستقيم الدين الا بهم وان جاروا وان ظلموا والله لما يصلح بهم اكثر مما يفسدون) [٣] .

هناك اذن اعتبارات إسلامية عليا لا يجوز لنا الغاء منصب الخلافة مهما كانت الظروف والأحوال .

ولقد ادرك المسلمون في كل زمان هذا الأمر ... ان خلفاء بغداد كانوا قد خسروا سلطتهم ولا سيما في خارج العاصمة ، ولكن الخلفاء وقتئذ كانوا يحتفظون بسلطة روحية يعترف لهم بها أولئك المتغلبون فضلا عن سائر العالم الإسلامي) [٤] .

وهذا الشعور ، هو نفسه كان سائداً في العالم الإسلامي قبل الغاء الخلافة حتى في أولئك الذين ثاروا مع مصطفى كمال ضد الاحتلال ... فجميعهم كانوا يرفضون حتى مجرد التفكير في الغاء الخلافة فكيف بالالغاء ذاته .

يحدثنا الكاتب الالماني داجوبرت فون ميكوش في كتابه (مصطفى كمال المثل الأعلى) : (ان الذين تعاونوا معه اشترطوا عليه شرطا واحدا على الرغم من ثقتهم به وهو ألا يقوم بعمل من الأعمال فيه مساس بحقوق السلطان أو فيه تجريح لعواطفه وأكدوا له انه ينبغي ان تكون الخلافة فوق كل شيء وان لا تمس السلطنة بضير فأكد لهم ما يريدون لأنه لم يجد مفرا من تقديم هذه التأكيدات) [٥] .

---

(٣) مالك لأبي زهرة حاشية ص ٥٢ .

(٤) العرب والترك ، محمد جميل بيهم ، ص ٦٥ .

(٥) مصطفى كمال ص ٢١٢ عرب هذا الكتاب الى العربية كامل سموئيل مسيحه ونشرته المكتبة الأهلية في بيروت سن ١٩٣٣ وكتب مترجمه عن المؤلف ما يلي : (وقد اعتمد المؤلف الالماني على وثائق عديدة انكليزية وفرنسية وايطالية وتركية كما انه ترجم مذكرات مصطفى كمال ذاتها وقد اعتمد على المعلومات الكثيرة التي جمعها من أصدقائه الأتراك فجاء كتابه تحفة تاريخية نادرة ومثلا أعلى للكتابة بأمانة واخلاص عن سير الرجال والعظماء) ، ص ٥ .

ويشير الكاتب إلى ان قضية الغاء الخلافة كانت امرا منتهيا عند مصطفى كمال ومع ذلك فقد اعطاهم ما يريدون من العهود والمواثيق ...

(ولقد اثارت قضية الخلافة ــ اي الغاؤها ــ اهتمام العالم الغربي بل كان اهتمام الغربيين يفوق ما بدا من المسلمين أنفسهم) (٦) .

الصليبية واليهودية وراء الغاء منصب الخلافة :

والحقيقة :

ان الصليبية العالمية واليهودية كانتا منذ قرون تعملان منفردتين في الداية ومتعاونتين في النهاية للقضاء على هذا الرمز الباهت ، الخلافة الاسمية الإسلامية .

فأوروبا التي انهزمت أمام صلاح الدين الأيوبي استيقظت فجأة على ضربات محمد الفاتح فاهزت وارتاعت وقامت قيامة الغرب فتنادى لاستئناف الحروب الصليبية ثم مان ذاع نبأ موت السلطان الفاتح حتى اعتبرت اولاوبا موته بمثابة السلامة من خطر كان محققا . وبلغ سرورها لهذا الخبر حسب رواية لافالييه Lavallee ان قداسة البابا امر بأن يعتبر يوم وفاة السلطان يوم عيد بأن تقام صلوات الشكر خلال ثلاثة أيام (٧) .

ومن ذلك اليوم ... واوروبا تستأسد يوما بعد يوم ... وتنتظر الفرصة المواتية للانقضاض الأخير .

وفي أثناء الحرب الأولى وبعد ان دخل الجنرال اللنبي إلى دمشق وقف بكل وقاحة أمام قبر صلاح الدين ليقول له : الآن انتهت الحروب الصليبية يا صلاح الدين قمْ فقاتل ...

---

(٦) مصطفى كمال المثل الأعلى ، ص ٣٦٣ .

(٧) العرب والترك ، محمد بيهم ، ص ١٠٢ .

وقبل ذلك ، وعلى ما يبدو ، كانت اليهودية العالمية قد قررت الهاء فلسطين،وتنفيذا لبروتوكولات حكماء صهيون [٨] . وبدا التعاون عميقاً وثيقاً بين اليهودية والصليبية وكانت باريس وسالونيك مركزي هذا التعاون . الخلافة في استانبول انتقاما من السلطان عبد الحميد الذي رفض ان يبيعهم .

ففي باريس نشأت جمعية الإتحاد والترقي وكان لها فروع في برلين وفي سالونيك ... (وكان فرع باريس منظما تنظيما رفيعا وكان برنامجه متطرفا ووسائل الدعاية التي يعتمد عليها قوية متينة وأخيرا استطاع فرع سالونيك ان ينتصر على الفروع الأخرى اذ بدأ اعضاؤه يعدون العدة للثورة .

وكانت المحافل الماسونية ... وعلى الأخص المحفل الايطالي الأكبر في سلانيك ترحب بأعمال هذه الجمعية وتنتصر لها انتصارا أدبيا وكانت الجلسات تعقد في غرف المحافل الماسونية التي يستحيل عل الجواسيس ان يصلوا اليها مهما بذلوا من جهد وكان كثير من اعضاء هذه المحافل مندمجين في جمعية الإتحاد والترقي وبهذه الوسيلة استطاعت الجمعية ان تضاعف عددها وتقوي نفوذها بفضل المعونة التي كانت تتلقاها من (الأحرار) كما ان أعضاء الإتحاد والترقي كانوا ينتفعون بالأساليب الماسونية في الاتصال باستنابول بل في التقرب من القصر ذاته) [٩] .

وخطورة سلانيك تكمن في جماعة الدونمة ... وحتى يعرف من هم يجب ان نسمع إلى محمد جميل بيهم في كتابه الترك والعرب حيث يقول (هذا ويرد

---

(٨) تنبا العالم الروسي سرجي نيلوس الذي نشر بروتوكولات صهيون لأول مرة في روسيا عام ١٩٠٥ بزوال الخلافة في استانبول وقيام الثورة البلشفية في روسيا وانهيار عروش ملكية في اوروبا ــ راجع مقدمة الكتاب للأستاذ محمد خليفة التونسي ص ٣٣ الطبعة الثالثة حيث جاء ما نصه : ومنها نبوءته بسقوط الخلافة العثمانية على ايدي اليهود قبل تأسيس اسرائيل .

(٩) مصطفى كمال المثل الأعلى ص ٥٦ ــ ٥٧ ــ ٥٨ .

بعض المراقبين الفتور الديني الذي بدأ من قبل ويبدوا الآن(*) في الأوساط السياسية التركية إلى جماعة (الدونمة) أولئك الذين تآمروا على السلطان عبد الحمدي الثاني وقاموا في عداد من قام بالانقلاب العثماني باسم (جمعية الإتحاد والترقي) التي استأثرت بالحكم حتى زوال السلطة (والدونمة) هم يهود كانوا يقطنون في ولاية سلانيك اعتنقوا الإسلام بعد الفتح العثماني التماسا للحظة والنفع أسوة بيهود اسبانيا الذين تنصروا في عهد فرديناند واليزابيت هربا من مظالم مجلس التفتيش .

(وقد بقي ولاء الدونمة إلى اليهودية العالمية محفوظا في قلوبهم ابان عهد السلطنة وبعدها وكان يبدو في مناسبات كثيرة ولا سيما في المناسبات التي لها صلة باليهود . وآية ذلك ما حدث منذ نيف وعشرين عاما اثناء انعقاد المؤتمر الصهيوني العالمي في مدينة بال وهي معقل اليهود في أوروبا الوسطى فقد كان رشدي اراس وزير الخارجية التركية يومئذ موجودا في سويسرا فأفضى بحديث إلى مجلة سويسرية لمناسبة هذا المؤتمر جاء فيه : (انه مسلم من ابوين مسلمين ولكنه مع ذلك لا يرى بأسا أن يعلن انه ينحدر من صلب أجداد يهود وانه يعطف على الصهيونية وأهدافها) [١٠] .

ان الأسباب جميعا قد تهيأت ... ولا بد من الرجل القائد ، فكان مصطفى كمال من سلانيك من الدونمة .

يصف مصطفى كمال في مذكراته ، والده فيقول :

(كان .... رجلا حر الفكر يقاوم رجال الدين ويؤيد الأفكار التي تتسرب من الغرب ويتشبث بها فكانت امنيته ان يجدني في عداد تلاميذ مدرسة (عالمية) دنيونية لا (دينية) [١١] .

(*) سنة ١٩٥٧ .

(١٠) العرب والترك ، ص ١٩٨ .

(١١) مصطفى كمال المثل الأعلى ، ص ٧ .

ويقول : (انه كان شديد العناية بأناقة ثيابه . يريد ان يظهر بجلاء للناس انه وان كان ضئيل الثروة فهو جنتلمان لا يقل شأنا عن ارقى الأوروبيين ... وكان من ناحية أخرى يريد ان يعتقد الناس فيه انه اوروبي في مظهره الخارجي كما هو اوروبي في أفكاره وميوله وانه ودع الثياب التركية القديمة) .

اما مصطفى كمال نفسه فقد دخل إلى المدرسة الحربية في استنابول بعد أن كان (ابان العطلات المدرسية في سلانيك يتلقى الدروس الفرنسية سرا؟ من رئيس دير ؟ فرنسي يدير مدرسة وكان يشدد على تلميذه مصطفى ويعتني به عناية خاصة) [١٢] .

فلماذا كان يتلقى الدراسة سرا من رئيس دير يدير مدرسة علنية وما معنى هذه العناية الخاصة ... ثم لماذا انتقل إلى الحربية في استانبول ؟

هذا ما نبأتنا به الأيام فيما بعد ... فقد كان عضوا في الإتحاد والترقي ... ثم اصبح قائدا (غازيا) محررا للبلاد ... ثم اصبح رئيسا .... ثم الغى الخلافة والسلطنة.

بدأ مصطفى كمال حياته العامة بسيطاً ثم ضخمته الأحداث إلى ان استطاع تشكيل مجلس وطني في انقرة التي جعلها مركز نشاطه ومقاومته الإحتلال اليوناني .

وبفضل الدعم الإنكليزي الظاهر والمستتر الف مصطفى كمال حكومة انتقالية وسارعت الدول الغربية للإعتراف بها ــــ مع اعترافهم بحكومة استنابول ــــ ثم دعيت حكومة انقرة للمفاوضات في لوزان .

---

(١٢) المصدر السابق ، ص ١٩ .

ويقال ان كرزون وزير خارجية انجلترا ورئيس وفدها لمؤتمر لوزان المنعقد في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ قد وضع للوفد التركي الذي كان يرأسه عصمت انونو اربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا وهي :

١ ــ الغاء الخلافة الغاء تاما وطرد الخليفة خارج الحدود ومصادرة امواله .

٢ ــ اعلان علمانية الدولة

٣ ــ ان تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الإسلامية الباقية .

٤ ــ ان يستبدل الدستور العثماني القائم على الإسلام بدستور ــ مدني بحت ــ وعلق نجاح المؤتمر على هذه الشروط الأربعة ولذلك انفض المؤتمر في ٤ شباط سنة ١٩٢٢ من غير ان يسفر عن نتيجة واعلن اخفاقه وعاد عصمت إلى تركيا فهرع مصطفى كمال إلى لقائه في (اسكي شهر) حيث عرف منه جميع الأمور [١٣] . وهذه الشروط كانت احدى امنيات مصطفى كمال أو احد الأمور التي كلف بها منذ زمن بعيد.

فمصطفى كمال يرى ــ كما يقول الكاتب الألماني داجوبرت فون ميكوش ــ (ان ضرورة خلق الدولة التركية القومية البحتة ومراعاة تخومها الطبيعية من الأمور الجلية كل الجلاء ... ولكن خطته التي كان ينوي تنفيذها والعمل بها كانت من الجرأة والاقتحام ما يصعب تصوره في ذلك الحين لدرجة ان اضطر مصطفى لاخفاء هذه الأغراض حتى عن رفاقه ؟.

([١٣]) كيف هدمت الخلافة لعبد القديم زلوم ص ١٨١ وقارن به المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام للأستاذ الصواف ، ص ١٧٤ .

(ويعلم الله انه لو كان قد حدث اقرب الناس اليه في ذلك الزمن عن (الجمهورية) مكان (السلطنة) وتكوين الدولة (الدنيوية) مكان (الدينية) لما كانوا لهموه بل كانوا إذا فهموه يأبون حتما ان يتبعوه .. (١٤).

أما وقد ربط مصير تركيا واستقلالها بالغاء الخلافة ... (هذا الشيء الخيالي الذي (لا معنى له ولا مبرر لوجوده) كما يقول مصطفى كمال (١٥) فلا بد من تحقيقه ، اي الغاء الخلافة ، فالاستقلا اهم شيء في الوجود !

وبدأ التحرك ....

فأجرى انتخابات عامة ، وتدخل تدخلا سافرا لتغليب حزبه حزب الشعب على غيره ... حتى إذا عقد المجلس النيابي (١٦) فاجأ الجميع باقتراح اعلان الحكم الجمهوري والغاء السلطنة ... واخذ الأعضاء يظهرون تخوفهم من هذه الخطوة الجريئة ولكنهم وجدوا انهم امام الأمر الواقع وان هذا الهجوم الفجائي قد نجح نجاحا تاما ... وبعد مناقشة صورية ؟ وافق الأعضاء على الحكم الجمهوري ... واستقرت الحالة على ان يكون الإسلام دين الدولة وان يكون مصطفى كمال رئيسا للجمهورية (١٧) .

وحكم مصطفى البلاد حكما مستبدا واصدر قانونا يقضي بالموت على الذي يهاجم الجمهورية ... وراح مصطفى ينسق الخطط لاغاء الخلافة وعلمنة الدولة ...

ولنترك الكلام الآن إلى الكاتب الألماني ميكوش ليصف مرحلة الالغاء ومارافقها :

---

(١٤) مصطفى كمال المثل الأعلى ، ص ١٨٢ .

(١٥) المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .

(١٦) العرب والترك ص ١٧٧ .

(١٧) مصطفى كمال المثل الأعلى ص ٣٦٠ .

الماني يصف مرحلة الغاء الخلافة :

(بعد أن تحولت الدولة إلى جمهورية كان من الضروري ان يبت في قضية الخلافة ووجد الخصوم الذين لم يرتاحوا لاعلان الجمهورية و لم يطمئنوا لازدياد قوة مصفطى كمال ان الأمل الوحيد في التخلص من هذه الحالة انما يكون عن طريق مهاجمتهم لمصطفى كمال من ناحية الخلافة.

(وأخذت الصحف التي تصدر في اسطنبول تقاوم الحكم الجمهوري علنا ووجد مصطفى كمال انه من الضروري ان يعمل على الغاء على الغاء الخلافة قبل ان يصبح فيضان المعارضة السياسية والدينية جارفا يكتسح السد المحكم الذي بناه وعلى الأخص لأن الخليفة كان موضع احترام ٣٥٠ مليون نسمة من المسلمين الذي يقيمون في ممالك متعددة وهو ما لا يعتمد الا على الأتراك الذين كانوا لا يزيدون عن اربعة عشر مليونا ...

(وأعلن مصطفى كمال بكل صراحة ووضوح ان وظيفة الخلافة ليست لها قيمة مادية أو سياسية ولا مبرر لوجودها . الا كأثر من آثار الماضي المظلم ؟!!

(وفي أول آذار اجتمع المجلس الوطني ... وكانت تدور الخطبة الافتتاحية حول ضرورة القضاء على الخلافة .

(وأخيرا استطاع مصطفى كمال ان يفوز في أيام بالنتائج التي لم تتوصل اليها أوروبا الا بعد حروب مائة سنة فصل الكنيسة عن الدولة أو الخلافة عن الدولة .

(أجل ... في اليوم الثاني وافق المجلس الوطني في الساعة السادسة والنصف صباحا على الغاء الخلافة بعد جدال استغرق ساعات الليل كلها وطلب من الخليفة وأفراد اسرته مغادرة البلاد في مدة عشرة ايام وحرم عليهم الاقامة في

تركيا والغيت كل الوظائف الدينية واصبحت اوقاف المسلمين ملكا للدولة ... كما ان المدارس الدينية تحولت إلى مدنية وباتت تحت رقابة وزارة المعارف ...

(وقد أثارت قضية الخلافة اهتمام العالم الغربي بل كان اهتمام الغربيين يفوق ما بدا من المسلمين انفسهم .

(وكان الهنود يؤيدون الأتراك في نهضتهم الوطنية ويدافعون عن قضيتهم في انكلترا لهذا كان احتجاجهم شديدا على الغاء الخلافة وبذلك الجهود الكبيرة لجعل مقر الخلافة الجديد الحاجاز أو مصر ... ولكن ضاعت هذه الجهود عبثا... [١٨] .

(ومنذ ذلك اسفر مصفطى كمال عن وجهه الحقيقي وشرع يوجه الدولة الجديدة شطر العلمانية (التي يؤمن بها) ؟

(ولقد استهل مصطفى كمال عهده بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية وبالغاء وزارة الأوقاف الإسلامية ونظام الوقف والمحاكم الشرعية وقوانينها ثم عمد إلى رفع الحجاب والغاء تعدد الزوجات وأمر بالغاء الطرق الصوفية والتكايا ومصادرة اموالهما وباخلاء جامع ايا صوفيا واعداده في مصاف الآثار القديمة .

ثم وإلى أعماله التجديدية (؟) فمنع الطربوش ودعا إلى استبداله بالقبعة (١٩٢٥) وعدل الدستور لكي يحذف منه العبارة التي تنص ان الإسلام دين الدولة (١٩٢٨) والغى تدريس العلوم الدينية (١٩٢٩) وادخل إلى الجوامع تلاوة القرآن بالتركية وحول الأذان إلى هذه اللغة (١٩٣٢) ورفع من برنامج جامعة استنابول القسم الديني (١٩٣٣) وحظر على رجال الدين الاستمرار على التزيّ بلباسهم القديم (١٩٣٤) الخ ...

([١٨]) مصطفى كمال المثل الأعلى ص ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

(هذا فضلا عن اعلانه المساواة التامة بين الرجل والمرأة في الميراث بالاضافة إلى تبديله الحروف العربية بالحروف اللاتينية وحمله الشعب على تغيير اسمائهم وكناهم بأسماء وكنى ترجع إلى الطورانية وذلك اسوة به اذ اسمى نفسه اتاتورك عوضا عن مصطفى كمال.

يعلق المستشرق الأمريكي ارنولد توينبي (على احداث تركيا الكمالية) بقوله : [١٩]

(ولم يكتنف الأتراك بتغيير دستورهم (وهو شيء سهل نسبياً في مجال الإصلاح الدستوري) . بل قامت الجمهورية التركية الوليدة بخلع المدافع عن الدين الإسلامي ــ الخليفة ــ والغت منصبه ــ أي الخلافة ، وجردت رجال الدين المسلمين وحلت منظماتهم ، وأزالت الحجاب عن رأس المرأة واستنكرت كل ما يرمز اليه الحجاب واجبرت الرجال على ارتداء القبعات التي تمنع لابسيها من اداء شعائر الصلاة الإسلامية التقليدية ، خاصة السجود ، وكنست [٢٠] الشرعية الإسلامية بأكملها وتبنت القانون المدني السويسري بعد ان ترجمته إلى التركية وطبقت قانون الجرائم الايطالي وذلك بفرض هذين القانونين بعد التصويت عليهما في المجلس الوطني ، وغيرت الأحرف العربية بأحرف لاتينية وهذا أمر لا يتم الا بطرح القسم الأكبر من التراث الأدبي العثماني القديم .

(وأهم وأشجع تغيير قام به أولئك الثوريون في تركيا هو ما قدمته للشعب من قيم ومثل اجتماعية جديدة) .

... واعترفت الدول باستقلال تركيا وانسحب الانجليز من استانبول والمضايق وغادر هارنجتون ــ قائد قوات الحلفاء والصديق الحميم (؟) لمصطفى

---

(١٩) الإسلام والغرب تعريب الدكتور نبيل صبحي ، ص ٥٠ الصادر سنة ٩٦٩ .

(٢٠) هذا هو تعبير المستشرق !!

كمال ـــ تركيا وعلى أثر ذلك احتج احد النواب الانكليز على كروزن ـــ وزير خارجية الانجليز ـــ في مجلس العموم لاعترافه باستقلال تركيا فأجابه كرزوق قائلا [٢١] :

القضية ان تركيا قد قضي عليها ولن تقوم لها قائمة لأننا قد قضينا على القوة المعنوية فيها. الخلافة والإسلام [٢٢] .

وهكذا انتصر الغرب على الشرق وزالت الخلافة الاسمية (؟) من الوجود بعد ان دالت دولة الإسلام عبر الزمن والقرون ..

فهل من بعث جديد ؟

(وتلك الأيام نداولها بين الناس)

(وليس ذلك على الله بعزيز) .

([٢١]) كيف هدمت الخلافة ، ١٩٠ .

([٢٢]) خاب ظنهم عاد الإسلام يزحف من جديد الى قلوب الأتراك ومؤسساقم !؟ انظر الحركة النورسية في تركيا في فصل المجاهة من هذا الكتاب .

الفصل السادس

الهجوم الماكر

منذ مطلع الإسلام ، وأعداء الإسلام يشنون عليه الخجوم تلو الهجوم بمختلف الأسلحة والأساليب ... وفي كل معركة خرج هذا الدين منتصرا مثبتا اصالته واستعلاءه ومحيطا مؤتمرات المهاجمين ، القاضية باجتثاث جذوره من الأرض والقضاء عليه في الوجود.

فبعد عبد الله بن سبا اليهودي الماكر وفتنته الكبرى تعرض التصور الإسلامي لهجمات مقنعة من الفلسفة الاغريقية فاضطرب ايمان بعض الناس والمفكرين بما فيهم الامام الحجة ابي حامد الغزالي حتى قذف الله في قلبه النور فبدد حجب الجاهلية الجديدة ورد على الفلسفة والمتفلسفين [٢٣] .

الحملات الصليبية بين أهدافها ومجاهدتها :

وفي أواخر القرن الخامس الهجري حيث كانت الدولة العباسية على ما وصفنا من ضعف وتجزئة هبت أوروبا ملبية نداء البابا [٢٤] للغزو الصليبي ، لما استنفرها ، وقذفت بلادنا بمئات آلاف من ابنائها رافعين الصليب مرددين صيحة واحدة : ان الله يريدها [٢٥].

([٢٣]) راجع التاريخ الإسلامي للدكتور شلبي وكتاب الماسونية وكتاب المنقذ من الضلال للإمام الغزالي .

([٢٤]) هو البابا اربان الثاني . وجاء في الموسوعة الميسرة مادة الحروب الصليبية ص ٧٠٩ ما نصه : (وقد كان دافع الحروب الصليبية المباشر هو الموعظة التي القاها اربان الثاني في مجمع كارمونت سنة ١٠٩٥ وحث فيها العالم المسيحي على الحرب لتخليص القبر المقدس من المسلمين ووعد المحاربين بأن تكون رحلتهم الى الشرق بمثابة غفران كامل لذنوبهم كما وعدهم بهدنة عامة تحمي بيوتهم خلال غيبتهم . راجع ايضا كتاب العرب لفيليب حتي ص ٢١٨ حيث يقول عن البابا (انه استنهض همم المؤمنين لسلوك الطريق المؤدية الى كنيسة القيامة وانتزاعها من أيدي القوم الأشرار والاستيلاء عليها) .

([٢٥]) أي ان الله هو الذي اراد الحرب الصليبية . انظر حاشية كتاب التبشير والاستعمار في البلاد العربية للدكتورين خالدي وفروخ ص ٣٣ وقارن بها قول الأب نسانتور رئيس الكلية اليسوعية في بيروت الذي قال : (ليس من احد يستطيع ان يمنع تلك الروح ان تعيد على آذاننا قولها بالأمس وصرخة اسلافنا الصليبيين من قبل : ان الله يريدها) . انظر ايضا كتاب العرب للدكتور فيليب حتي ص ٢١٨ (وللحال تنادى الفرنجة الى الحرب صارخين انها ارادة الله) فرددت بلادهم هذه الصرخة وتجاوبت اصداؤها في كل ناحية فملكت جو مع القلوب) .

ونزلت جموع الصليبيين الوافدين من أوروبا بأرض الشام واستطاعت ان تقطع الأجزاء الساحلية وفلسطين وان تقيم فيها اربع امارات لاتينية (٢٦) ويمكن لنا ان نلخص اهداف الحملات الصليبية في هدفين كبيرين :

أولهما : اذلال المسلمين بغزوهم في عقر دارهم (٢٧) .

ثانيهما : اقامة امارة أو امارات صليبية وخاصة في فلسطين تدوم إلى الأبد وتتوسع حتى تقضي على الإسلام والمسلمين (٢٨) .

وبدأت حروب الجهاد والتحرير من قبل المسلمين وقيض الله لهم عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ (الذي قارع الصليبيين وهزمهم في معارك كثيرة وفتح الرها وقام بعده ولده العظيم الملك العادل نورد الدين محمود زنكي ٥٦٩ وصمم علت اجلاء الصليبيين من الشام واسترداد القدس للمسلمين ومات رحمه الله قبل ان يكمل مهمته وخلفه في ذلك احد رجاله وحاشيته الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب ملك مصر وهو الرجل الذي هيأه الله لهذه المهمة العظيمة وجمع فيه من خصال الحزم والعزم والاخلاص والتجرد للغاية والحرص على الجهاد والتفاني في سبيله وعلو الهمة في نصر الإسلام وقتال اهل الكفر والبغي وحسن القيادة وقوة التنظيم والصلاح والديانة والفتوة والإنسانية ومكارم الأخلاق ما لا يجتمع الا في افذاذ الرجال في العالم فكان بذلك معجزة من معجزات الإسلام ودليلا على ان الإسلام لم ينته دوره ولم يفقد الحيوية والإنتاج .

---

(٢٦) قصة الكفاح بين العرب والاستعمار للستاذ سعيد العريان وجمال الدين الشيال ، ص ١٧ .

(٢٧) (ما غزي قوم في عقر دارهم الا ذلو) رواه

(٢٨) يقول غاردنر : (لقد خاب الصليبيون في انتزاع القدس من أيدي المسلمين ليقيموا دولة مسيحية في قلب العالم الإسلامي ... والحروب الصليبية لم تكون لانقاذ هذه المدينة بقدر ما كانت لتدمير الإسلام) راجع التبشير والاستعمار ص ١١٦ .

ووقف العالم المسيحي وقفة رجل واحد ازاء المسلمين ولكنه لم يستطع ان يزحزح صلاح الدين عن مكانه ، كان جيش صلاح الدين قد أعياه الجهاد الطويل والمتاعب العظيمة . فقد ظل اعواما طوالا مرابطا مناضلا مكافحا قويا ولكن لم يسمع من جندي واحد انين أو شكاة انهم لم يتأخروا يوما في الحضور ولم يضنوا قط بالنفائس والنفوس كلما دعاهم صلاح الدين إلى الجهاد ولكما استنفرهم للقتال (٢٩) .

ويتعاقب على حلبة الجهاد والكفاح أبطال غرميامين قطز وبيبرس وقلاوون ويقوم كل منهم بدوره في تسديد الضربات إلى قلب الصليبي المنتحر ... وينتصر الإسلام في صراعه ضد الصليبية الماكرة (٣٠) وتعود هذه تجر ذيول العار والهزيمة من حيث جاءت خائبة حسيرة .

موالاة بين الصليبية المندحرة والوثنية المتقدمة :

وبعد هجوم الصليبية على الإسلام كان هجوم الوثنية ... فها هي جحافل المغول والتتار تزحف من اقاصي الشرق تهدر بقوى بشرية عاتية ... وتسقط بغداد ٦٥٦ هـــ وينشر فيها هؤلاء الزاحفون الدمار والخراب ويفتكون بمئات الالاف ...

في هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ الدنيا ... ينعقد الحلف والموالاة بين الصليبية المهزومة وبين لاوثنية المتقدمة ... والهدف : القضاء على الإسلام . فقد صادف تقدم المغول بقاء بعض الأجزاء من ديار الإسلام في بلاد الشام تحت نير

---

(٢٩) ماذا خسر العالم ص ١٣٠ ـــ ١٣٣ نقلا عن تعليق للمؤرخ الانكليزي .

(٣٠) قارن بين حقائق التاريخ هذه وبين ما أثبتته محاضرات التعليم الديني لاتحاد مؤسسات لاتعليم المسيحي في باريس طبعة ١٩٢٨ ولاتي نالت رضا البابا ليون الثالث عشر تقول هذه المحاضرات (ها هي النصرانية تضع بسيف شارل مارشل سدا في وجه سير الإسلام المنتصر عند بواتيه ٧٥٢ م ثم تعمل الحروب الصليبية في مدى قرنين تقريبا ١٠٩٩ ـــ ١٢٥٤ في سبيل الدين فتدجج اوروبا بالسلاح وتنجي النصرانية وهكذا تقهقرت قوة الهلال امام راية الصليب وانتصر الانجيل على القرآن وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق السهلة) راجع كتاب التبشير والاستعمار ص ٦٨ ـــ ٦٩ .

الصليبيين وكأن هؤلاء خطر الوثنية على الدنيا بما فيها صليبيتعم .. (واعمى حب الثأر (عيونهم) عن الكارثة التي تتهددنا وتتهددهم فاسلوا إلى المغول يحالفونهم ويآمرونهم على الايقاع بنا [٣١] .

ذكر محمد جميل بيهم في كتابه العرب والترك [٣٢] انه (لما قضت الحملة المغولية وطرها من الدولة العباسية واصلت الزحف إلى الأمام حتى بلغت شواطئ البحر المتوسط في بلاد الشام . غير انها لم تتعرض للبقية الباقية من المناطق التي كانت لا تزال في حوزة الصليبيين بالشام ، وأهمها انطاكية ويافا وعكا . ويرجع ذلك ال ما كان بين المغول والصليبيين من العلاقات الطيبة وما تخللها من مفاوضات كان قداسة البابا يتولاها للاتفاق معا على المسلمين ..)

...إلا أن (عين جالوت) كانت القول الفاصل في كل شيء ... في الوثنية الزاحفة وفي لاصليبية المتآمرة المولية ...

وأذن الله ـــ سبحانه ـــ أن يرفع المسلمون من جديد على ربى وادي بيسان بفلسطين في الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨ هـــ رايات لانصر على هامات الأعداء وثنيين وصليبيين ...

بيد أن أوروبا بعد حرب القرنين وبعد هزيمتها المنكرة في حربها ضد المسلمين وبعد إخفاقها في تحقيق اهدافها الصليبية عادت ، من جديد ، تفكر بهجوم آخر وبأسلحة أخرى وبأساليب أخرى ... وكان امام البابا سلسلتين الخامس احد طريقين :

([٣١]) قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ٩٦ .

([٣٢]) العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ص ٧٤ وايضا كتابه فلسفة التاريخ العثماني .

أولهما : ما عرضه الصليبي المبشر رامون لل وتتخلص خطته بغزو المسلمين تبشيريا ويتوسل لذلك بالعلم والمدارس فإذا فشلت يلجأ عندئذ لأسلوب القوة في تنصير المسلمين (٣٣) .

ثانيهما : تنصير المغول واستخدامهم ، من جديد ن في حرب طاحنة ضد المسلمين.

ووجد البابا ان النهج الثاني افضل وأقرب خاصة وان الصليبيين كانوا قد اقاموا صلات مباشرة مع المغول اثناء زحفهم على الشرق . فيمكن والحالة هذه ، ان يفتح المغول قلوبهم للتنصير ويبدأ عهد جديد من تعاون فعال هادف بين أوروبا واقاصي الشرق وتصبح عندئذ المنطقة الإسلامية في فكي كماشة . ويغدو النصر والتنصير قريبي المنال ...

(ومهدت الكنيسة زمنا طويلا لتنصير المغول) (٣٤) الا ان جهودها ذهبت ادراج الرياح ... وانقلبت الأوضاع رأسا على عقب وتبدل الموقف ... فهؤلاء المغول ، محط الآمال ، الزاحفون على الشرق المسلم ، يعتنقون الإسلام طواعية ومن تلقاء انفسهم ... عند ذلك (زال أمل كبير من آمال الدول الغربية للسيطرة على الشرق عن طريق الدين) (٣٥) .

تغير المواقف واعلان لل التبشيرية

وأحبطت خطة البابا الصليبية من جديد وتبدل الموقف بسرعة وعادت أوروبا تتلقى ضربات شدادا من المسلمين بقيادة محمد الفاتح فطار صواب البابا وحار في مره وبدأ ينتظر ساعة الخلاص حتى انه لم يتردد بإقامة صلوات الشكر

---

(٣٣) التبشير والاستعمار ص ٧٣ و٧٤ .

(٣٤) المصدر السابق ص ١١٧ نقلا عن اديسون .

(٣٥) المصدر نفسه ص ١١٧ .

ثلاثة ايام عندما علم بوفاة هذا الفاتح العظيم واعتبر يوم موته عيدا رسميا يحتفل به (٣٦) .

اقتنعت أوروبا وعلى رأسها البابا بفعلاية الخطة الأولى التي عرضها لل عام ١٢٢٩ ولاقاضية بوجوب غزو المسلمين تبشيريا عن طريق العلم والمدارس ... خاصة وان علاقة قد نشأت وتوطدت بين الصليبيين وبين طائفة من اهل الشرق وهم موارنة لبنان (٣٧) فلربما كان بالامكان ان يصلوا عن طريقهم إلى ما تصبوا اليه نفوسهم ، ويحققوا بواسطتهم ما عجزوا عنه بواسطة المغول الوثنيين .

للهجوم محاور ولكل محور اسلوب ومنهاج :

(٣٦) كتاب العرب والترك لمحمد بيهم ص ١٠٢ .

(٣٧) يقول الاستاذ ميشال غريب في كتابه الطائفين والاقطاعية في لبنان ص ٣٤ ، ٣٥ ما نصه : (ترجع علاقة الاوروبيين بلبنان الى عهود الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر اذ كان موارنة لبنان لا يقفون في وجه الجيوش الصليبية الزاحفة الى القدس بل كانوا على العكس يمدونهم بكل عون ومساعدة ، بالعتاد والرجال وكان ذلك طبيعيا للموارنة . اذ كانوا يقاسون حالة من الفوضى السياسية لا تطاق (من العجيب ان يذكر المؤلف الاستاذ غريب هذا وكان في الصفحات ١٨ و١٩و ٢٠ من كتابه نفسه قد اثبت حسن معاملة المسلمين عبر التاريخ للنصارى وخاصة في عهد صلاح الدين الأيوبي حتى انه استشهد ببيتين من الشعر لأحد الشعراء قال فيها :

فاق دين المسيح في دولة العادل حتى علا على الأديان

ذا أمير وذا وزير وذا وال وذا مشرف على الديوان)

فرحبوا بالصليبيين احسن ترحيب لانسجامهم واياهم بالدين والمعتقد وتوطدت بينهم أطيب العلاقات واستغل الفرنج هذا الال فجعلوا للماروني المكانة المرموقة في الدول التي انشؤها وميزوهم عن سواهم بالرتب والنعم وزادوا في اضطهاد المحمديين والتنكيل بهم وهذا ما ويجمع عليه كبار المؤرخين نذكر منهم الاستاذ اديب فرحات الذي يقول في مؤلفه عن تاريخ لبنان وقد ساعد مردة لبنان الصليبيين كثيرا فإن أميرهم يوحنا ارسل ولده سمعان بنجدة لا تقل عن خمسة وعشرين الف مقاتل لنصرة لويس التاسع ملك فرنسا الذي وافى عكا لينجد الافرنج سنة ١٢٥٠ فرحب بهم الملك لويس واكرمهم وحملهم رسالة الى بطريرك الموارنة واساقفتهم يصرح فيها بأنه اتخذ طائفتهم المارونية تحت حمايته اما العلامة الدكتور فيليب حتي فيذكر في مؤلفه الكبير .لنبان في التاريخ) .. ما يلي : وحسب تقليد الموارنة فإن لويس التاسع كان أول صديق فرنسي لهم تقول الرواية انه عندما نزل الى لابر في عكا تقدم اليه وفد مؤلف من خمسة وعشرين الف ماروني ومعهم المؤن والهدايا وفي هذه المناسبة سلمهم رسالة مؤرخة في ٢١ ايار سنة ١٢٥٠ فيها تصريح بأن فرنسا تتعهد بحمياتهم يقول في هذه الرسالة ونحن مقتنعون بأن هذه الأمة التي تعرف باسم القديس مارون هي جزء من الأمة الافرنسية .

والحقيقة أن أوروبا في حربها الجديدة ضد المسلمين لم تعتمد محورا واحدا في الهجوم الماكر . ففضلا عن اسلوب التبشير المعروف بخطة لل فقد ضربت بكل فكرة ظهرت فيها ، بلاد المسلمين ، وجعلتها محورا في صراعها مع الإسلام .

إن أوروبا التي لفظت الكنيسة وآمنت في بعض المجالات بقيم الحادية [٣٨] تعاونت باخلاص مع الكنيسة ومع الالحاد ومع القيم الجديدة ومع كل شيء في سبيل تأمين نصرها في هجومها الماكر الجديد . (فهي قد علمت ، بشكل قطعي ، ان للإسلام فاعلية وحركة تؤهلاه دائما لرد الهجوم وللقيام بهجوم مضاد ولتحوي الهزيمة إلى نصر كاسح .

يقول لورانس براون : (لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة ولكننا بعد اختبار لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف ، لقد كنا نخوف من قبل (بالخطر اليهودي [٣٩] والخطر الأصفر ، وبالخطر البلشفي الا ان هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه . اننا وجدنا اليهود اصدقاء لنا وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الأكبر ثم رأينا ان البلاشفة حلفاء لنا [٤٠] اما الشعوب الصفر فهناك دول ديمقراطية كبرى تقاومها . ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قوته على التوسع والاخضاع وفي حيويته : انه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي [٤١]) هذه الحيوية هي التي تخشاها أوروبا ، أو كما يقول غاردنر [٤٢] (ان القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا) .

([٣٨]) راجع الفصل الأول من هذا الكاتب .

([٣٩]) اسم كتاب ظهر في اوروبا في مطلع القرن العشرين ويعرف هذا الكتاب ايضا : ٠برتوكاولات حكماء صهيون) .

([٤٠]) أصدر المؤلف لورانس براون كتابه عام ١٩٤٤ ابان الحرب العالمية الثانية (من حاشية كتاب التبشير والاستعمار ص ١٨٧) .

([٤١]) التبشير والاستعمار ص ١٨٧ .

([٤٢]) المصدر السابق ، ص ٣١ وغاردنر هذا هو احد المبشرين الصليبيين.

فالصراع اذن عنيف وخطير فلا بد من احكام الهجوم وتكثير المحاور حتى إذا فشل محور انتصر آخر .

ومن هنا تعددت محاور الهجوم الماكر حتى كاد الباحث يعجز عن تحديدها وتبينها واتخذ كل محور في التحرك والعمل ، اسلوبا ومنهاجا ، يختلف عن شكل وموضوع المحور الآخر ... ولقد دقَّ الهجوم في بعض المحاور بشكل استساغه كثير من المسلمين فسالموه وهادنوه ثم عملوا معه حتى غدوا هم انفسهم جنود هذا المحور في هجومه الماكر ضد الإسلام وضد حركته وحيويته وفاعليته .

واننا ، وفي سبيل الدراسة الموضوعية ، نصف محاور هذا الهجوم الماكر إلى ما يلي:

اولا : محور التبشير والاستشراق

ثانيا : محور الجمعيات والأحزاب

ثالثا : محور الإتجاهات الفكرية الحديثة

رابعا : محور محاربة الإتجاه الإسلامي والتشكيك به .

محور التبشير والاستشراق

يظن البعض أن الاستشراق جهد فكري لا صلة له بالتبشير وانه يقوم اساسا على البحث العلمي والدراسة الموضوعية .

والحقيقة ان (هذا الظن) لا يغني عن الحق شيئا ... ولو انه ينطبق إلى حد ما ، على بعض المستشرقين ، وهم قلة على كل حال ، وشذوذ على القاعدة ، فالمستشرقون ، صنوا المبشرين ، ونسخة مماثلة عنهم بل ربما كانوا أخطر منهم ، اذ تزيوا بزي البحث العلمي والموضوعي ونفوا عن أنفسهم الصفة التبشيرية

والتعصبية فاغتر بهم المفتنون بكل شيء مسدول عليه ــ ولو كذبا وزورا ــ الستار العلمي .

إن محور التبشير والاستشراق اقدم المحاور ، على الاطلاق ، في الهجوم الفكري على الإسلام . ويعود تاريخ الاستشراق في بعض البلدان الأوروبية إلى القرن الثالث عشر الميلادي وربما كانت هناك محاولات فردية قبل ذلك والسبب الرئيسي المباشر الذي دعا الأوروبيين إلى الاستشراق هو سبب ديني في الدرجة الأولى فقد تركت الحرب الصليبية في نفوس الأوروبيين ما تركت من آثار مرة عميقة . ومن جهة أخرى رغب المسيحيون في التبشير بدينهم بين المسلمين فأقبلوا على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وارسالهم إلى العالم الإسلامي .

(وبجانب هذا وذاك كان هناك أسباب أخرى فرعية لنشأة الاستشراق أسباب تجارية وأسباب سياسية دبلوماسية وأسباب شخصية مزاجية) [٤٣] .

ان للحروب الصليبية اثرا كبيرا في ابتكار هذا المحور ... فهؤلاء الغزاة ،بعد احتكاكهم بالمسلمين وبعلومهم ومعارفهم ، وجدوا من المفيد لهم لهجمات قادمة ، دراسة اوضاع الشرق الإسلامي ونقل علومه ... وأدت هذه إلى عملية الاستشراق من جهة وإلى التبشير من جهة أخرى .

أهداف محور التبشير والاستشراق :

ويمكن تحديد أهداف هذا المحور بما يلي :

الهدف الأول : تشكيك المسلمين بإسلامهم وعقيدتهم وثقافتهم والحيلولة دون تجمعهم واتحادهم :

---

(٤٣).الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي الدكتور محمد البهي ص ٥٢٢ ــ ٥٢٣ .

يقول الدكتور زويمر في خطابه امام المبشرين (ان مهمتكم ان تخرجوا المسلمين من الإسلام ليصبحوا مخلوقات لا صلة لها بالله وبالتالي لا صلة لها بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها [٤٤] .

ويقول المبشر تكلي : (يجب انشاء المدارس وان نشجع على الأخص التعليم الغربي ، ان كثيرين من المسلمين قد زعزع اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الانكليزية . ان الكتب المدرسية الغربية تجعل الإعتقاد بكتاب شرقي مقدس أمراً صعباً جداً [٤٥] .

(ومن المبشرين نفر يشتغلون بالآداب العربية والعلوم الإسلامية أو يستخدمون غيرهم في سبيل ذلك ، ثم يرجون كلهم مما يكتبون ، ان يوازنوا بين الآداب العربية والآداب الأجنبية وبين العلوم الإسلامية والعلوم الغربية والتي يعدونها نصرانية لأن أمم الغرب تدين بالنصرانية ليخرجوا دائما بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية الإسلامية وبالتالي إلى ابراز نواحي النشاط الثقافي في الغرب وتفضيلها على امثالها في تاريخ العربِ والإسلام وما غايتهم من ذلك الا خلق تخاذل روحي وشعور بالنقص في نفوس الشرقيين وحملهم من هذه الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية المادية الغربية [٤٦] .

ويعترف المبشرون بأن التبشير الرسمي واكتساب المسلمين إلى صفوف النصرانية قد خاب من أجل ذلك فنع هؤلاء المبشرون ان يكون عملهم الإنساني قاصرا على زعزعة عقيدة المسلمين على الأقل [٤٧] .

([٤٤]) من خطاب زويمر في المؤتمر التبشيري في القدس نقلناه عن مقال في جريدة الشباب البيروتية الصادرة في ١٥/٧/ ١٩٧٠ .

([٤٥]) التبشير والاستعمار ، ص ٨٧ .

([٤٦]) المصدر السابق ، ص ١٧ .

([٤٧]) التبشير والاستعمار ص ٤١ ، ٤٢ .

وصرح رئيس الجامعة الأميركية في بيروت المستر بنروز ان المبشرين يمكن ان يكونوا قد خابوا في هدفهم المباشر وهو تنصير المسلمين جماعات الا انهم قد احدثوا بينهم آثار نهضة ... [٤٨] .

وأكثر أعمال المستشرقين تنصب في هذا الهدف وتكاد تحقق فوزا كبيرا ...

وقال لورانس براون (إذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن ان يصبحوا لعنة لعى العالم وخطرا وأمكن ان يصبحوا أيضاً نعمة له اما إذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير) .

وقال القس سيمون (ان الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوروبية) .

وقالوا : (يجب ان نحول بالتبشير مجاري التفكير في الوحدة الإسلامية حتى تستطيع النصرانية ان تتغلغل في المسلمين) [٤٩] .

الهدف الثاني : اختيار بعض الأشخاص وتعهدهم والايحاء لهم بخلق اتجاهات معادية للإسلام بغية زعزعة عقائد المسلمين :

قال حنا ميللكان (ان للمدارس قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي اكثر من كل قوة أخرى . ثم ان هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوما ما قادة في أوطانهم) [٥٠] .

وجاء في كتاب التبشير والاستعمار (فلما اعتقدوا ان لا قدرة لهم على جعل المسلم نصرانياً أحبوا أن يجعلوا الآراء المسيحية تتسرب إلى المسلمين وإلى

---

[٤٨] المصدر السابق ، ص ٤١ .

[٤٩] التبشير والاستعمار ، ص ٣٢ .

[٥٠] التبشير والاستعمار ، ص ٦٢ .

المثقفين منهم خاصة . ثم انهم اعتقدوا ان هذه الآراء تتسرب بعدئذ من تلقاء نفسها إلى المجتمع الإسلامي . هذه الفكرة هي التي اقنعت المبشرين بضرورة انشاء المعاهد العالمية في البلاد الإسلامية .

(وكذلك كان للمبشرين غاية أخرى من التعليم العالي هي ان يؤثروا في قادة الرأي في البلاد وفي الجيل الناشىء في الشرق الأدنى خاصة ذلك التأثير الذي لا يمكن ان يحقق إذا لم يكن ثمة تعليم عال) [٥١] .

ولقد رأينا في الفصل السابق [٥٢] كيف ان رئيس دير في سلانيك في تركيا كان يولي مصطفى كمال عناية فائقة ويهتم به ويعلمه (سرا) ؟ اللغة الفرنسية .

الهدف الثالث : تنصير المسلمين :

وهو الهدف الذي انطلق منه هذا المحور الخطر [٥٣] ومن أجله وضعوا الدراسات واستخدموا أكثر الوسائل ـــ التي سنعددها فيما بعد ـــ

يقول كريستين واركوس ان الوسيلة التي تأتي بأحسن الثمار في (تنصير) المسلمين انما هي تعليم اولادهم الصغار ...وبينما كان المبشرون المؤتمرون في القاهرة في نيسان ١٩٠٦ يعترفون ضمنا بصعوبة التبشير وان التبشير كان إلى ذلك الحين فرديا يتناول الفرد بعد الفرد وانهم يأملون ان يصبح التبشير اجماعيا يتناول جماعات بقضها وقضيضها إذا بهم في مؤتمر بيروت غير الرسمي عام ١٩٩١ يقررون ان يبدأوا تنصيرا بين المسلمين مباشرا يسير في سوريا وفلسطين خاصة بهدوء وبوسائل مختلفة ولا يجد المبشرون حرجا في ان يعلنوا ان نشر الدستور

---

(٥١) المصدر السابق ن ص ٧٦

(٥٢) راجع فصل كيف دالت ولة الإسلام .

(٥٣) رجع ما كتبناه في مقدمة هذا الفصل .

العثماني قد جعل التنصير المباشر اكثر امكانا وسهولة من أجل ذلك قرروا أن يجددوا جهودهم وان يسيروا بأعمالهم إلى الأمام (٥٤) .

ويصرح الأب نسانتور رئيس الكلية اليسوعية في بيروت أيام الإنتداب (ويأتي المبشر تحت علم الصليب ... يحلم بالماضي وينظر إلى المستقبل وهو يصغي إلى الريح التي تصفر من بعيد من شواطئ رومية ومن شواطئ فرنسية وليس من أحد يستطيع ان يمنع تلك الريح من ان تعيد على آذاننا قولها بالأمس وصرخة اسلافنا (الصليبيين) من قبل : ان الله يريدها (٥٥) .

الهدف الرابع : دراسة التطور الفكري والسياسي في المنطقة ، للتعديل في وسائل هذا المحور ولامداد المحاور الباقية بأسباب الحياة والتقدم .

نشرت مجلة العالم الإسلامي (٥٦) خلاصة مقال كتبه الاستاذ ادوار ميدايرل احد اساتذة التاريخ في جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة لمجلة (الشؤون الخارجية) (٥٧) عنوانه : الارساليات الاميركية في الشرق الأدنى جاء فيه :

ماذا يمكن أن يقال الآن عن أعمال التبشير الأميركي في الشرق الأدنى بعد قرن كامل من الدهر ؟ يمكننا ان نحشد احصاءات هائلة بملايين الدولارات بألوف النفوس التي ضحت في هذا السبيل ولكن هذه أيضاً ليست هبة كافية توازي النتائج التي حققت على أيدي الارساليات الأميركية والمبشرين الأميركيين في هذا المركز المهم من الشرق ... ان نفراً من هؤلاء الرجال والنساء امثال سيرس هملن ودانيال بلس (أول رئيس للجامعة الأميركية في بيروت) وماري

(٥٤) التبشير والاستعمار ، ص ٤٧ .

(٥٥) التبشير والاستعمار ، ص ٣٣ .

(٥٦) مجلة تصدر في هارتفورد بالولايات المتحدة .

(٥٧) ان مجلة الشؤون الخارجية من المجلات الرصينة في الولايات المتحدة وهي تبحث في الشؤون الاجتماعية الدولية من ناحيتها العلمية والقانونية؟.

ميرنا زبك كانوا علماء وضباط ارتباط بين الشرق والغرب وكذلك كان نفر منهم معلمين كبارا أو اطباء محبوبين يشترط فيهم طول الأناة والصبر ان جميع هؤلاء قد حملوا من اميركا جرأة نادرة ... لولاها لما امكن كتابة الجزء الأوفر من تاريخ الجهود الأميركية في الشرق الأدنى ولكن الجرأة وحدها ليست كافية كما ان الوقت لم يحن بعد للحكم على قيمة ما حققه المبشرون عموما (٥٨) .

ومن أجل هذا الهدف نرى المؤتمرات تعقد بين حين وآخر لدارسة المشروعات ولوضع الخطط . ومن هذه المؤتمرات :

مؤتمر القاهرة ١٩٠٦ .

مؤتمر ادنبره (في اسكوتلنده) ١٩١٠ ، اصدر تقريرا عن النواحي المختلفة التي يجب ان يهتم لها المستشرقون تم طبعه في عشرة مجلدات (٥٩) .

مؤتمر بيروت ١٩١١ .

مؤتمر القدس ١٩٢٨ بقي مجتمعا اسبوعين (٢٣ آذار إلى ٨ نيسان) ووضع تقريرا في ثمانية مجلدات (٦٠) .

مؤتمر القدس ١٩٣٥ .

ومن كتب الدراسات لتطور التفكير في منطقة الشرق الأوسط كتابان ظهرا حديثا وهما (الغرب والشرق الأوسط) و(الإسلام والعرب والمستقبل) للمستشرق الأميركي ارنولد توينبي ، عربهما الدكتور نبيل صبحي وفيهما يسلط

---

(٥٨) التبشير صفحة ١٦ .

(٥٩) المصدر السابق ١٢ وكان يضم المؤتمر ١٢٠٠ عضوا منهم ٠روزفلت) رئيس جمهورية امريكا السابق لكنه ارسل يعتذر عن عدم تمكنه من الحضور والباقون من مختلف الدول وكلهم من كبار رجال المسيحية في العالم راجع المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام للأستاذ محمد محمود الصواف صفحة ٢٦٢ .

(٦٠) المصدر السابق .

الكاتب الأضواء على اكثر الإتجاهات الفكرية في المنطقة ... وللمستشرقين باع طويل في تحقيق اغراض هذا الهدف .

* * *

وسائل محور التبشير والاستشراق

اما وسائل هذا المحور في هجومه الماكر على الإسلام فهي :

الوسيلة الأولى : التعليم في الروضات والمدارس والكليات والجامعات .

يقول هنري حبيب ــ وهو اكبر المبشرين الذين عرفهم الشرق الإسلامي ــ ان التعليم انما هو واسطة إلى غاية فقط في الارساليات المسيحية . هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا افرادا مسيحيين وشعوبا مسيحية ولكن حينما يخطو التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية في نفسه وليخرج لنا خيرة علماء الفلك وطبقات الأرض وعلماء النبات وخير الجراحين والأطباء في سبيل الزهو العلمي ... فإننا لا نتردد حينئذ في أن نقول : ان رسالة مثل هذه قد خرجت عن المدى التبشيري المسيحي إلى مدى علماني ، محض إلى مدى علمي دنيوي ، مثل هذا العمل يمكن ان تقوم به جامعات هابدلبرغ وكمبردج وهارفرو وشيفيلد لا الجامعات التبشيرية التي تسعى إلى اهداف روحية فحسب [٦١] .

جاء في كتاب اليسوعيون في سوريا (ان المبشر الأول هو المدرسة) [٦٢] من أجل هذا سلك المبشرون الطرق التالية :

١ ــ اكثروا من المدارس وخاصة روضات الأطفال وقالوا (ان الوسيلة التي تأتي بأحسن الثمار في تنصير المسلمين انما هي تعليم اولادهم الصغار).

([٦١]) التبشير ص ٦٢ .

([٦٢]) المصدر السابق ص ٦٦ .

ورياض الأطفال ، مثلا ، مهمة جدا ، لأن التعليم الديني في هذه المدارس يجعلها بابا مفتوحا للتبشير وللتأثير في عقول الأطفال الغضة ... وكذلك التعليم الابتدائي وسيلة ثمينة للتبشير [٦٣] .

٢ ــ قالت المستشرقة انا ميلفان في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشوات وبكوات ، وليس ثمة مكان آخر يمكن ان يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي وليس ثمة طريق إلى حسن الإسلام اقصر مسافة من هذه المدرسة [٦٤] .

٣ ــ اختاروا المدرسين والمعلمين واشترطوا في المعلم ان يكون اجنبيا غير وطني اما إذا دعت الحاجة إلى معلم وطني فليكن مسيحيا في الدرجة الأولى ولكن يجب ان يكون متمرنا على التبشير [٦٥] وظهر تعاون المستشرقين والمبشرين في المناصب الكبرى في الجامعات .

٤ ــ وضعوا كتبا خاصة بهم لمختلف حقول التعليم وسخروها جميعا للدس على الإسلام واحالوا الطلبة على مراجع تبشيرية واستشراقية تنضح بالسم .

٥ ــ اجبروا الطلاب المسلمين على دخول الكنيسة والاستماع إلى مواعظ الأحد والقيام بالطقوس المسيحية وعندما احتج الطلاب على ذلك لم يتردد عمدة الجامعة الأميركية سنة ١٩٠٩ من اصدار بيان جاء في مادته الرابعة :

(ان هذه الكلية مسيحية اسست بأموال شعب مسيحي هم اشتروا الأرض وهم اقاموا الأبنية وهم انشأوا المستشفى وجهزوه ولا يمكن للمؤسسة ان تستمر

---

(٦٣) المصدر السابق ص ٧٥ و ٧٦ .

(٦٤) من مقال في جريدة الشهاب البيروتية الصادرة في ١٥ تموز ١٩٧٠ .

(٦٥) التبشير ص ٦٦ .

إذا لم يسندها هؤلاء . وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليما يكون الانجيل من مواده ، فتعرض منافع الدين المسيحي على كل تلميذ . هكذا نجد انفسنا ملزمين بأن نعرض الحقيقة المسيحية على كل تلميذ وان كل طالب يدخل إلى مؤسستنا يجب ان يعرف مسبقا ماذا يطلب منه [٦٦] .

٦ ـــ حاولوا ـــ وهذا في اسوأ الاحتمالات ـــ بمعاونة المستشرقين غرس مبادئ التربية الغربية في نفوس المسلمين حتى يشبوا مستغربين في حياتهم وتفكيرهم وحتى تخف في نفوسهم موازين القيم الإسلامية [٦٧] .

الوسيلة الثانية : المطبوعات .

اعتنى المستشرقون والمبشرون بالمطبوعات عنايتهم بالتعليم أو اكثر فألفوا الكتب وأصدروا المجلات والجرائد وانشأوا دور النشر وفتحوا المطابع حتى كادت هذه المرافق تكون حكرا لهم لا ينازعهم فيها منازع .

ومما لا ريب فيه ان للكتب تأثيرا كبيرا في الناس وتلك ظاهرة لم يغفلها المبشرون اذ هم يرون ان اشد الوسائل اثرا كان إنتاج النشرات المسيحية إلى المسلمين .

والمبشرون حريصون جد الحرص على ان يتولى كتابة هذه الموضوعات اشخاص وطنيون لا مبشرون أو اشخاص صبأوا إلى النصرانية حديثا لأن هؤلاء يكونون اقدر على فهم عقلية جماهيرهم وعلى عرض تلك الموضوعات على شكل قريب من فهم تلك الجماهير [٦٨] .

([٦٦]) المصدر السابق ص ١٠٨ .

([٦٧]) الفكر الإسلام الحديث ص ٥٢٦ تحت عنوان مظاهر نشاط المستشرقين .

([٦٨]) المصدر السابق ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

ان الصحافة لا توجه الراي العام فقط أو تهيئة لقبول ما تنشره عليه بل هي تخلق الرأي العام . ويعلن المبشرون انهم استغلوا الصحافة المصرية على الأخص للتعبير عن الآراء المسيحية اكثر من أي بلد إسلامي آخر (٦٩) .

ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو اصدار (دائرة المعارف الإسلامية) بعدة لغات وكذلك اصدار موجز لها بنفس اللغات الحية التي صدرت بها الدائرة . وقد بدأوا في الوقت الحاضر في اصدار طبعة جديدة تظهر في اجزاء ومصدر الخطورة في هذه الدائرة هي ــ كونها ــ مرجعا لكثير من المسلمين في دراساتهم على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الإسلام والمسلمين (٧٠) .

وأخطر المجلات التي يصدرها المستشرقون الامريكيون في لاوقت الحاضر هي مجلة (العالم الإسلامي) انشأها صمويل زويمر ١٩١١ وتصدر الآن من هارتفورد بأمريكا ورئيس تحريرها كمنيث كراج وطابع هذه المجلة تبشيري سافر (٧١) .

ولقد اعتمد المبشرون مدينتين لنشر كتبهم وصحفهم : القاهرة وبيروت . اما القاهرة فاتخذها البروتستانت مركزا لتوزيع المنشورات المسيحية في القطر المصري وفي جميع العالم الإسلامي . كما انهم اقاموا المطبعة الامريكية في بيروت تلك المطبعة التي اصبحت اهم وسائل التبشير في لاشرق كله اما اليسوعيون فقد ركزوا جميع جهودهم في المطبعة الكاثوليكية في بيروت منذ عام ١٨٧١ وقاموا من طريقها بعمل تبشيري في الدرجة الأولى (٧٢) .

---

(٦٩) المصدر السابق ، ٢٠٧ .

(٧٠) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمد البهي ، ص ٥٢٦ .

(٧١) المصدر السابق ، ص ٥٢٥ ، ٥٢٦ .

(٧٢) التبشير والاستعمرا ، ص ٢٠٨ .

الوسيلة الثالثة : الخدمات الطبية والإجتماعية .

ولعل أهم هذه الخدمات التطبيب وقد كان أول من اسس عيادة طبية من أجل التبشير هم الأمريكيون وقد افتتحوها في سيواس بتركيا ١٨٥٩ ، وهكذا نظر الأمريكيون من ذلك الحين إلى الطب على انه معين على التنصير ومنذ ذلك الحين إلى الطب على أنه معين على التنصير ومنذ ذلك الحين اعتبر الأمريكيون الطب مشروعا مسيحيا وعلى هذا قال الطبيب بول هايسون في كتابه (الطبيب في بلاد العرب) صفحة ٢٧٧ ان المبشر لا يرضى عن انشاء مستشفى ولو بلغت منافع ذلك المستشفى منطقة عمان بأسرها لقد وجدنا نحن في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى .

ولا ريب في أن الطبيب يستطيع أن يصل إلى جميع الطبقات من الناس حتى أولئك الذين لا يخالطون غيرهم ولذلك قال المبشرون ان بإمكان الطبيب المبشر أن يصل بتبشيره إلى جميع طبقات المسلمين بواسطة المرضى الذين يعالجهم ... ثم انهم فرضوا أن يكون الطبيب المبشر نسخة حية من الانجيل ان بامكانه ان يغير الذين حوله ويجعل منهم نصارى حقيقيين أو ان يترك في نفوسهم اثرا عميقا على الأقل [٧٣] .

وجاء في كتاب اسمه مؤتمر العاملين المسيحيين بين المسلمين (نحن نعني بالعمل الإجتماعي المسيحي تطبيق مبادئ يسوع المسيح في جميع الصلات الإنسانية ان المسلمين يدعون ان في الإسلام ما يلبي كل حاجة اجتماعية في البشر فعلينا أن نقاوم الإسلام دينياً بالأسلحة الروحية . فالنشاط الإجتماعي يجب أن يرافق التعليم المباشر للإنجيل ويساعده ويتممه ..) من أجل ذلك نحن ننصح بالسير في الأعمال الإجتماعية على الأسس التالية : ايجاد بيوت للرجال والنساء

---

(٧٣) التبشير ، ص ٥٣ .

خصوصاً الطلبة منهم ومنهن ، ايجاد اندية للاعتناء بالتعليم الرياضي وبأعمال الترفيه ، حشد المتطوعين لأمثال هذه الأعمال) (٧٤) .

وبناء لهذه الفكرة انشأوا الجمعيات ومنها جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات وكما يقول اديسون ان فروع هذه الجمعية قد نشرت في الشرق لتكون عوناً على تغلغل التبشير المسيحي (٧٥) .

وفي الآونة الأخيرة عملت الأديرة المنتشرة في لبنان على اتخاذ خطوات من شأنها جذب الناس مسلمين ومسيحيين اليها ، فجعلت من حدائقها منتزهات لهم وسهلت المواصلات بالايعاز إلى من يلزم ببناء التلفريك (فهي جونية إلى يدة حريصا) (٧٦) .

ونشرت جريدة النهار البيروتية في عددها الاثنين ٩٧٠/٧/٢٧ تحقيقا مصورا عن مخيم الشباب الذي اقامه دير المخلص في منطقة الدير تحت اشراف الأب حداد والذي اشترك فيه عدد كبير من الشباب المثقف حيث توجيه ثقافي !

الوسيلة الرابعة : رعاية بعض الأحزاب والمنظمات والتدخل في شؤون الادارة المحلية .

---

(٧٤) المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

(٧٥) المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

(٧٦) نشرت مجلة العربي عدد ايار سنة ١٩٦٩ تحقيقا مصورا عن جونية في لبنان والتلفريك فقالت : (ان هذا الخط الكهربائي يربط ساحل كسروان بجباله ... ويطلقون على هذه العربة الصغيرة اسم (التلفريك) . وقبل نهاية الخط تتوقف هذه العربة عند مقهى كبير ومطعم فخم وشرفات واسعة تطل على خليج جونية الساحر ... وبعدها يتابع المرء رحلته الى تمثال سيدة حريصا داخل نوع آخر من العربات يطلق عليه اسم فينكولير .

أما عن الأحزاب والمنظمات فسنرى تفصيله في محور الأحزاب والجمعيات كما سيأتي ... ونكتفي هنا بالإشارة إلى أن معظم مؤسسيها من غير المسلمين [٧٧] .

وأما التدخل في شؤون الادارة المحلية في شؤون بلدنا ـــ أي لبنان ـــ كثيرة منظورة ، نكتفي منها بما ألمح اليه رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري ، وهو تلميذ الآباء اليسوعيين ، وان كان لميحه غير مقصود انما جاء شهادة عفوية صادقة عن مدى تأثير هؤلاء الآباء على قضايانا السياسية ايام الانتداب فهو اولا يعترف بفضلهم في رفعه إلى سلطة ادارية مرموقة وهي الأمانة العامة لحكومة لبنان وكان ذلك على يد الأب اليسوعي كاتان الذي أوصى به الحاكم لابرو (الصفحتان ٩٩و١٠١ من الجزء الأول من حقائق لبنانية) .

كان ذلك في أواخر عام ١٩١٩ وذات يوم وانا في مكتبي في بيروت دخل علي الحاكم لابرو بدون معرفة سابقة وسلمني كتابا من الأب كاتان يطلب مني فيه ان اعاون الحاكم بالرأي في المسائل الادارية ... وخيرني ـــ الحاكم ـــ بين امرين اما السفر إلى باريس في رفد جديد برئاسة المطران عبد الله خوري واما تولي منصب الأمانة العامة للإشراف على جميع الدولة اللبنانية ولإعادة تنظيمها فترلت عند الحاحه واختارت الأمر الثاني .

(ويشهد الرئيس الخوري في الصفحة ٢٣٨ من نفس المؤلف بأن الآباء اليسوعيين هم الذين اوصوا بتعيين الاستاذ الفرد نقاش رئيسا للجمهورية وعين الجنرال دانتز القاضي الفرد نقاش رئيسا للدولة بتوجيه من الآباء اليسوعيين ...) .

---

(٧٧) نسمي منهم على سبيل المثال لا الحصر : ميشيل عفلق لحزب البعث العربي الاشتراكي ـــ جورج حبش للقوميين العرب وللجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـــ نايف حواتمة للجبهة الشعبية الديمقراطية ـــ جورج سعادة لحزب القومي السوري الاجتماعي .

ولا ينسى اللبنانيون يوم تدخل المندوب الفرنسي السامي وعلق الدستور وحل البرلمان بناء على رغبة معينة هنا ، وهناك فر فرنسا ، وذلك للحيلولة دون انتخاب الشيخ محمد الجسر رئيسا للجمهورية باجماع النواب المسلمين وعدد لا بأس من المسيحيين (كيف يصنع الرئيس في لبنان من ملف جريدة النهار البيروتية) .

كما ان اللبنانيين اليوم يعيشون تدخلات سلطة بكركي ، الصرح الماروني الأكبر ، في الشؤون الادارية والسياسية وفي الانتخابات النيابية والرئاسية الأمر الذي أصبح معروفاً من الجميع ...

وعلى ذلك فقِس !!

وأخيرا ...

فقد عبر الدكتور ــزويمر) للمبشرين عن صيلة اعمالهم في الشرق المسلم ولخصها تلخيصا بقلوه :

(انكم اعددتم شباباً في ديار المسلمين لا يعرفون الصلة بالله ولا يريدون ان يعرفوها ، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه المسيحية ، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقا لما اراده له الاستعمار ، لا يهتم بعظائم الأمور ويحب الراحة والكسل ولا يصرف همه في دنياه الا في الشهوات فإذا تعلم فللشهوات وإذا جمع المال فللشهوات وإذا تبوأ أسمى المراكز فللشهوات ففي سبيل الشهوات يجوك بكل شيء [٧٨] .

ولا بد من الاشارة إلى ان المبشرين والمستشرقين قد عدلوا كثيراً في استراتيجيتهم ، بعد أن وجد مثل هذا النوع من الشباب المثقف في الشرق

([٧٨]) عن مقال في جريدة الشباب البيروتية الصادرة في ١٥ تموز ٩٧٠ .

المنكود ... اذ ان أهداف المبشرين اصبحت مخدومة من قبل هذا الصنف من أشباه الرجال ... وسنقف في الصفحات التالية على جهود هؤلاء (غير المشكورة) وعلى نشاطهم ودعاويهم في ابعاد المسلم عن إسلامه وفي محاربة هذا الدين الخالد.

ويبدو ان القائمين على إدارة التبشير في العالم العربي بعد أن حققوا أغراضهم في تخريج جيل لا يؤمن بالإسلام ... راحوا يفرغون سمومهم في أقاصي الشرق المسلم في اندونيسيا حيث نشط المبشرون الغربيون نشاطاً هائلا وذلك حين مارس الرئيس الاندونيسي سوكارتو عملية اضطهاد عنيفة ضد الأحزاب الإسلامية السياسية فتكتل هؤلاء في تجمع إسلامي غير سياسي في محاولة هادفة للوقوف بوجه الزحف التبشيري المرعب .

ذكر تقرير مؤسسة الدعوة الإسلامية في أندونيسيا ـــ وهو اسم التجمع ـــ تاريخ ١٩٦٧/٩/٣ ما يلي :

(في تلك الأوقات الحرجة أي بين عام ٦٠ ـــ ٦٥ لمسنا النشاط الشيوعي والنشاط الصليبي يتسابقان كفرسي رهان انهالت على الفئتين المساعدات المالية من الشرق والغرب والسفارات الاشتراكية من الكتلة الشرقية لتعمل جهارا مع الشيوعيين فيدخل زعماء الحزب الشيوعي الاندونيسي مركز السفارة الصينية في ضحى النهار وقد يستعمل سيارة السفارة على الرغم من انه يملك سيارة خاصة حكومية وسفارات الغرب أيضاً لا تقصر في اسدائها المساعدات اللازمة بل وفوق اللازم . فتبرعت المانيا الغربية بمركبين زنة الواحد منهما ٢٠٠٠ طن لنقل الرهبان والراهبات في تجوالهم بالجزر النائية في اندونيسيا ولتثبيت أقدامهم في مراكزهم هناك اعني بها جزر فلوريس وتيمور وهلما هيرا وسيرام وهي كلها قريبة من ايريان الغربية واوستراليا . ثم تبرعت ببناء مستشفيات في اجاوا الغربية

وسومطرة تقدر بملايين الدولارات لأنها تعد من أضخم وأفخم وأحدث المستشفيات عندنا ثم تبرعت هولندا بمائة وعشرين مليون روبيات هولندية أي ما يعادل ١٠٠ مليون فرنك سويسري لأجل التبشير البريستانتي بأندونيسيا وتبرعت اوستراليا بـــ ٢٥ بالمائة من حاصل بيع سيارات هولدن التي يتوكل ببيعها شركة مسيحية بجاكرتا للنصارى من الروتستانت وتبرعت اميركا لطائفة الادفينت بشراء اراض لتبني عليها مطابع لتغذي افكار نشئنا بأفكارهم ، فعندهم جرائد ومجلات ونشرات ، ومع ذلك فقد شرعوا يبنون ديارا للمطابع الكبيرة الخاصة بهم فوق التي يملكونها بوفور وغيرها ما يكلفهم ٢٥ خمسة وعشرين مليونا من الدولارات الاميركية ، ولم نذكر بعد تبرعات بلجيكا وفرنسا وكندا وغيرها للطوائف المسيحية عندنا .

واما الكنائس الجديدة فيقدر بعض الاخوان الذين يتتبعون حركات المسيحيين بأندونيسيا بأن النصارى يبنون شهريا كنيستين ، لأن من قرار مؤتمرهم في مدينة ملاغ بأنهم سيبنون إلى جنب كل مسجد كنيسة) .

ولم تكن افريقيا بأوفر حظاً من بلاد العرب وأندونيسيا فها هم المبشرون يجوبون البلاد في دعاياتهم التبشيرية ويعلنون بلا مواربة ان عدوهم اللدود في عملية الغزو للشعوب هو الإسلام .. هذا الدين الذي ينتشر بمعدل ستة اضعاف انتشار دعواهم التبشيرية .

وقد نشرت ذلك مجلة الشهاب البيروتية في عددها الصادر في ١٩٧٠/٣/١٥ في تحقيق لها عن كتاب اصدره القس ستيفن نيل بعنوان تاريخ الارساليات التبشيرية تحدث فيه عن عملية الغزو التبشيري بين صفوف الوثنيين والمسلمين في افريقيا .

محور الإتجاهات الفكرية الحديثة

شهد الشرق الإسلامي في القرن العشرين اتجاهات فكرية تختلف اساسا عن الإسلام ، في التصور والهدف وتسعى لاحلال نفسها مكانه في كل جنبات الحياة ... فهي اذن في منشئها ومبناها وفي أصلها وغايتها محاولة لطمس حقائق الإسلام ولتحويل مجاري التفكير الإسلامي كما يقول المبشرون والمستشرقون .

ولعل أكثر هذه الإتجاهات ، في بلادنا ، وليد الهدف الثاني من أهداف محور التبشير والاستشراق ـــ كما رأينا ـــ فهذا الهدف يقوم على تشكيك المسلمين بدينهم وزعزعة عقائدهم ... والنتيجة المنطقية لهذا التشكيك تبني الأفكار الجديدة التي تمخضت عنها اوروبا في صراعها مع الدين . فكما ان اوروبا نبذت الدين ، نبذ النواة عندما ارادت النهوض ، وآمنت بدين جديد من وضع البشر ، فلاسفة وعلماء ارادت النهوض ، وآمنت بدين جديد من وضع البشر ، فلاسفة وعلماء ومختصين ، فلا بد للشرق ، أيضاً ، ان يتخلى عن هذا الدين المشكوك فيه أو على الأقل غير الملائم لتطور الحياة والدين دين على كل حال ...؟؟؟ ـــ كذا ـــ ولأول مرة منذ فجر الإسلام ، يقوم في الشرق ناس من ابنائه يدعون بدعوات تتناقض مع الإسلام عقيدة ومنهاجاً .

والحقيقة التي لا جدال فيها ان (محور الإتجاهات الحديثة) قد تولته عناية كبارة المستشرقين واساتذة الجامعات . وقد استطاع هؤلاء على الزمن ان يجدوا صنائع لهم بين (المسلمين) أو بين (ابناء الشرق) من غير المسلمين فمنهج هؤلاء تلك الإتجاهات وأفرغوها في قوالب من العاطفة الوطنية وأفردوها بمبادئ لاءمت جو الشرق المشحون بالجهل (وخاصة بحقائق الدين) وبالادارة الفاسدة وبالتبشير والاستشراق ...

أهداف الإتجاهات الحديثة :

وهدف هذا المحور الانتصار على الإسلام في معركة الصراع الفكري وابعاد هذا الدين عن واقع الحياة (واصطناع) دول تقوم على شرعة علمانية منقولة عن اوروبا أو بمعنى آخر (تغريب) الشرق المسلم في حضارته وتصوراته ومنهجه في الحياة ...

وهذا المحور أخطر من محور التبشير ... فخطر المحور الأول خطر واضح يقوم على مجابهة الإسلام وعلى تحديه ويدعو بصراحة إلى التنصير والى اعدام الثقة بمنهج الإسلام وبعقيدته وتصوره ، فهو عدو مكشوف ، يستخدم وسائل باتت معروفة ، اما خطر الإتجاهات الحديثة ... فهو خطر متعرج ملتو متستر يقوم على خداع الناس ويتدرج باقناعهم وينحط بهم إلى درجات دنيا في عصبية أو مادية أو علمانية ...

ويزيد في خطورة محور الإتجاهات اعلان بعضها في مناسبات أو في غير مناسبات عن احترامها للدين ؟ واعتزازها به ـــ كقيمة انسانية رفيعة ؟ ـــ وعن تمسكها بالإسلام ؟ ـــ كحضارة تاريخية هائلة منحت التاريخ قوة خلاقة مبدعة ؟ ـــ أو غير ذلك من المعاني المبطنة التي تضل كثيرا من الناس باخفاء حقيقتها عن أعين الجماهير .

واستطاعت هذه الإتجاهات ان تأخذ طريقها إلى المجتمع ومؤسساته وان تلعب دورا كبيرا في اتجاه الشرق المسلم وان تحقق مكاسب كبرى ، تجهد الآن للمحافظة عليها وتنميتها والاضافة اليها .

ويعود تاريخ هذا المحور إلى القرن التاسع عشر عندما بدا التعليم التبشيري والاستشراقي ، في الشرق والغرب ، يؤتي ثماره ... فمن المعروف ان العثمانيين اهملوا التعليم والنهضة وأغرقوا انفسهم ورعاياهم في لجة عميقة من الجهل ، الأمر

الذي فسح المجال لاوروبا لكي تغزو بلادنا ثقافيا ــ كما رأينا ــ والتلميذ يعجب دائما بأستاذه ثم يقلده ويحاكيه ويتمنى ان يسير على منواله وسيرته .

ومن هذا القرن ، التاسع عشر ، وعلى امتداد الأعوام ، حتى يومنا هذا ، شهد الشرق الإسلامي زحف التيارات الفكرية المصطرعة في العالم فكان اول هذه الإتجاهات الإتجاه القومي بفروعه ثم تلاه الإتجاه الاشتراكي والشيوعي مروراً بإتجاه علماني وآخر مادي فلسفي الخ ...

الإتجاه القومي

أ ــ القومية التركية :

كانت الدولة العثمانية تضم في امبراطوريتها الواسعة مسلمي الشرق كله تقريبا باستثناء ايران ... فالتركي يخضع لسلطان حكومة استانبول كالعربي والتركماني أو أي مسلم آخر (٧٩) . وحتى أوائل القرن التاسع عشر لم يشعر احد من الرعايا بنعرة قومية خاصة متولدة عن لغته أو عرقه أو ارضه حتى اخذت القومية العرقية تتسرب إلى الامبراطورية العثمانية (من أواسط شرق اوروبا) عبر أقنية عدة . ولقد كان اللاجئون البولنديون والمجريون على الغالب اول الناقلين عندما ذهبوا لتركيا بعد فشل ثورتهم سنة ١٨٤٨ فلقد بقي قسم كبير فيها واعتنقوا الإسلام (٨٠) واحتلوا مناصب هامة في الدولة العثمانية وكان احدهم الكونت قسطنطين بورزيسكي وقد سمى نفسه بعد ذلك مصطفى جلال الدين باشا !! ولقد نشر سنة ١٨٦٩ كتابا بالفرنسية في استانبول اسمه (اتراك الأمس واتراك اليوم) وفي الكتاب جزء كبير يشكل تقريرا للسطلان عن المشاكل الحاضرة في الامبراطورية واقتراحات حلها وبه جزء تاريخي يضم دراسة اجراها

---

(٧٩) نحن هنا نستعرض نشوء القومية ولا نناقش في شكل التجمع في دولة واحدة او في اتحاد او جامعة .

(٨٠) شكلا .

المستشرقون الأوروبيون عن التاريخ القديم للشعب التركي وبه يؤكدون دور الاتراك الايجابي الخلاق في التاريخ ولقد حاول بوزيسكي جهده لاثبات ان الأتراك هم من العرق الأبيض مثل شعوب اوروبا وينتمون لما أسماه العرق (الطوراني ــ الأري).

ولقد عمل الكونت بورزيسكي على نقل القومية البولونية ووضعها في قالب تركي وساعده على هذا العمل ما عرضه من أعمال المستشرقين الأوروبيين الباحثين في الشؤون التركية ولقد وصلت نتائج ابحاث هؤلاء إلى المجتمع التركي من عدة طرق ، وكان لها تأثير هام على الذهنية التركية خصوصا في تقدير التاريخ التركي القديم والاعتقاد بالهوية المميزة والمركز اللائق في التاريخ ولقد كان الأتراك أكثر من العرب والعجم نسيانا لتاريخهم الماضي فلقد كانوا لا يفكرون بأية هوية أخرى غير الإسلام ، ولكن المستشرقين عن قصد [٨١] أو عن غير قصد ساعدوا الأتراك على استعادة هويتهم القومية الضائعة !! وعلى الدعوة إلى حركة قومية تركية جديدة .. [٨٢] .

(... والكلمة التي تستعمل بالعربية للتعبير عن فكرة الجنسية الوطنية هي القومية وهي اسم مشتق من قوم وتعني بالعربية الكلاسيكية الأصل والاتباع ومجموعة العشيرة وبكلمة ادق تعني ــ الآل ــ الذين يتنادولن للمساعدة عند الشدة ... ومثل كلمة (وطن) كلمة (قومية) ، وهي اشتقاق من اللغة التركية أو اللغات الإسلامية التي نقلت ثم (صكت) الكلمات الجديدة للأفكار الجديدة ولقد وردت كلمة (قومية) بالتركية على لسان (الشبيبة التركية) وفي كتاباتهم وكانوا

(٨١) ان اعمال المستشرقين لا تسمح لنا بحسن النية الدائمة لذلك فإننا نعتقد جازمين ان عملهم هذا كان مقصودا ان لم نقل مدروسا ومخططا ايضا من حاشية لمعرب كتاب المغرب والشرق الأوسط . ولقد رأينا اعمالهم في محورهم !! .

(٨٢) الغرب والشرق الأوسط تأليف برنارد لويس رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الافريقية والشرقية بجامعة لندن تعريب الدكتور نبيل صبحي ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

يعنون بها القومية التي تعارض الولاء الأوسع للسلطنة العثمانية الكبرى وللإسلام ... ولذلك في سنة ١٨٧٠ انتقد علي سوافي اقتراحاً عثمانيا شبه رسمي يطلب ان يتبنى الباب العالي (القومية) مثل ايطاليا وبروسيا ويوحد جميع المسلمين على أساسها وبين علي سوافي بحق ان القومية في اوروبا تعني شيئا آخر مختلفا تماما فليس عندنا مشكلة قومية ، والمشاكل القومية تقود لدمارنا ، وقضية توحيد المسلمين مسألة إسلامية دينية وليست مسألة قومية ... إلا أن نداءه ذهب عبثاً وانتشرت القومية بسرعة بين المسيحيين العثمانيين وانتقلت بواسطتهم إلى المسلمين : الألبان والعرب ... وعندما ثارت القومية الألبانية سنة ١٩١٢ اثارت معها حملة من الإستنكار قام بها الشاعر محمد عاكف المسلم الوطني المعارض للقومية وكان هو من اصل الباني قال :

ان ملتكم هي الإسلام فما هي القومية القبلية ؟

هل العرب أفضل من الترك ؟ أو ان اللاظ افضل من الشركس والكرد ؟ ام ان الفرس افضل من الصينيين ؟ بماذا يفضلونهم ؟

ماذا دهاكم هل تقسمون الإسلام إلى أجزاء متعددة ؟

ان الرسول الكريم ﷺ نفسه سفَّه العصبية القبلية !

وليس باستطاعة الأتراك العيش بدون العرب .

ومن يقول غير هذا فهو مجنون .

والترك بالنسبة للعرب عينهم اليمنى وساعدهم الأمين .

فلتكن البانيا لكم انذاراً ؟

ما هذه السياسة المتخبطة وما هو هذا الهدف الشرير .

اسمعوها مني ، انا الألباني .

لا أقول أكثر من :

أسفي على بلادي المبتلاة (٨٣) .

إلا أن محمد عاكف الشاعر كان يقاتل في معركة خاسرة كما يقول برنارد لويس وانتقلت العدوى إلى كل مكان .

ب ـــ القومية العربية :

اما بالنسبة للعرب ... فلم تظهر العروبة كحركة سياسية تقول بالعرب امة لها حقوقها بمجموعة صغيرة من الناس لا تمثل الشعب العربي وكان أكثر هذه المجموعة من المسيحيين ... اما غالبية العرب فبقوا مخلصين للدولة العثمانية حتى تاريخ اندحارها فلقد كان العرب مواطنين مسلمين في وطن إسلامي .

والفئة الصغيرة من المتعلمين ، الذين بشروا بالبعث العربي (٨٤) لم يلاقوا صدى مناسبا ، وكما أيقظت القومية السلافية في الامبراطورية الروسية الدعوة ال القومية التركية وانتقلت هذه بدورها إلى الدولة العثمانية كذلك قامت (التركية) بدورها بايقاظ الدعوى إلى القومية العربية بين العرب في الدولة العثمانية (٨٥) .

ثم كانت الحرب العالمية الأولى وجزئت الامبراطورية العثمانية وانتدبت بلاد العرب والغيت الخلافة الاسمية ـــ كما رأينا (*) ـــ وانتشر المفهوم القومي بين العرب ، وبعد أن أخذ ، خلال الصراع مع الاستعمار ، شكل الوطنية اللاهبة بدأ يتطور حتى أضحى مفهوما ايدولوجيا خاصا .

---

(٨٣) المصدر السابق ١٣٤ ، ١٣٥ ن ١٣٦ .

(٨٤) لا يقصد (حزب البعث) انما الاتجاه القومي بوجه عام .

(٨٥) المصدر السابق ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(*) راجع الفصل السابق .

(وهكذا وصلت الحركة العربية في تطورها الطويل إلى هذه النتيجة التي تفترض وجود كيان سياسي واحد للعرب مثلما تفترض وجود امة عربية واحدة لأن الدولة الواحدة هي ضمان بقاء المجتمع ووحدته .

(ويمكننا ان نميز مفهوم اليوم ، لما كان قبلا ، بشعبيته ، فهو ينبثق عن ارادة الشعب المجموع ، ولا يمثل طبقة أو طائفة أو عقلية معينة ولا فئة محدودة ما ... اذ لم تعد الفكرة العربية ارادة النخبة السياسية أو الثقافية ، فقط .

(... ولا تعني الميزة الشعبية للمفهوم الحديث للحركة القومية الغوغائية بالضرورة كما يخشى البعض . وبرهان ذلك انه لم يمر على هذه الحركة عهد نشطت فيه الأبحاث النظرية في توضيح المفهوم القومي مثل اليوم . فقد اصبحت القومية العربية علما له قواعده وله مدارسه المختلفة وله تفسيراته المتنوعة) .

(والحقيقة ان هذا المفهوم الحديث بدأ بالتحرر من التيار التقليدي القديم وبالتبلور في نظريات منجية ونظمات واضحة الأهداف منذ سنة ١٩٤٠ ، بفضل مساع كتابية فردية متفرقة وحركتين حزبيتين منظمتين . اما المساعي الفردية فأبرزها ما قام به اساتذة جامعيون ينتمون بطريق أو بآخر إلى الجامعة الأميركية في بيروت ... وأما الحركتان المنظمتان فهما (البعث العربي الاشتراكي) و(القوميون العرب) جناحا التيار القومي المعاصر وبينهما محور ضخم من اللامنتمين لأي من الجماعتين ، المؤمنين معهم في الوقت نفسه بأمة عربية واحدة ، بأمل مشترك في قيام كيان عربي واحد ناهض ومتحرر ... وذي رسالة بناءة ... [٨٦] .

ومن التفكير القومي (السلف) اعتبار المرحلة القومية أعلى درجات التفكير الإنساني وهي مرحلة حتمية في نشوء الدول وزالها ... حتمية كحتمية الشيوعيين

([٨٦]) تطور المفهوم القومي عند العرب لأنس الصايغ ص ١٠٣ ــ ١٠٦ .

في سيادة الشيوعية ، لأن الصراع الطبقي حتمي وستقضي الشيوعية على الصراع وتزول الدولة من الوجود .

يقول دعاة القومية [٨٧] (ان انتقال الإنسان من شكل اجتماعي لآخر عبر التاريخ منذ التجمع العائلي حتى المجتمعات القومية مارا بالعشيرة والقبيلة والمجتمع الديني والامبارطوريات السياسية والدينية ... لم يكن انتقالا اعتباطيا ولا انتقالا اعمى بلا هدف .. وانما كان يمثل تمثيلا صادقا تجربة الإنسان في البحث عن وضع افضل لحياته ... وكان الإنسان يترك شكلا معينا من اشكال المجتمع إلى آخر حين يجد ان هذا المجتمع لا يوفر له الجو الطبيعي لحياته ولا يؤمن له احتياجاته ولا يحقق له اهدافه ... وقد ترك الإنسان هذه المجتمعات الواحدة تلو الأخرى حتى وصل إلى المجتمع القومي ...

(وكان هذا الانتقال عبر التاريخ يسير جنبا إلى جنب مع تبلور الوعي القومي لدى الأمم بحيث جاء المجتمع القومي في النهاية عصارة تجربة الإنسان في البحث عن وضع افضل لحياته ...) .

اما ميشيل عفلق [٨٨] فيعرف القومية بأنها نظرية ولكنها مبعث النظريات ولا هي وليدة الفكر بل مرضعته ... وليست مستعبدة الفن بل نبعه وروحه ... [٨٩] هذه القومية هي (حب قبل كل شيء) وهي (قدر محتوم محبب)... [٩٠] وهي نفس العاطفة التي تربط الفرد بأهل بيته لأن الوطن بيت كبير والأمة اسرة

---

(٨٧) الأستاذان الحكم دروزه وحامد الجبدري في كتابهما مع القومية العربية وهذا الكتاب يمثل رأي حركة القوميين العرب ص ٣١

(٨٨) في سبيل البعث ، ص ٥ .

(٨٩) في سبيل البعث ، ص ٥ .

(٩٠) عنوان لمقالين في (سبيل البعث) .

واسعة والقومية ككل حب ، تفعم القلب فرحا وتشيع الأمل في جوانب النفس ...) [٩١] .

وبهذا استحالت القومية عند القوميين منهج تفكير وحياة ... لذلك فلا بد من استحداث عقيدة تملأ جوانب هذا القلب وتفعمه بالبهجة والسرور .

يقول دعاة القومية : (فكل ما في واقعنا اليوم يؤكد بأن انعطافنا التاريخي وانقلابنا الجذري وثورتنا الحقيقية لا يمكن ان تتم الا بعقيدة ... عقيدة تضع القيمة الحقيقية للفرد العربي وتوفر له الحياة الحرة الكريمة التي تتحقق فيها انسانيته ... وتنطلق امكانياته ومواهبه ... وعقيدة تضع المحتوى الشامل للمجتمع العربي فتحقق فيه العدالة الإقتصادية عن طريق نظام اشتراكي عادل ... والعدالة السياسية عن طريق نظام ديمقراطي سليم والعدالة الإجتماعية الخاصة عن طريق نظم تربوية بناءة ... تضع مفهوما جديدا خلافا للمرأة والأسرة والمدرسة والهيئات ومختلف مرافق الحياة الإجتماعية ... [٩٢] .

اذن هذه العقيدة لاتمت إلى الإسلام بصلة ... لأنها عقيدة جديدة بنظراتها وتصورها وفي كل شيء فيها ... هكذا ارادوها أو هكذا اريدت لهم .

فهذه العقيدة العربية الجديدة !! الخلافة البناءة !! لا تعترف ابدا ـــ كما يقولون ـــ [٩٣] بالفروقات الدينية في تكوين ونشوء الإجتماع البشري ولقد اثبت التاريخ ـــ في زعمهم ـــ ان أية وحدة لا تستمد اساسها من وحدة الروابط

---

(٩١) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٩٢) مع القومية العربية ، ص ١٥ .

(٩٣) المصدر السابق ، ص ١١٩ .

القومية ، هي وحدة عرضية !! ما أسرع ما تتفكك حين تسنح الظروف !! [٩٤] .

وتنظر هذه العقيدة الجديدة !! إلى الإسلام بما يلي : (ولكن الدين الإسلامي بالنسبة لنا نحن العرب !! قد اختلف عنه بالنسبة لغيرنا من الأمم فالإسلام انتفاضة !! عبرت عن حقيقة هذه الأمة !! [٩٥] ومثلها العليا وعبقريتها وامكانياتها ورسالتها وتصورها للحياة والكون والإنسان !! [٩٦] ولو لم يكن الإسلام كذلك لما استطاع العرب ان يفهموه وان يعملوا بمثله وان سعوا لنشره بين الأمم !! [٩٧] لقد كان الدين الإسلامي رسالة الأمة العربية في الماضي .. [٩٨] نحو الإنسانية جمعاء .

ولذلك فاننا نعتز به [٩٩] كدين وثقافة وتشريع ، ونفهمه على انه نزعة الإنسان نحو المثل الأعلى ، وارتقاء بالحياة الأفضل . ان الدين الإسلامي واي دين آخر ، إذا توصلنا إلى جوهره وتلمسنا روحه العامة ونظرنا اليه من هذا المفهوم على انه قيم ومثل وفضائل وتهذيب للحياة وبلورة للاحساس ، لا انظمة اقتصادية واجتماعية وثقافية محددة ... ان أي دين بالاستناد إلى هذا المفهوم هو انطلاق ـــ للعقل ودفع نحو التطور والتجدد .. [*] [١٠٠].

---

(٩٤) ومثل هذا الكلام قاله محمد حسن الزيات مفرقا بين الوحدة المحمدة وبين الوحدة الصلاحية نسبة الى صلاح الدين الأيوبي وبين الوحدة الناصرية ويقول في الأخيرة انها أفضل (الوحدات) لأنها الباقية الخالدة .. من مقال نشره في مجلة الأزهر .

(٩٥) انتفاضة عبرت عن حقيقة الأمة وليس وحيا ربانيا ليخرج الناس من الظلمات الى النور وليهب لهم نظاما في الحياة وشرعة في الوجود ...

(٩٦) يا ليت كان لعرب الجاهلية ما يزعمون ...

(٩٧) هكذا بكل صفاقة وقحة ودون استحياء ...

(٩٨) ليس في الحاضر والمستقبل بل في الماضي فقط ...

(٩٩)بجرد اعتزاز على انه جزء من التاريخ العربي ... لذلك فهم لا يقبلونه نظاما اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا كما سنرى ؟

(*) والا فهو ـــ بزعمهم ـــ انفلاق وتحجر وجمود ...

(١٠٠) مع القومية العربية ص ١١٩ ، ١٢٠ .

ولقد أناط دعاة القومية بالعقيدة الجديدة مهمة خلق الإنسان العربي الجديد الذي يبتهج بالقومية ــ كما قال عفلق ــ والذي تنطلق امكانياته ومواهبه وتتحقق انسانيته ــ كما قال الحكم دروزه ــ .

واستطاعت العقيدة الجديدة ان (تخلق) هذا الإنسان العربي الجديد فاتخذ العروبة دينا بل الها فقال احد دعاتها [١٠١] :

(العروبة نفسها دين عندنا نحن (القوميون العرب) المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين ... لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا مع دعوتها إلى أسمى ما في الأديان السماوية من اخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات) .

اما محمود تيمور ([١٠٢]) فقد كتب يقول (لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة فان القومية العربية لهي نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربي ...) ورسالة هذه النبوة هي تجميع القوة وتكتيل الجهود والانطلاقة بالطاقة البشرية في كيان المجتمع العربي نحو كسب الحياة .

(وان كتاب العرب في اعناقهم امانة هي ان يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة يزكونها بأقلامهم وينفخون فيها من أرواحهم ويعملون على ان تتكتل لها أسباب النماء والازدهار) .

والآن ألا يحق لنا ان نسال : هل طمع الصليبيون والمبشرون والمستشرقون والاستعمار بأكثر من هذا ؟

الإتجاه الشيوعي

([١٠١]) علي ناصر الدين قضية العرب هامش ص ١٣٨ الطبعة الثالثة .

([١٠٢]) مقال نشر في مجلة (العالم العربي) عدد ١٧١ بعنوان الفكر والقومية العربية . وقد نقلنا الاستشهادين عن الاستاذ السيد ابي الحسن علي الندوي من مجلة البعث الإسلامي التي تصدر في الهند المجلد الحادي عشر العدد العاشر تموز سنة ١٩٦٧ .

ظهرت العقيدة الشيوعية في اوروبا في اواسط القرن التاسع عشر وانشأها بفلسفة خاصة ، كارل ماركس ، وفريدريك انجلز ثم اخذت تمتد حتى استطاعت ان تحقق وجهها الاشتراكي في روسيا وان تقيم دولة الإتحاد السوفياتي .

والشيوعية تقوم على فلسفة مادية للتاريخ مفادها ان الإنسان في صراع دائم من أجل المعدة وما نضال الشعوب في التاريخ الا نضال طبقي تثور الطبقةى المظلومة على الظالمة المستبدة وهكذا ــ على ممر العصور ــ حتى نصل إلى صراع العمال ضد الرأسمالية وفي هذا الصراع لا بد من انتصار العمال ومن قيام ديكتاتوريتهم التي تعمل على تحطيم المجتمع الرأسمالي وعندها تتلاشى الدولة ويقوم المجتمع الشيوعي حيث تكون فيه الملكية مشاعة إلى أبعاد الحدود والدرجات (١٠٣) .

أما فلسفة الشيوعية المادية أي نظرها للإنسان والكون والحياة فهي نظرة مادية بحتة فالمادة هي كل شيء في الوجود حتى التفكير الإنساني فهو (خاصية مادة عالية التنظيم) .

وبناء على ذلك (فليس لهذا الكون إله) . (والدين خرافة) وعلى الإنسان حتى يصبح شيوعياً ، أن يكفر بكل القيم السابقة ويؤمن بالماركسية والماركسية ــ اللينية وأن يتخذ الشيوعية باقتصادها وتنظيم حزبها وأسس اجتماعها منهج حياة ومصدر تصور دائم.

وقد استطاعت الثورة البلشفية في روسيا أن تكتسح بلاد المسلمين في الشرق الأقصى وأن تضمها إليها بعنف وقوة ولا تزال تمارس فيها نوعاً من التحكم المتسلط في شتى جوانب الحياة وخاصة فيما يتعلق بالعبادة والعقيدة .

وبالرغم من العهد الطويل الذي قضاه الحزب الشيوعي في محاربة العقائد والأديان فلا تزال الروح الإيمانية تتغلغل في أبناء المسلمين هناك الأمر الذي أوقع

---

(١٠٣) لقد تعدلت أخيراً آراء الشيوعيين لهذا الموضوع راجع كتاب المجتمع والعلم والناس من منشورات وطباعة موسكو .

المشرفين على التوجيه العقائدي في الحزب في إشكال كبير فقرروا عندئذ إنشاء معهد خاص للإلحاد العلمي .

ولا بد من الإشارة إلى أن درس الإلحاد العلمي وهو يبحث في فلسفة الماركسية للكون والإنسان والحياة وعن خرافة الأديان وأسطورة الله وعن ضرورة الإيمان بالمادة وان ليس لهذا الكون إله ـــ ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ الاسراء ـــ مادة أساسية يتعين على كل طالب في أية مرحلة من مراحل الدراسة الفوز بها ويعلق عليها انتقاله إلى مرحلة أعلى ... هذا فضلا عن التوجيه العمالي في المصانع ومراكز العمل وعلاوة على ما تتحدث عنه النشرات والصحف ومختلف المطبوعات والتي توزع باهتمام في جنوب الإتحاد السوفياتي حيث يقيم المسلمون .

ولا ريب أن هذا العمل الدائب المستمر وبسبب ظروف أخرى أخرج أعداداً كبيرة من المسلمين من الإسلام وجندهم لاطفاء نوره في بقية القلوب المسلمة...

ولا يقلل من خطر هذا الإتجاه ما تحاول ان تعلنه حكومة الإتحاد السوفياتي بين الحين والآخر من السماح بالصلاة في المساجد القليلة الباقية ومن طبع القرآن ومن ايفاد الحجاج إلى مكة ... فهذه مسائل شكلية استهدفها المسؤولون هناك لدحض شبهة ورد اتهام ... وجدير بنا أن لا نصل بها عن موقف الحزب والدولة الرسميين .

وقد ظهر الإتجاه الشيوعي باكراً في الشرق المسلم فالشيوعيون الثوار في موسكو شعروا من أول يوم بضرورة التغلغل في أوساط الشرق المسلم وخاصة في الشعوب المحيطة بروسيا في آسيا وتنبهوا إلى قيمة هذا التغلغل وإلى صعوبة مسالكه لأن الشرق المسلم يقوم على الدين المختلف أساساً مع النظرية الماركسية ـــ اللينينية الإلحادية .

من أجل هذا لم ير قادة الثورة البلشفية (من الحكمة الدخول في حرب مباشرة ضد الإسلام الذي يدين به نحو أربعين مليوناً من الناس في قازان والتركستان والقوقاز الخاضعة لحكمهم فرأوا أن يخادعوا المسلمين ويهادوهم ليكسبوا المسلمين الأشداء إلى صفوفهم وهم المحتاجون لكل عون لثورتهم إبان قيامها.

(وبينما نجد الشيوعيين الروس يصدرون في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٩١٧ بيانا إلى جميع المسلمين يقولون فيه : نعلن من الآن فصاعدا أنكم أحرارٌ في دينكم وعاداتكم ومدارسكم القومية مصونة من أي تدخل ، فأسسوا لحياتكم القومية دون عائق حافظوا على الثورة وساعدوا حكومتها ... [١٠٤] .

نجدهم في عام ١٩٢٣ [١٠٥] يعلنون في مؤتمرهم الكبير بدء (الهجوم الماكر) على عقائد المسلمين الباطلة ؟! وبدء البناء العقائدي الشيوعي في قلوب وعقول النشء الجديد من مسلمي الشرق ...

أما شيوعيو البلدان العربية من الوجهة العقائدية فهم لا يختلفون بشيء عن شيوعيي العالم فهم يأخذون مبادئهم من تعاليم الحزب الرسمية الالزامية ومن كتب ماركس وانجلز ولينين والمفكرين الشيوعيين الرسميين ويقومون بالدعوة اليها وباقناع الناس بها .

وقد مارس الماركسيون دعايتهم ودعواهم عبر حلقاتهم ومنشوراتهم وصحفهم [١٠٦] والمطبوعات التي تصدرها السفارة السوفياتية في بيروت [١٠٧] فضلا عن نواديهم [١٠٨] وكتابهم وكتبهم .

---

(١٠٤) التضليل الاشتراكي ، ٨٣ .

(١٠٥) التضليل الاشتراكي وانظر ايضا الإسلام والمبادئ ص ٢٢ ، ٢٣ .

(١٠٦) من هذه الصحف صحيفة الأخبار الاسبوعية وصحيفة النداء اليومية وهما تصدران في بيروت .

ولعل أبرز هؤلاء الكتاب خالد بكداش زعيم الحزب فهو الذي عرب وألف وكتب وحاضر واليه يرجع الفضل في التنظيم الحزبي في الشرق العربي .

و لم يظهر الإتجاه الشيوعي ـــ في البلاد العربية ـــ عداوته للإسلام دفعة واحدة بل حاول دوما مخادعة الجماهير وكان بين الحين والآخر يدس سمه فيما يقول عنه الدسم .

وفي الآونة الأخيرة ظهر الطابع الماركسي عنيفا لدى كتاب تخصصوا ـــ على ما يبدو ـــ في التهجم على الإسلام والتشكيك به ... ومما يلفت النظر ان بعض هؤلاء يعملون أساتذة في الجامعة الأميركية في بيروت !! ومنهم الدكتور صادق جلال العظم صاحب مؤلف (نقد الفكر الديني) وقد صرح ـــ وهو صادق فيما يصرح ـــ انه ماركسي لا يؤمن بالله بل يعتبره ـــ ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ الاسراء ـــ وغيبياته كالجنة والنار والملائكة وابليس ـــ خرافات وأساطير كما انه زيف في كتابه هذا على الفكر الإسلامي وأوله تأويلا مسيخاً وأعلن (ان الله الذي مات في أوروبا يحتضر في كل مكان ..) .

وقد تولت صحيفة (النهار) البيروتية وملحقها والدستور وهما صحيفتان معروفتان بميولهما الغربية ، تضخيم الكاتب الماركسي وسلطت عليه وعلى مؤلفه الأضواء وسخرت صفحاتهما لخدمة فكرة الكتاب طيلة اكثر من ثلاثة اشهر وذلك في أواخر سنة ١٩٦٩ وبداية سنة ١٩٧٠ . فتأمل !!

---

(١٠٧) تصدر السفارة السوفياتية في بيروت مجلة شهرية ومطبوعات شبه دورية تتحدثان عن نشاط الحزب الشيوعي ومبادئه المتطورة وحياة رجاله وأبحاثهم ...

(١٠٨) يستتر الحزب الشيوعي في البلاد العربية وراء تجمعات مسموح بها كالنادي العربي وانصار السلم ؟ .

ولا بد أيضاً من لفت النظر ونحن في صدر الكلام عن الإتجاه الشيوعي ، الاستراتيجية انها اعتمدت على منظمات فدائية تمارس تحركها وفعاليتها من فوهة البندقية.

ولا شك ان لهذا معقبات كبيرة في التصور والمصير .

ونشير أخيراً إلى أن الصدام الفكري بين أجنحة الشيوعية وبصورة خاصة بين بكين وموسكو أوجد مشايعين لكل من الاتجاهين بين شيوعيي العرب وقومييهم ، فكان عندنا من مختلف الألوان الحمراء والصفراء ... وما قد يجد ..

الإتجاه الاشراكي

لم تظهر الإشتراكية في الشرق المسلم كاتجاه فكري متميز الا بعد عام ١٩٥٠ فهي بهذا المعنى قريبة العهد .

ومع انها كانت ردة فعل للشيوعية الفكرية فانها قد اكتسبت منها كثيرا من المبادئ وحتى الألفاظ والشعارات . ولم يرد أصحابها لها أن تكون منفصلة عن القومية فجعلوها مندمجة بها أو رسالة لها وهكذا أصبحت الإشتراكية تصوراً ونظام حياة ..

فالإشتراكية ، عند دعاة القومية ، ليست مذهباً اقتصادياً مجرداً إنما هي عقيدة ومبدأ ورسالة ونظام ...

ولقد رأينا كيف ان القوميين دعوا أو طالبوا بعقيدة شاملة لمختلف جوانب الحياة تخلق الإنسان العربي الجديد وتنظم المجتمع وتعطي معنى جديداً للأسرة وللمرأة وللحياة !!

وكانت هذه العقيدة هي الإشتراكية (فالإشتراكية العربية اذن هي تنمية الوعي القومي ... الذي يفسر مظاهر الحياة تفسيراً تكاملياً يستند إلى أنها مجموعة

عوامل وعناصر تتفاعل فيما بينها وتؤثر في بعضها البعض منها عوامل مادية ومنها عوامل معنوية وفيها الإقتصاد كما فيها السياسة كما فيها الفكر ... كما فيها العاطفة ...وكل هذه تتأثر ببعضها وتؤثر ببعضها والإشتراكية القومية هي ذات مضمون ومستلزمات وحدة وجوده القومي العربي ، انها الإيمان بهذا المجموع العربي الكبير وبحقه في الحياة الحرة الكريمة (١٠٩) .

(إن هذا المفهوم للاشتراكية العربية القائم على كونها ركيزة اساسية للوصول إلى القيمة الحقيقية للإنسان !! واعتبارها تعكس جانباً هاما من نظرته في الحياة تتجاوز الإشتراكية كإنتاج وتوزيع لتصل إلى ما وراء القومية وتعمل على تجسيدها في أنظمة ومفاهيم تنعكس في الحياة العربية اليومية ...(١١٠) .

أما البعثيون فإنهم يذهبون نفس المذهب بإيضاح أكثر فقد جاء في مقدمة كتاب (١١١) صدر في بيروت سنة ١٩٦٠ عن دار الطليعة ما نصه :

قد تختلف الآراء حول الأسباب الإجتماعية والسياسية التي أدت لظهور التفكير الإشتراكي في البلاد العربية ، ولكننا نستطيع أن نقول بدون تجاوز على الحقيقة بأن استقراء التاريخ السياسي في هذه الناحية يشير بكثير من الوضوح إلى أن التفكير الإشتراكي قد جاء نتيجة لليقظة القومية العامة التي طبعت تاريخ المنطقة منذ بداية هذا القرن . وعبارة أخرى كان ظهور التفكير الإشتراكي تعبيرا عن تقدمية الفكرة العربية منذ البداية) .

وتقول الدراسة (يمر المجتمع العربي الحاضر في مرحلة تغيير اصلاحي في أوضاعه العامة . وهدف الإشتراكية هو تجديد أسس هذا التغيير أي جعله يسير

(١٠٩) مع القومية العربية ، ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(١١٠) المصدر السابق ص ١٧٣ .

(١١١) دراسات في الاشتراكية لميشيل عفلق ، ومنيف الرزاز ، ومصطفى الملاح ، وسواهم من كبار قادة البعث العربي الاشتراكي ، المقدمة ص ٧ الى ١٤.

الآن في اتجاه يؤدي لتحويل المجتمع في المستقبل إلى مجتمع اشتراكي .. فالفرق بين التقدم الإجتماعي وبين الإشتراكية هو أن مقياس الأول نسبي لأنه مرتبط بالواقع المختلف الذي يبدأ منه في حين ان مقياس الإشتراكية ثابت مطلق لأنه مشتق من قيم غير نسبية وهي تحرير الإنسان وحفظ كرامته ومنع استغلاله وتنشيط قوى الإبداع فيه .. وتنمية ميول الخير في نفسه ... وتحقيق حريته بأوسع معانيها ...

ويقولون (بنفس المنطق يمننا ان نقول بأن الإشتراكية لا تقتصر على الناحية الإقتصادية بل يجب ان تطبع كل جوانب المجتمع الأخرى من ثقافية واجتماعية وسياسية فتتخذ شكل نزعة تقدمية تحررية عامة شاملة ... اذ لا يمكننا ان نتصور مجتمعنا اشتراكياً صحيحاً تتحقق فيه العدالة في توزيع الثروة في حين يبقى نظام التعليم فيه مثلا رجعياً ... يؤكد قيم المجتمع المتخلف ... وينشر الأفكار المحافظة ... ويقدس التقاليد البالية ...

ويقولون أيضاً ومن المبادئ الأساسية الأخرى في الإشتراكية العربية هو الثورية في معالجة قضية المجتمع ومبدأ الثورية ... هذا مشتق من النظرة العلمية التي تعتمدها الحركة الإشتراكية في البحث والتحليل ... لا بد لكي يتحقق المجتمع العربي الإشتراكي من تجمع القوى التقدمية وتنظيمها وتوجيهها حسب العقيدة الإشتراكية والهجوم بها على الرجعية والأوضاع المتخلفة [١١٢] .

وكالقومية غدت الإشتراكية مذهباً سياسياً في بعض الدول العربية فقد تبنت مصر وسوريا خاصة الإتجاه الإشتراكي (ولم تصبح الإشتراكية ذات شأن إلا حين قرر الرئيس عبد الناصر في تموز سنة ١٩٦١ تطبيق الخطوات الأولى من الإشتراكية فكانت مصر بذلك اول بلد اشتراكي النظام في العالم العربي [١١٣] .

---

(١١٢) لا يعجب القارئ فهو يقرأ هنا لاشتراكية عربية لا لاشتراكية ماركسية ... حاول ــ بكل قواك وجهودك وذكائك ــ ان تكتشف الفرق بين الاثنين .

(١١٣) التضليل الإشتراكي ، صلاح منجد ، ص ٢٥ .

وصدر بعد ذلك ، في الجمهورية العربية المتحدة الميثاق وفيه نرى نوع الإشتراكية المتبناة جاء في الميثاق . الإشتراكية العلمية ..هي الصبغة الملائمة لايجاد المنهج الصحيح للتقدم ... إن اي منهج آخر لا يستطيع بالقطع ان يحقق التقدم المنشود (ص ٧٣) .

ويقول في الباب السادس (ص ٧١) ان الحل الإشتراكي لمشكلة التخلف الإقتصادي والإجتماعي في مصر ـــ وصولاً ثورياً إلى التقدم ـــ لم يكن افتراضياً على الإنتقاء الإختياري ... وإنما كان الحل الإشتراكي حتمية تاريخية ، مزقها الواقع ، وفرضتها الآمال العريضة للجماهير ...) .

وعلى هذا الأساس بدأ الكتاب المصريون يكتبون في الإشتراكية ككتاب [١١٤] الأستاذ مصطفى المستكاوي الذي أورد فيه ما نصه :

(الإشتراكية هي مسألة عقيدة اعتنقها الشعب العربي كله من حدود ايران في الشرق حتى مشارق المغرب على المحيط الاطلسي . الإشتراكية فكرة تعمقت في عقل المواطن العربي . مسألة روح حية سرت في جسده ، مسألة إيمان ... دخل قلبه مسألة ثورة اعتملت في نفسه) ص ٢٩ .

وكتب احمد حسن الزيات في مجلة الرسالة [١١٥] يقول (هل أنت قوي الرجاء في أن النظام الإشتراكي يدوم ما دامت الأمة ويقوم في البلاد العربية ما دامت العروبة ويقيه الله شر الرجعية والرأسمالية والكراهية ، حتى يتأصل في الأمة ويتوثق فيجري في القلوب ... مجرى الدم وفي النفوس ... مجرى العقيدة .

(١١٤) في التطبيق الاشتراكي اصدرته الدار القومية الحكومية ونقل هذه الفقرات الدكتور المنجد في كتابه التضليل الاشتراكي ص ٤٦ .

(١١٥) مجلة الرسالة العدد ١١٠٣ ن ٤ ىئذار سنة ١٩٦٥ تحت عنوان الاشتراكية حب ، راجع المصدر السابق ص ٥٨ .

(إذا كانت أجوبتك على هذه الأسئلة بالإيجاب كنت اشتراكياً بدمك وعقلك وعصبك وهواك ... وإن كانت أجوبتك عن أكثرها أو عن أقلها بالنفي فأنت اشتراكي مغلق ... فج تحتاج إلى تفتح ونضج) .

ومن خلال هذه المعاني كتب البعثيون القطريون في سوريا في تحديد معنى الإنسان العربي الإشتراكي الجديد وفي لبنان وفي بيان طريق خلقه وابداعه فقالوا .[116]

(استنجدت امة العرب بالاله . فتشت عن القيم القومية في الإسلام والمسيحية ... استعانت بالنظام الاقطاعي ، والرأسمالي وبعض النظم المعروفة في العصور الوسطى ، كل ذلك لم يجد فتيلا . ومع كل هذا شمرت امة العرب عن ساعديها ونظرت بعيدا ... لترى طفلها الوليد يقترب شيئا فشيئا ... وهذا الوليد ليس الا الإنسان العربي الإشتراكي الجديد.

(الإنسان المتمرد على جميع القيم المريضة الهزيلة في مجتمعه ... التي هي ليست إلا وليدة الإقطاع والرأسمال والإستعمار ... تلك القيم التي جعلت من الإنسان العربي انساناً متخاذلاً متواكلاً ، انساناً جبريا مستسلماً للقدر .. إنساناً لا يعرف إلا أن يقول ، لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم) .

(أما القيم الجديدة التي ستخلق الإنسان العربي الجديد فهي قيم نابعة من صلب الإنسان المتمرد المعذب ، نابعة من قلب الإنسان الجائع نابعة من الإنسان الإشتراكي الثوري الجديد ، الذي لا يؤمن إلا بالإنسان ، وبالإنسان وحده...

(والطريق الوحيد لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي هي خلق الإنسان الإشتراكي العربي الجديد الذي يؤمن أن الله والأديان ، والإقطاع

([116]) وعبر عن رأيهم هذا المرشح ابراهيم خلاص احد العسكريين السوريين البعثيين وقد جاءت هذه المقالة في مجلة جيش الشعب الرسمية والناطقة باسم ذلك الجيش في شهر ايار سنة ١٩٦٧ قبل هزيمة حزيران بشهر تقريبا فتأمل !

والرأسمال والإستعمار ، والمتخمين وكل القيم التي سادت المجتمع السابق ليست الا دمى محنطة في متاحف التاريخ.

(ونحن ، إذ نشترط في انساننا الجديد رفضه للقيم السابقة علينا أن نضع قيماً جديدة محدودة ... ليست هناك سوى قيمة واحدة وهي الإيمان المطلق بالإنسان القدري الجديد ... الإنسان الذي لا يعتمد إلا على نفسه وعمله وما يقدمه للبشرية جمعاء لأنه يعلم نهايته الحتمية ... الموت ... وليس غير الموت لن يكون هناك نعيم أو جحيم ... بل سيصبح ذرة تدور مع دوران الأرض . لذلك هو مضطر إلى أن يقدم كل ما يملك لأمته ولإنسانيته دونما مقابل "كزاوية صغيرة في الجنة مثلا").

ولا بد هنا أيضاً من طرح السؤال من جديد هل يريد منا أعداء الإسلام ، صليبيون ومستشرقون ومبشرون وشيوعيون الخ .. أكثر من ذلك : ان يخرج ناس منا ومن أبناء جلدتنا ويتكلمون لغتنا يطعنون في ديننا وإسلامنا .

الإتجاه العلماني

ونتيجة لما تقدم ابتداء من محور التبشير والإستشراق وانتهاء باتجاهي القومية والإشتراكية فقد طرحت مسألة علمنة الدولة على صعيد رسمي ... فالشباب المثقف وخريجو الجامعات والعائدون من الغرب والشرق وحملة الأفكار القومية والإشتراكية جميع هؤلاء لا يدينون بدين الإسلام العقيدة والمنهاج بل على العكس فإن معظمهم يطالب بعقيدة جديدة تعلاج موضوعات الكون والإنسان والحياة وتحقق الإنسان العربي الإشتراكي الجديد .. أو التركي الجديد ... أو الايراني الجديد .

وهكذا غدت مسالة العلمانية أي فصل الدين عن الدولة وابعاد الدين إلى التكايا ومحاربته ، مسألة مفروغاً منها عند من يعدون أنفسهم طليعة الأمة وساسة البلاد ؟

وعندهم ان انقلاب مصطفى كمال في تركيا على الخلافة ثم اعلانه الجمهورية مع قبوله بالإسلام ديناً ثم تعديله الدستور واعلان علمنة الدولة وتحظير الدعوة الدينية وسنه القوانين أضخم تجربة علمانية لأبناء الشرق المسلم يمكن ان تقلد أو تحاكى (١١٧) .

ومما لا جدال فيه ان الإتجاه العلماني إنما يقصد الإسلام فقط إذ إن الإسلام هو دين الغالبية وهو فضلا عن ذلك الدين الوحيد الذي يملك منهج حياة وتنظيماً لكل شؤون الدولة ومرافقها ، اما المسيحية فهي أصلا ، قد قامت على فصل الدين عن الدولة اي على العلمانية (اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله).

وهناك أمر آخر في لبنان زاد مسالة العلمانية حدة وقوة فالوضع الطائفي الخطر يوحي دائماً إلى المثقفين والأحزاب بضرورة علمنة الدولة (١١٨) كطريق وحيد لانهاء الإنقسام في لبنان ... وفي الوطن العربي .

والحقيقة أن الطائفية بمعنى الخصومة وعدم التعايش بين المسلمين والمسيحيين لم تنشأ إلا عندما تدخل الأوروبيون مبشرون ومستعمرون في شؤون

---

(١١٧) راجع ما كتبناه في فصل كيف دالت دولة الإسلام .

(١١٨) المادة **الثامنة** من عقيدة الحزب التقدمي الاشتراكي في لبنان : علمانية في الدولة وحرية المعتقدات والغاء نظام الطائفية السياسية

المادة **الثالثة** من المبادئ الاساسية لحزب الكتائب (قومية علمانية تحترم جميع الأديان والمعتقدات وتأبى ان يكون للدولة دين او معتقد خاص بها

المادة **التاسعة** من الحزب القومي السوري الاجتماعي (فصل الدين عن الدولة) . وأول نقطة في مخطط علمانية الدولة ، راجع الأحزاب السياسية في لبنان لتوفيق المقدسي ولوسيان جورج .

الدولة العثمانية [١١٩] وعندما جهل كل من الفريقين المسلمين والمسيحيين روح الدين وصفاء العقيدة .

الإتجاه الفلسفي

لقد تأثر الشرق المسلم بدراسات الغرب الفلسفية كما تأثر بسائر الأفكار القومية والإشتراكية . فقد غزت الأفكار الفلسفية عقول الشباب المسلم واستطاعت أن توجد لها المؤيدين والتلامذة الذين سرعان ما أسسوا المدارس الفلسفية وأصدروا المجلات وألفوا الكتب وألقوا المحاضرات وقاموا بنشاط كبير ملموس دعاية لفلسفة معينة أو اتجاه فلسفي عام .

ومن الأفكار الفلسفية الغازية ما يختص بفكر الإنسان وتصوره كالحسية الوضعية والعقلية والوجودية ومنها ما يتعلق بنظرة للكون والإنسان والحياة كالمادية الماركسية .

محور الجمعيات والاحزاب

لعبت الجمعيات والأحزاب القومية والسياسية والفكرية وحتى الطبية دوراً بارزاً في أحداث الشرق المسلم ولا تزال تقوم بالأعباء والمهمات التي عجزت الصليبية واليهودية عن تحقيقها بوجه سافر . ولا نقول أن جميع أحزاب وجمعيات المنطقة تقوم عن قصد بخدمة هذه الأغراض الملوثة إذ إنه قد تكون بعض هذه المنظمات قد نشأت بغية تحقيق أهداف أخرى إلا أنها اتفقت في نشاطها وسائلها وغاياتها البعيدة مع ما نشأ عن قصد وعن دراسة ...

إن خطر هذا المحور قيامه على التنظيم والتنسيق والمتابعة ، فالقومية مثلا ليست بالنسبة لهذه المنظمات ايدولوجية فحسب ، محاضرات تلقى وكتباً تنشر

---

(١١٩) انظر الطائفية والاقطاعية في لبنان والتبشير والاستعمار وتاريخ لبنان .

إنما هي فوق هذا ، تعهد للعناصر التي آمنت بالعقيدة الجديدة وتربية لهم وتكوين وتنظيم وتدريب حتى يصبحوا دعاة للمنهج الحزبي فاعلين مؤثرين في الرأي العام واتجاه الأمة .

والقاسم المشترك لأكثر منظمات الشرق المسلم أنها وليدة التفكير الغربي أو هي من وحي سياستي (التغريب أو التهويد) العالميتين ــ على ما فيهما من تضارب في بعض الأحيان ــ الداعيتين إلى وجوب إبعاد الإسلام عن ميدان الحياة وتفتيت قواه ومؤسساته مهما عظمت التضحيات وغلا الثمن .

(وكثيرا ما نرى جمعيات محلية أو دولية أو مؤسسات اجتماعية أو خيرية أو رياضية أو ثقافية أو مؤسسات تعمل ظاهراً للكشف عن الآثار أو للتبشير في الظاهر وهي إنما تعمل في الباطن لتخريب المجتمع فتعلن عن أهداف براقة مرغوبة جدا ولكنها تعمل ــ في حقيقة الأمر على إثارة النزاع الطائفي أو التعصب العرقي أو بلبلة أوضاع المجتمع بمختلف الأساليب الشيطانية أو تعمد إلى أسلوب تكتمي للغاية ...كأن تستر راء اهدافها العلنية ، أهدافا سرية تناقض مصالح المجتمع وتهدم دعائمه .

(إن هذه القوى وفي حقيقة الأمر ، ليست إلا قوى احتياطية يستخدمها المستعمرون لسند هدفهم الأساسي ، لذلك نجدهم يشجعونها ويبذلون العون المادي والمعنوي العلني والسري لها ... ويجمعون أقطابها وقادتها عند اللزوم ويسهلون لهم تسلم أسمى المناصب في ديارهم ودولهم . لذا نراهم ينتقلون في دوائر الدولة بسرعة إذ يسند بعضهم بعضاً ويتكاتفون تكاتفاً عجيباً وغريبا ويستفيدون كثيراً من الشركات الإستثمارية ، خاصة ما كان لها طابع عالمي أو كانت تابعة لاحتكارات أجنبية فيتولون إدارتها أو مهمة الدفاع عنها كمحامين

أو وكلاء وغير ذلك من المهام لقاء مبالغ كبيرة تقوم بدورها لدعم مراكزهم في المجتمع وتضاعف نفوذهم بين الناس [١٢٠]) .

١ ــ الماسونية تحتضن رجال الحكم ومؤسسي الأحزاب :

ولعل أخطر الجمعيات في الشرق التي نشأت قديماً ولا تزال على قيد الحياة وتنفرد بأعمال مشبوهة وتضفي على نفسها وأشخاصها والعاملين فيها ومشروعاتها طابع السرية المطلق هي الماسونية .

ومن المعروف لدى الجميع أن الماسونية حركة يهودية ذات أسرار ودرجات هدفها الأكبر قيام دولة إسرائيل في فلسطين والتحكم في سير الشرق المسلم خاصة والعالم بأسره عامة ... ومع هذا فإننا نجد كثيراً من ساسة بلاد الشرق ومثقفيه وعلمائه وشخصياته أعضاء كباراً في محافل هذه الجمعية الخطرة.

ونكتفي ، هنا أن نشير إلى أهداف الماسونية كما أعلنت ذلك مجلة أكاسيا الماسونية الإيطالية سنة ١٩٠٤ قالت المجلة [١٢١] :

(ومن أهداف الماسونية محاربة الأديان وصيانة الدول اللادينية ... العلمانية .. ولذا فهي تستسيغ الإرهاب بالتجرد عن مفاهيم الأخلاق والضمير .. ويجب أن تكون الماسونية مرنة حسب الظروف والأوضاع) .

يقول الأستاذ عمر الحكيم (وتمكن اليهود من تأسيس الحزب الماسوني في الدولة العثمانية وكانت غايته استخدام رجالات الدول العثمانية للحصول منهم على المساعدة اللازمة لفتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود من شتى أنحاء العالم

---

(١٢٠) المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام للاستاذ محمد محمود الصواف ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

(١٢١) نقلا عن الماسونية أقدم الجمعيات السرية وأخطرها ص ٢٣ وبهذا المعنى ما قاله زيل الماسوني في النشرة الرسمية للشرق الأعظم الفرنسي (على الماسون ان يتحرروا من كل اعتقاد بوجود الله لأنه لم يبق احد يؤمن بالله الا البله والحمقى ويجب عليهم ان يتصوروا انه ينبوع كل استبداد وظلم) راجع المخططات الاستعمارية ، ص ٢٨٧ .

وإقامة وطن يهودي قومي فيها باسم (الأخوة الماسونية) التي لا تعرف وطناً ولا ديناً ولا عنصراً في الظاهر وهي في الحقيقة مؤسسة يهودية عالمية تسعى إلى تسخير رجالات العالم أجمع ... والداخلين في هذا الحزب إلى خدمة مآرب الصهيونية تحت ستار الأخوة الإنسانية ونصرة الإنسانية .. وقد لعبت المنظمات الماسونية دوراً بالغاً في حرب فلسطين فقد أوعزت إلى جميع أعضائها في البلاد العربية بتأييد قيام إسرائيل .. [١٢٢] .

ولقد رأينا كيف احتضنت الماسونية في تركيا وفي الغرب وفي كل مكان من الدولة العثمانية ، جمعية الإتحاد والترقي ، وكيف خططت لها وساعدتها في الانقلاب على السلطنة وكيف سهلت السبل لليهودي مصطفى كمال حتى وصل إلى ما وصل اليه وألغى الخلافة الاسمية الإسلامية [١٢٣] .

وكذلك فقد احتضنت الماسونية في بيروت أكثر الجمعيات الأدبية والفكرية والقومية التي نشأت في العهد العثماني بغية الانفصال أو لأي هدف سياسي أو فكري آخر.

يقول جورج انطونيوس [١٢٤] (يرجع اول جهد منظم في حركة العرب القومية ... إلى سنة ١٨٧٥ ... حين الف خمسة شبان من الذين درسوا في الكلية البروتستنتينية السورية ببيروت جمعية سرية ... وكانوا جميعاً نصارى ... ولكنهم أدركوا قيمة انضمام المسلمين والدروز اليهم . فاستطاعوا ان يضموا إلى الجمعية نحو اثنين وعشرين شخصا ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية ويمثلون الصفوة المختارة ... المستنيرة في البلاد . وكانت الماسونية قد دخلت قبل ذلك

([١٢٢]) حاضر العالم الإسلامي ، ص ٩٨ .

([١٢٣]) راجع ما كتبناه في الفصل السابق .

([١٢٤]) كتاب يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية كتبه بالانكليزية جورج انطونيوس وهو لبناني من دير القمر وعربه الدكتوران ناصر الدين الاسد واحسان عباس ، ص ١٤٩ .

بلاد الشام على صورتها التي عرفتها اوروبا ... فاستطاع مؤسسو الجمعية السرية عن طريق احد زملائهم ان يستميلوا اليهم المحفل الماسوني ... الذي كان قد انشئ من عهد قريب ويشركوه في اعمالهم) .

والى جانب الجمعيات التي نشأت هنا وهناك [١٢٥] قامت الأحزاب السياسية والعقائدية في طول البلاد وعرضها ... وأبرز صفة في نشأة الأحزاب القومية والعقائدية هي ان هذه الأحزاب ترعرعت في الجامعة الأميركية في بيروت وان زعماءها الفكريين مفلسفي لاعقيدة هم من المسيحيين الذين درسوا في معاهد التبشير وتخرجوا من جامعات الشرق الأميركية أو الفرنسية أو من معاهد باريس ...

يقول جورج انطونيوس في كتابه يقظة العرب بدأت قصة الحركة القومية للعرب في بلاد الشام سنة ١٨٤٧ بانشاء جمعية ادبية قليلة الأعضاء في بيروت في ظل رعاية اميركية [١٢٦] .

ويوم نشب الصراع العقائدي في بيروت بين منظمة الكتائب التي تدعو إلى وطنية لبنانية ... وبين الحزب القومي السوري الإجتماعي الذي يدعو إلى وحدة بلاد الشام ــ خاصة بعد محاولة الحزب الانقلابية عام ١٩٤٩ ــ تكشفت حقائق ــ كانت عن اعين الكثيرين ــ محجوبة . فالكتائب طالبت السلطات اللبنانية باغلاق الجامعة الأميركية لأنها (بؤرة ملأى بالدس على لبنان وعلى كيانه . ان أكثر الضالين من اللبنانيين ضلوا بين احضانها وكل المهوشين علينا من جيراننا تلقنوا بغض لبنان وأساليب السعي ضده تحت اكنافها وهل كانت حركة انطون سعادة تمكنت لو لم تجد لها ارضا خصبة في تلاميذ الجامعة الأميركية

---

(١٢٥) نذكر منها : جمعية العلوم والفنون ــ الجمعية الشرقية ــ رابطة الوطن العربي والجمعية العربية الفتاة وحزب اللامركزية والمنتدى الأدبي ... الخ .

(١٢٦) يقظة العرب ، ص ٧١ .

لبنانيين وغير لبنانيين) [١٢٧] وردا على هذا النداء سمعنا من يقول [١٢٨] (فاذا كان المقصود من الضلال ، ارباب العقيدة العربية السليمة ... فإن طلبة الجامعة ليفتخرون بعهد ايقظ فيهم روح العزة العربية .. وجميع ابناء البلاد العربية في حظيرة هذه القومية .. وانهم يشفقون على مقتفي قوميات شعوبية سواء كانت قوميات لبنانية أو فينيقية أو سورية .

(... ان مليون حجة تبنى على قومية لا تقنع سوريا أو عراقيا بفساد نظرية القومية السورية بل الاقناع يتأتى من التطلع إلى قومية واسعة ناسخة هي القومية العربية ان هذه المهمة يتبرع بها طلاب الجامعة الأميركية وهو رسل القومية العربية في اتحاد الشرق العربي وحملة اعلام التحرر والاستقلال يوم كان طلاب المعاهد الأخرى يغوصون في عبادة الإستعمار إلى ما فوق الرقاب[١٢٩] .

وهكذا نرى بوضوح ، دور الجامعات الأجنبية في تخريج الأفكار الحزبية القومية والشعوبية واللادينية .

٣ ــ حزب القومي السوري الإجتماعي :

فأنطون سعادة ، كما يقول عبد الله قبرصي احد زعماء الحزب الكبار ، عندما اسس الحزب القومي الإجتماعي عام ١٩٣٢ انما قام بعملية بعث ، فهو لم يوقظ الوجدان القومي بل انه صاغ في (القومية الإجتماعية) فلسفة ثمينة بأن تنقذ العالم كله من آفة الشيوعية ومن الحروب ومن سباق التسلح بين الدول الكبرى ومن التفسخ الإجتماعي والانهيار الإقتصادي والمناقبي .

---

(١٢٧) جريدة العمل ٩ تموز ١٩٤٩ انظر التبشير والاستعمار ص ٩٠ ــ ٢١ .

(١٢٨) جريدة الديار ١٠ تموز ١٩٤٩ انظر المرجع السابق .

(١٢٩) اشارة الى الكتائب والى زعمائهم المتخرجين من الجامعة اليسوعية .

(ونحن ، اي الحزب القومي الإجتماعي خريج الجامعة الأميركية ، لم نخلق (الأمة السورية) بل اكتشفناها بعد ان تكاثقفت فوقها أجيال من التجزئة والعبودية والانحطاط المرضي . فقد وجدت (الأمة السورية) قبل الميلاد ، وقبل الفتح العربي بأمد طويل ، حين كانت المدن الفينيقية بالرغم من تصارعها مع بعضها تتكاتف وتتوحد لترد كل فاتح اجنبي وحين كانت على الرغم من التراعات الداخلية التي تمزقها وتدميها وتنهكها تستيقظ آنا بعد آخر وتستعيد قوتها على الخلق والابداع ، لتنفح تايخ الإنسانية بأثر حضاري خالد...) [١٣٠] .

٤ ـــ القوميون العرب :

(أما القوميون العرب أو حركة القوميين العرب أو الشباب القومي العربي (فهم) نمط من التفكير السياسي ، تكون في لبنان منذ اكثر من عشرين سنة وتوزع على مختلف انحاء العالم العربي في سوريا والأردن والعراق وليبيا وتونس والسودات ومراكش والكويت والسعودية ... وكانت نواة (القوميين العرب) أو هذا النمط من التفكير السياسي في نادي (العروة الوثقى) لطلاب الجامعة الأميركية ..) .

لقد مر حدثان في مجرى تاريخ البلاد العربية كان لهما اثر فعال جدا في وضعية القوميين العرب الراهنة هذان الحدثان هما نكبة فلسطين وقيام حلف بغداد.

وبالفعل فقد شهدت العروة الوثقى [١٣١] في الجامعة الأميركية في بيروت .. بعد ان حدثت هجرة الفلسطينيين إلى البلاد العربية نشاطا كبيرا ، ذلك ان

([١٣٠]) الأحزاب السياسية في لبنان ١٩٥٩ لتوفيق المقدسي ولوسيان جورج منشورات جريدة الجريدة في لبنان .

([١٣١]) جاء في ملف النهار العالم العربي اليوم ، الفلسطينيون في لبنان عدد ٣ تعريفا للعروة الوثقى ص ٥ وهو التالي : (كانت تستقطب طلاب الجامعة الذين يؤمنون (بالقومية العربية) جمعية سميت نفسها (جمعية العروة الوثقى) تألفت هذه من المتحمسين

معظم الشباب الفلسطيني القادر كان يلتحق بهذه الجامعة ، وينتسب للعروة الوثقى ، فيمارس عن طريقها ، نشاطه السياسي والقومي .

(.. والقومية العربية هذه تتخذ معان شتى في اذهان الشباب القومي العربي المتخرج من الجامعة الاميركية فهناك :

اولا : فئة القوميين العرب الواعين ، الذين يفهمون دعوتهم على انها سبيل للتحرر من سيطرة الإستعمار الغربي ولتحقيق وحدة عربية ترضي نزعة نفوسهم الطامحة .

ثانيا : فئة القوميين الذين يعادون في بلدانهم العربية الظلم الإجتماعي فيجدون في القومية العربية تباشير مستقبل ومنفسا للكبت النفسي الذي يعانونه ويتألمون منه خصوصا بعد ان تنفتح اعينهم على أضواء المعرفة.

ثالثا : فئة القوميين العرب من ابناء الأسر الحاكمة أو الطبقات الإجتماعية الغنية هؤلاء يجدون في الدعوة القومية العربية مجالا للسير في ركب الأفكار التقدمية أو لمسايرته دون ان يتنازلوا عن شيء من امتيازاتهم الموروثة [١٣٢] . ومن الزعماء الفكريين والمنظمين الكبار لحركة القوميين العرب الدكتور جورج حبش !!

٥ ـــ حزب البعث العربي الاشتراكي :

وقبل القوميين العرب نشا حزب البعث العربي في سوريا عام ١٩٤٠ بقيادة الاستاذ ميشيل عفلق ـــ خريج مدارس التبشير في دمشق وباريس ! ـــ بالتعاون مع لفيف من اساتذة سوريا وقد لاقى هذا الحزب صدى بعيد المدى في

للقومية العربية المعارضة للاشتراكية ، المطالبة بمصالحة الغرب ، ومناصرة اميركا في سعيها لازاحة الاستعمار التقليدي القديم (الانكليزي ـــ الفرنسي) وكان هؤلاء يعتبرون اميركا رائدة التقدمية والديمقراطية والحرية ، ويحملون لواءها) .

(١٣٢) المصدر السابق ص ٥٦ ـــ ٥٧ ـــ ٥٩ .

اوساط المثقفين والطلاب من العراق والأردن فضلا عن سوريا وذلك لدعوته إلى بعث القومية العربية على اسسس اشتراكية ! ثم اتحد الحزب العربي الاشتراكي الذي اسسه أكرم الحوراني سنة ١٩٥١ والقائم اساسا على الدعوة الاشتراكية وتولد عن الإتحاد حزب البعث العربي الاشتراكي سنة ١٩٥٣ .

ولقد مزج هذا الحزب فكرة اشتراكية اقتصادية بفكرة قومية غامضة وربح عددا كبيرا من الأنصار في الشرق العربي وكان هذا الحزب بالاضافة إلى الحزب الشيوعي الحزب الوحيد الذي يحمل ايدولوجية منظمة ! وأسس شبكة واسعة من الفروع ، اما اتباعه فكانوا من المتعلمين ... ومن الطبقة العاملة [١٣٣] .

٦ ــ الحزب الشيوعي :

(اما الحزب الشيوعي فقد نشأ أول ما نشأ في لبنان ١٩٢٥ على شكل منظمات وتيار فكري عقائدي ، يتجلى في الكتب المعربة والصحف والمجلات التي كانت تصدرها هذه المنظمات من الشباب المثقف و لم ينظم الشيوعيون هنا في اطار حزبي بالمفهوم الشيوعي الا عام ١٩٣٠ [١٣٤] .

(وعندما تشكل الحزب قرر ان يسير على خط عقائدي واضح في تكوين الأعضاء مهما بلغت التضحيات وتلكأ السير ، لذلك اعلن الحزب موقفه من الثقافة الحزبية والموضوعات التي يجب ان يتناولها ــ والتي تعتبر دستور الحزب ــ بالأمور التالية :

اولا : درس تاريخ الحزب البلشفي لنشره خارج الحزب بين جماهير الشعب ومن واجب القيادة المركزية واللجان المناطقية ان تساعد الكادر وكل

([١٣٣]) الغرب والشرق الأوسط برنارد لويس ص ٩٦ ــ ٩٧ .

([١٣٤]) الأحزاب السياسية صنة ١٩٥٩ .

الأعضاء على درس الفصول المترجمة الموجودة بين أيدي المنظمات مع العمل الجدي لوضع بقية الفصول بين أيديهم بدون تأخير .

ثانيا : تأليف لجنة ثقافية في كل منطقة مهمتها المساعدة في تدريس تاريخ الحزب وكل العمل الثقافي .

ثالثا : فتح باب ثقافي في جريدة الحزب (نضال الشعب) ومساهمة جميع المنظمات فيها.

رابعا : معالجة القضايا التي تضعها المقررات على اساس نظري مع الاستشهاد بكتابات لماركس وانجليز ولينين وستالين .

خامسا : شرح تعاليم لينين وستالين عن الستراتيجي والتاكتيك .. (١٣٥) .

وانتشر الحزب الشيوعي في أكثر بلاد الشرق المسلم وكون الخلايا الحزبية المنظمة واستطاع ان يستميل اليه كثيرا من الشباب المثقف والعمال .

ويبدو ان اليهودية العالمية قد عملت على تأسيس فروع للحزب في كافة ارجاء الوطن العربي ، فقد نشرت جريدة الشهاب البيروتية تحقيقا عن نشأة الأحزاب الشيوعية في عددها الصادر في ١٩٧٠/٨/١ جاء فيه :

(فقد اسس اول حزب شيوعي في فلسطين عام ١٩٢٢ على ايدي اليهوديين الروسيين (ابو زيام ، وباكوب تيبر) .

وقد سافر ياكوب تيبر إلى بيروت عام ١٩٢٤ حيث استطاع ان يؤسس مع اليهودي جوزيف برغر الحزب الشيوعي اللبناني ، وامتد نشاط هذا الحزب إلى سوريا حيث استطاع هؤلاء اليهود مع بعض العرب تأسيس الحزب الشيوعي السوري اللبناني .

---

(١٣٥) الشيوعية المحلية ومعركة العرب القومية لحكم دروزه الطبعة الأولى سنة ٩٦١ ص ١٤١ .

اما في العراق فقد اسس الحزب الشيوعي العراقي عام ١٩٣٤ على ايدي اليهود امثال صديق يهودا ، وساسون دلال ويعقوب كوجمان .

اما في مصر فقد اسس اليهوديان الروسيان فيجدور ، ناداب عام ١٩٤٢ (الحركة المصرية للتحرر الوطني) ومول هذه الحركة اليهدوي الايطالي الأصل هنري كوريل الملقب بالرفيق يونس وصاحب بنك كوريل في القاهرة ، كما الف اليهودي هيكل شفاتس منظمة الايسكرات الشيوعية وقد اتحدت هاتان المنظمتان عام ١٩٤٧ تحت اسم الحركة الديمقراطية المصرية للتحرير الوطني المعروفة باسم (حدتو) . كما اسسس اليهودي مرسيل اسرائيل عام ١٩٤٢ منظمة تحرير الشعب الشيوعية ، كما اسس اليهودالمقيمون في مصر غير هذه المنظمات حتى بلغ عدد الواجهات الشيوعية في مصر اربعة عشر منظمة ، وفي عام ١٩٥٦ دعا الحزب الشيوعي الايطالي ؤساء هذه المنظمات إلى الإتحاد ــ بوحي من موسكو ــ ، وبعد مفاوضات اتحدت هذه المنظمات في يناير ١٩٥٨ تحت اسم (الحزب الشيوعي المصري) .

ويعتمد الحزب فضلا عن الصحف والمجلات والكتب المعربة على ما تصدره السفارات الروسية في بلدان الشرق من نشرات ورسائل ودراسات وبيانات[١٣٦]

محور التشكيك بالإسلام : العقيدة والحركة

ولعل هذا المحور اخطر المحاور في الهجوم عل الشرق المسلم ويهدف هذا المحور إلى اثارة شبهات كثيرة حول الإسلام العقيدة والمنهاج ، والى التشكيك

---

(١٣٦) نذكر منها على سبيل المثال : (الاشتراكية هي السلام والصداقة بين الشعوب ــ بيان من الحكومة السوفياتية ــ الاستعمار يغير وجهه لكنه لا يغير عاداته ــ استراتيجية العقل ــ رسالة مقدمة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الى المنظمات الحزبية وجميع الشيوعيين في الاتحاد السوفياتي) ...

بأفكاره ومعالجته شؤون العصر المتجددة والى الطعن بكل حركة إسلامية تقوم بالدعوة إلى الله ...

ويستخدم هذا المحور لتحقيق اهدافه كل وسيلة ممكنة . والمحور في حقيقته وسيلة مشتركة بين جميع المحاور ... لذلك رأينا كافة المحاور تثير حول الإسلام والعاملين له الغبار متهمة اياهم بشتى الأكاذيب والأراجيف .

والمدقق يجد ان هذا الإتجاه قد آتى أكله فكثير من شباب المسلمين قد شكوا في إسلامهم وتخلوا عنه وتحولوا إلى سواه من عقائد البشر وفلسفات العصر ... حتى غدوت ترى مخالفة الإسلام في كل صغيرة وكبيرة وتكاد لا تجد من ينكر هذا الواقع الفاسد المظلم.

لقد فقد المسلم حسه الإسلامي وتصوره الإسلامي وحياته الإسلامية ... وشب اولاد المسلمين على انحراف كبير في القيم والسلوك .. وارتكست الحياة العامة والخاصة للشرق المسلم في جاهلية قد تكون اشد من جاهلية ما قبل الإسلام .

ولا ينغص على هذا المحور حياته الا وجود الحركات الإسلامية تلك الحركات التي تصدت بقوة وجرأة وبوعي واخلاص لمحاربة شتى المحاور ولمقاومة الهجوم الماكر ... فكان لا بد لهذه المحاور بغية تأمين النصر الكاسح لها من تغييب الحركة الإسلامية عن معترك الصراع . فتعاوة الإستعمار بشقيه الغربي والشرقي والصليبية الدولية واليهودية العالمية لتحقيق هذه الأغراض فوجهت الضربات إلى هذه الحركات وشوهت حقائقها ومناهجها ... حتى كاد يجزم الباحث المدق ان وراء كل ضربة أو تشويه لحركة إسلامية عاملة في الشرق المسلم خطة استعمارية دولية .

وحين يتقرر هذا كله تتضح معه شناعة الجريمة التي يرتكبها أولئك الذين يوجهون الضربات الوحشية لطلائع البعث الإسلامي في كل مكان ... والذين يجندون قواهم كلها لطمس معالم المنهج الإسلامي بشتى الخدع والتمويهات والأكاذيب (١٣٧) .

ان الضربات الوحشية التي (تكال لطلائع البعث الإسلامي في كل مكان على ظهر هذه الأرض ، تشترك فيها كل المعسكرات المتخاصمة التي لا تلتقي على شيء في مشارق الأرض ومغاربها الا على الخوف من البعث الإسلامي الوشيك الذي تحتمه طبائع الأشياء وحقائق الوجود والحياة ودلالات الواقع البشري من هنا ومن هناك) (١٣٨) .

والآن ..

وبعد هذه الجولة السريعة على محاور الهجوم الماكر على الإسلام وحركته نعلن بكل ثقة ويقين ان (المستقبل لهذا الدين) .

ان الذي يفصل في انتصار الإسلام على الهجوم الماكر (ليس هو ضخامة الباطل وليس هو قوة الضربات التي تكال للإسلام انما الذي يفصل في الأمر هو قوة الحق ومدى الصمود للضربات) (١٣٩) .

وهذا الدين لن يهزم في معركة المصير ... لأنه قرآن من الله وقد سبق الوعد من الله في انتصار هذا الدين (ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .

---

(١٣٧) المستقبل لهذا الدين سيد قطب ص ١٠٩ .

(١٣٨) المصدر السابق ، ص ٦ .

(١٣٩) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(فمن طبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين ومن حاجة البشرية إلى هذا المنهج نستمد نحن يقيننا الذي لا يتزعزع في ان المستقبل لهذا الدين وان له دورا في هذه الارض هو مدعو لأدائه ـــ ارادوا اعداءه ام لم يريدوا ـــ وان دوره هذا المرتقب لا تملك عقيدة أخرى ، كما لا يملك منهج آخر ، ان يؤديه ، وان البشرية لا تملك كذلك ان تستغني طويلا عنه) (١٤٠) .

سيكسب هذا الدين الجولة الأخيرة في معركة الحياة ... ويومها يفرح المؤمنون بنصر الله الا ان نصر الله قريب ... ويومها أيضاً سيقول الإسلام لأبنائه ـــ الذين حاربوه وهاجموه ـــ (لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء) .

---

(١٤٠) المستقبل لهذا الدين ، ص ١٠٦ .

الفصل السابع

المجابهة

على اثر الهجوم الماكر لاذي تعرض له الإسلام في الشرق والذي اظهرنا بعض جوانبه ومحاوره في الفصل السابق ، قام من يصد الهجوم ويرد العدوان ويسعى جاهدا لكسب الجولة الأخيرة وتأمين النصر النهائي .

ولا ريب ان جهد المعركة ومستلزماتها ليس باليسير فمن المفروض بداهة ان تكون محاور صد الهجوم اقوى من محاور الهجوم حتى تتمكن الأولى من التغلب على الأخرى وحتى تتمكن ـــ بعد ذلك ـــ القيام بهجوم مضاد يعيد الحق إلى نصابه .

والناظر إلى معترك الصراع بين الإسلاميين وأعدائهم يجد ان القوى غير متكافئة والامكانيات غير متعادلة والمحاور غير متوازية ... ويكاد المرء يقول بعد النظرة العجلى هذه بحتمية مستقبل مظلم اسود ...

بيد أننا إذا أمعنا النظر في طبيعة الصراع وأحوال المتصارعين تأكدت عندنا نظرة أخرى انبثق عنها أمل مشع لمستقبل مضيء مشرق ...

صلابة المقاومة الإسلامية :

إن صلابة المقاومة الإسلامية تشير إلى اصالة في الإيمان والفكر وإلى وعي عقائدي رائع والى تصميم وعزم اكيدين في دفع المقاومة قدما إلى الأمام .

لقد انبثقت المقاومة الإسلامية بوحي الشرع فكانت متميزة بالأصالة الواعية المدركة من أول يوم فلا عجب بعد ذلك ان تكون قد حددت أهداف عدوها المهاجم ثم رسمت الخط العريض لمجابهته . فالعدو الغربي الجاهلي يريد قتال الإسلام ... وفي سبيل الوصول إلى هدفه هذا توسل بكل شيء ، احتل الأرض وفرق الكلمة واستثمر الخيرات وذل الشعوب ... فلا بد ، إذا ما أراد الشرق المسلم أن يفوت على العدو هدفه ويحبط مسعاه ، ان يكشف عن غاية الجاهلي

الزاحف والصليبي المهاجم ويعلن بصراحة ووضوح تمسكه بقرآنه منهجا لحياته ودستورا لمؤسساته وأنظمته ...

تحديد الأهداف :

إن تحديد الأهداف في معركة الصراع اول خطوة للنصر المؤكد وكل محاولة لتغييب هذه الأهداف لا يمكن ردها إلا إلى جهل بطبيعة الصراع أو إلى تمويه من العدو المهاجم . فالحركات التي تجعل من وسائل المهاجم غايات له واهدافاً كباراً حركات تنقصها الأصالة ويعوزعها الوعي أو ... هي حركات للتمويه اوجدها المهاجم نفسه لتشتيت القوى ولإخفاء الأهداف من معركة الصراع ...

إن الجاهلية ، من غرب وشرق ، لم ترد في يوم من الأيام احتلال الشرق لأنه شرق ... فيه الخيرات والماء العذب الفرات انما ارادت ان تطمس معالم الحياة فيه بجاهلية جديدة كجاهليتها أو اشد ... فعندما استطاعت تجهيل قلوب المسلمين وصلت إلى كل شيء إلى خيراتهم وثمراتهم إلى اسواقهم وتجارتهم .. .[١٤١]

وبهذا المعنى ما أطلقه الامام الشهيد حسن البنا كشعار للمقاومة الإسلامية ضد الجاهلي المهاجم (اطردوا الإستعمار من قلوبكم يخرج من ارضكم) . ففي الوقت الذي تتمرد فيه قلوب الشرق على جاهلية المهاجم .. لا يستطيع هذا العدو أو يثبت على أرض الشرق لا بجشيشه ولا بفكره اذ انها تكون قد مادت من تحته .

([١٤١]) قال وزير المستعمرات البريطاني في أواخر القرن التاسع عشر (ما دام القرآن بين أيدي المسلمين معززا فإنه سيعيق سبيلنا ، لا بد من اخفاء، هذا الكتاب عنهم اولا) . انظر حياة سعيد النورسي ، ص ١٣ .

وقد لاحظ بعض الدارسين هذه الخاصية في المقاومة الإسلامية فقال الاستاذ برنارد لويس رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الافريقية والشرقية بجامعة لندن في كتابه الغرب والشرق الأوسط ما نصه :

ومن بدء التغلغل الغربي في العالم الإسلامي ... حتى يومنا هذا كانت أهم الحركات الفكرية المتميزة المهمة الأصيلة التي قامت في وجههم ، حركات إسلامية . ولقد كان اهتمام هذه الحركات بمشاكل الإيمان والعقيدة بمشاكل الجماعة الإسلامية التي سيطر عليها غير المسلمين ، اكثر من اهتمامها بارض أو بلد احتله الأجانب ، وأقوى الحركات الثورية التي قامت ، والتي كسبت أقوى التأييد وأثارت حماس اغلب الجماهير كانت دينية شعبية في اصولها ، وفي شعاراتها ، وفي الأسلوب التي عبرت عن غايتها وسبيلها (١٤٢) .

محاور المقاومة الإسلامية :

وعلى غرار محاور الهجوم كانت المقاومة الإسلامية تعمل على محاور أيضاً . فمنها ما تميز بالعمل الفردي ومنها ما انصبغ بالتعليم والخدمات الإجتماعية ومنها ما كان أكثر شمولا وحيوية عن طريق الأحزاب والمنظمات الإسلامية ...

فمحاور المقاومة الإسلامية اذن ثلاثة :

أولها : محور العمل الفردي .

ثانيها : محور الجمعيات الخيرية والتعليمية .

ثالثها : محور الأحزاب والمنظمات الإسلامية.

---

(١٤٢) الغرب والشرق الأوسط ، ص ١٤٨ .

محور العمل الفردي

وضم هذا المحور جهود عدد كبير من الشخصيات الإسلامية التي لم يتسن لها ان توجد حركات إسلامية منظمة وان تلتزم بالحركات القائمة .

ولا ريب ان هذا الجها المبرور كان له الأثر في تفتح الوعي الإسلامي في قلوب الناشئة في الأجيال المتعاقبة وربما أيضاً كان له اثر في تنشئة رجال سعوا فيما بعد لإيجاد المنظمات والأحزاب الإسلامية العاملة .

ولا تكاد بلدة في الشرق تخلو من داعية أو أكثر كتب أو نشر أو دعا وقاوم محورا أو أكثر من محاور الهجوم الماكر . وهذا الزخم الهائل قد سد سداً كبيراً في الجهاد الإسلامي ضد الزحف الجاهلي الصليبي الخطر ... بيد أن فاعلية هذا المحور تتوقف إلى حد كبير على المواهب الشخصية الذاتية للمفكر المسلم فتشتد هذه الفاعلية أو تضعف تبعاً للقدرة أو الوضوح الشخصي ... وعمل هؤلاء الإسلاميين من خطيب المسجد إلى مؤلف كتاب إلى جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ، يتميز بالفردية اي ان عمله يخرج من ذاته دون تخطيط جماعي عام . وثمرات هذه الأعمال اشبه بزارع ينشر البذور في كل مكان فان أصاب أرضاً طيبة أنبتت بذوره وآتت أكلها وإلا تلفت ولفها العدم...

ومن هذا يتضح المقصود بالعمل الفردي فهو كل عمل يقوم به داعية إسلامي من تلقاء نفسه دون ان يخضع هو أو عمله لمخطط إسلامي جماعي اي دون ان ينظم ثمرات عمله ويسلكها في حركة مسؤولية منظمة ... ويبقى العمل فردياً ولو كان للعامل تلاميذ وأنصار يأخذون عنه ويدرسون عليه ...

ويهدف الإسلاميون الفرديون إلى كشف مخططات الهجوم الماكر على الإسلام والى توعية المسلمين في شؤون إسلامهم ورفع مستواهم الفكري والروحي وإلى الدفاع عن الإسلام على أنه فلسفة أو منهج أو دستور أو نظام .

إلا أن هذه الأهداف يسعى كل منهم للوصول اليها بوسيلته الخاصة ودون تنظيم أو ترابط فيما بينهم ...

ويتوسل هؤلاء لبلوغ الأهداف بالخطابة والتدريس المسجدي والكتابة والتأليف واصدار المجلات والصحف وربما أيضاً التدريس في المدارس والمعاهد والجامعات .

وإذا القينا نطظرة إلى هؤلاء وجدناهم كئيبا أسفاً بسبب انعدام الرابطة التنظيمية بين هؤلاء ولاصرارهم في عناد على رفض مواكبة الحركات الإسلامية المنظمة في عمل جماعي مشترك .

إن القوى الفردية الإسلامية قوى ضخمة هائلة . ولو أنها انضوت في عمل جماعي حركي أو التحقت في تجمع إسلامي أو تنظيم فاعل اذن لسرعت تحرك المقاومة الإسلامية ولضاعفت من طاقاتها وامكاناتها ولفوتت فرص اعدائها المتربصين بها الدوائر ...

ويمكننا هنا ان نقرر بكل طمأنينة ان قادة العمل الفردي كجمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا لو انهم عملوا بتجمع حركي شعبي جماهيري منظم لغيروا سير التاريخ ولقوموا الإنحراف في الدولة العثمانية ولأحبطوا مؤامرات التجمع الحركي المنحرف (الإتحاد والترقي) ... إلا أن هؤلاء اعتمدوا على ذواتهم دون الجماهير . لقد انعزلوا حركياً عن المسلمين مع أنهم كانوا على اتصال دائم بهم فكرياً وثقافياً.

إن الأفكار والمبادئ التي نادى بها هؤلاء وجدت التجاوب العميق في قلب كل مسلم ... فلو أنهم تعهدوا هذه القلوب بالتنظيم والتجميع لثمرت جهودهم وما باءت بالفشل . فالاصلاح السياسي الذي نادى به الافغاني ومشروعه في الجامعة الإسلامية قد قضي عليهما في مهديهما ... ذلك ان جمال الدين قد تحرك

بالمشروع فردياً ودعا اليه دون تجمع ودون تنظيم ... وما كان ليصل المشروع إلى هذه النتيجة لو كان له تجمع يمتد في طول البلاد وعرضها ويترابط بوحدات تنظيمية واعية .

ولا بد لنا أيضاً من تقرير واقع آخر وهو اثر سلبي للإسلاميين الفرديين .

فرفض هؤلاء المفكرين الكبار أو الدعاة أو الخطباء ... الخ الانضواء في عمل حركي منظم أوجد السلبية في كثير من الناس فقد بات عدد من المسلمين وخاصة المتصلين بالفرديين الإسلاميين يستسيغ الفردية في العمل الإسلامي ويرفض الجماعية ويجد مبررا له ، زيداً وعمراً بل يسعى ـــ بردة فعل خاطئة ـــ إلى تخطئة العمل الجماعي وتبيان عيوبه ومساوئه.

وبغض النظر عما تقدم فإن محور العمل الفردي في المقاومة الإسلامية ضد الهجوم الماكر قد قام بواجب ضخم نجد آثاره في آلاف من الكتب والصحف والمجلات والدراسات والرسائل وكلها تنافح عن الإسلام بوعي واخلاص عميقي الغور .

محور الجمعيات الخيرية والتعليمية

قام هذا المحور للرد على محوري التبشير والخدمات الإجتماعية والخيرية فقد لاحظ بعض المفكرين المسلمين اعتماد خطة (التغريب) و(التبشير) كوسيلة للوصول إلى الأهداف على التعليم والخدمات الإجتماعية . فعزم هؤلاء على انشاء جمعيات للعناية بنفس الوسيلة بغية ايجاد جيل مسلم مثقف ثقافة عالية .

والملاحظة الأولى ، التي تسجل هنا ، هي كون هذه المدارس والخدمات أهلية . وقد بدأت منفصلة عن الحكومات وربما إلى حد ما عن برامجها الرسمية.

١ ـــ معهد ديونبد في لاهند :

ولعل أول معهد تعليمي ـــ بكونه ردة فعل على محور التبشير والتغريب ـــ هو معهد يدونبد في الهند فقد كتب الاستاذ أبو الحسن علي الحسني الندوي يقول[١٤٣] :

وفي سنة ١٨٥٧ ثار المسلمون ثورة عظيمة للتخلص من الانجليز ولكن أخفقت هذه الثورة واحتلت الحكومة محل شركة الهند الشرقية فكان الأمر أشد ودخلت الهند في حكم بريطانيا المباشر .. وانبث دعاة المسيحية والقسس في القرى والمدن يدعون إلى المسيحية علناً ويشنعون على العقيدة الإسلامية والشريعة المحمدية ويعلنون ان دولة الإسلام قد زالت وان عهده قد انقضى ... وطبقت الحكومة نظام التعليم المدني وهو يهدف إلى تخريج طراز من الناشئة لا يصلح إلا لإدارة جهاز الحكومة الإنجليزية وتنفيذ برامجها وكثيراً ما كان أفراد الجيل الجديد ينسلخون عن الإسلام انسلاخاً كلياً ويثورون على الحضارة الإسلامية والديانة الإسلامية بتأثير التعليم والتربية في مدارس الحكومة التي كان يديرها الانجليز وأشباه الانجليز .

(ولم ير العلماء أمامهم طريقاً إلا فتح المدارس العربية والمعاهد الدينية فأنشأوا هذه المعاقل ليحتفظوا ببقايا الحياة الإسلامية وليكافحوا تيار الغرب المدني والثقافي ويخرجوا منها دعاة الإسلام والوعاظ والمرشدين وعلماء الدين فيحفظوا على المسلمين دينهم ويعيدوا الثقة إلى نفوسهم فأسس مولانا محمد قاسم النانوشي مدرسة ديونبد سنة ١٢٨٣ هـــ وأسس مولانا سعادات علي مدرسة مظاهر العلوم في سهارنبور في نفس ذلك العام ثم تواترت المدارس الدينية في اتحاد

---

(١٤٣) رسالة الدعوة الإسلامية في الهند وتطورها ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ .

الهند وقد كان لهذه المدارس فضل كبير في نشر الدين والدعوة الإسلامية وفي نشر الثقافة في طبقات الشعب .

ويعلق الأستاذ الندوي على نجاح هذه المدارس فيقول (وسر نجاح هذه المدارس ـــ كديونبد وشقيقاها ـــ في أداء رسالتها ونشر العلم والدين أنها لم تكن تنال مساعدة من الحكومة وكانت قائمة على أساس الزهد والتضحية والجهاد فأثار ذلك روح المقاومة والجهاد وقوة العمل والنشاط . ثم ان أبناءها المتخرجين لم يكن لهم أمل ـــ بطبيعة الحال ـــ في وظائف الحكومة والرواتب الضخمة لأنهم تخرجوا من مدارس حرة لا صلة لها بالحكومة فالجأ ذلك أكثر المتخرجين إلى الإنقطاع إلى الشعب دون الحكومة والتجرد للدعوة والخدمة دون المناصب والرواتب وهكذا وجد دعاة متجردون متحمسون متطوعون يقنعون بالكفاف وينقطعون إلى الدعوة والرسالة فقاموا بأعمال اصلاحية لا تقوم بها أكبر دولة) .

٢ ـــ دار العلوم في لكنهؤ :

ويعقب الأستاذ الندوي على ذلك فيقول :

(ولما رأى بعض العلماء أن الهوَّة قد اتسعت جداً بين التعليم المدني والتعليم الديني وحدثت بين المتخرجين من المدارس الدينية والمتخرجين من المدارس المدنية فجوة تتسعان على مر الأيام حتى اصبح هؤلاء أمة ولكل أمة لغة خاصة وثقافة خاصة ونفسية متميزة لا يفهمها الآخر ، بل أصبح التعليم الديني في واد والعصر الحديث في واد ولا جسر يربطهما ، وقد أصبح هذا العصر يطلب من العالم الديني ثقافة أوسع وأسلوباً للدعوة أرقى وأقرب إلى نفسية هذا العصر واطلاعاً على ما تجدد من العلوم والأفكار والمسائل والحاجات أنشأ القائمون على (ندوة العلماء) وفي مقدمتهم مولانا محمد علي المونكيري مدرسة دار العلوم في لنكهؤ سنة ١٣١٦ هـــ ورسالتها الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع والتصلب في

العقيدة والمبادئ والتوسع في الجزئيات والوسائل . وقد خرجت علماء ومؤلفين كانوا ملتقى للثقافتين وبرزخاً بين الطائفتين وقد الفوا في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي كتباً هي خير ما ألف إلى الآن للجيل الجديد ولا يزال كتاب (سيرة النبي) في ستة مجلدات كبار للشيخ شبلي النعماني والأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي أعظم مؤلف في السيرة النبوية وتعليمات الإسلام لا يوجد له نظير في مكتبة الإسلام الحديثة ولا يزال لهذا المركز التعليمي نشاط وإنتاج [١٤٤] .

رشيد رضا والتربية والتعليم :

أما في بلاد العرب فقد قام رشيد رضا[١٤٥] في مصر يحث العلماء على أن يكون الإصلاح عن طريق التربية والتعليم ... وأكد ان التربية والتعليم هما الركنان اللذان يقوم عليهما بناء السعادة وقال :

(ان التربية والتعليم متلازمان بمعنى ان الثاني لازم للأول لا يتم إلا به بل هو جزء منه لأن التربية على ثلاثة ضروب : تربية الجسم وتربية النفس وتربية العقل وهذا الأخير هو عيد التعليم ثم كل منهما يحتاج للعلم والتعليم [١٤٦] .

وعدد رشيد رضا الفنون التي يجب أن تعتمدها التربية والتعليم وتدرسها في مدارسها فذكر :

١ ــ علم أصول الدين ويقصد به القضايا الأساسية للدين لا البحث في غوامض علم الكلام .

([١٤٤]) لا يزال هذا المعهد قائما حتى الآن ويشرف على اصدار رسائل وكتب مختلفة منها الرسالة التي اعتمدناها هنا (الدعوة الإسلامية في الهند). وأهم اصدار مستمر على مدار السنة هو البعث الإسلامي وتصدر بالعربية منذ أكثر من احدى عشرة سنة وشعارها كما هو معلن عنه على غلاف المجلة (الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع وبين الايمان الراسخ والعلم الواسع) .

([١٤٥]) ولد محمد رشيد رضا في القلمون قرب طرابلس في لبنان ٢٧ جمادى الأول ١٢٨٢/ ١٨٦٥ ودرس على استاذه الشيخ حسين الجسر علامة طرابلس ثم هاجر الى مصر وانشأ فيها مجلة المنار التي كان لها الأثر الطيب في مختلف البلاد الإسلامية .

([١٤٦]) رشيد رضا الامام المجاهد للدكتور احمد العدوي سلسلة اعلام العرب ص ١٧٤ وما يليها .

٢ ــ علم تهذيب الأخلاق واصلاح العادات لأنه يساعد على التربية الصحيحة .

٣ ــ علم فقد الحلال والحرام والعبادات .

٤ ــ علم الإجتماع وأحوال البشر في بداوتهم وحضارتهم وعاداتهم وسائر شؤونهم .

٥ ــ علم تقويم البلدان (الجغرافيا) .

٦ ــ علم التاريخ لأنه مادة السياسة ومجد العقل ومغذيه ...

٧ ــ علم الإقتصاد الذي يبحث في انماء الثروة وحفظها ...

٨ ــ علم تدبير المنــزل وينبغي ان تتوسع البنات في هذا العلم لأنه وظيفتهن

٩ ــ علم الحساب ولا بد من معرفة القدر اللازم منه للبنين والبنات .

١٠ ــ علم حفظ الصحة وهذا من أهم المهمات لتربية الأولاد وهناء العيش ...

١١ ــ علم لغة البلاد .

١٢ ــ فن الخط .

٣ ــ مدرسة الدعوة والارشاد في القاهرة :

ونادى رشيد رضا أثناء دعوته لاصلاح التربية والتعليم بأن يتولى الناس بأنفسهم إنشاء المدارس والابتعاد عن الحكومة ذلك ان معظم الحكومات في البلاد الإسلامية كانت خاضعة في عهده للسلطات الإستعمارية ولا يرجى من ورائها نفع وفي نفس الوقت أكثر الإستعمار من المدارس التبشيرية في البلاد

الإسلامية وصار الموقف يتطلب نهضة تنبعث من الشعوب الإسلامية نفسها حتى يتمكن اقبالها على التربية والتعليم مثمراً وضرب رشيد رضا اروع الأمثلة في ميدان التربية والتعليم اذ لم يكتف بدور الموجة والناصح وإنما نزل إلى هذا الميدان عملياً ووضع فيه خلاصة آماله وتجاربه ... وتبلورت مجهوداته في تلك السبيل في إنشاء جمعية الدعوة والارشاد تكون مهمتها الأولى والأخيرة الاشراف على مدرسة تحمل اسم الجمعية وتهدف إلى تحقيق الإصلاح في ميدان التربية والتعليم [١٤٧] .

ودخل مشروع انشاء جمعية الدعوة والارشاد إلى حيز الوجود سنة ١٣٣٠ هـ ــ ١٩١٢ م وجاء في مشروع تأسيس مدرسة الدعوة والارشاد ما يأتي .

١ ــ يختار طلاب هذه المدرسة من طلاب العلم الصالحين من مسلمي الاقطار ويفضل الذين هم بأشد الحاجة إلى العلم على غيرهم كاهل جاوة والصين وما عدا القسم الشمالي من افريقية .

٢ ــ المدرسة تكفل لهم جميع ما يحتاجون اليه من الغذاء والطعام والكتب .

٣ ــ يعني بتدريبهم على آداب الإسلام واخلاقه وعباداته بحيث يطرد من المدرسة من يثبت عليه ارتكاب أو اظهار العصبية الجنسية أو المذهبية أو ارتكاب شيء من المعاصي [١٤٨] .

([١٤٧]) المرجع السابق .

([١٤٨]) المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

وبدأت المدرسة في التربية والتعليم وانجبت نفراً لا بأس به من خيرة المثقفين في البلاد الإسلامية ولكن المدرسة تعطلت عند نشوب الحرب العظمى الأولى و لم تفتح ابوابها مرة أخرى [١٤٩] .

٤ ـــ المنار انشأت مدارس اندونيسيا :

ويبدو ان مجلة المنار التي كان يصدرها رشيد رضا قد احدثت اثرا بالغا في الوسط الإسلامي في جاوزة ـــ اندونيسيا ففي نفس العام ١٩١٢ التي اسس فيها الاستاذ الامام مدرسة الدعوة والارشاد السالفة الذكر قامت في اندونيسيا جمعيتان تعليميتان : الجمعية المحمدية وجمعية الارشاد ، وتعتبر الجمعية المحمدية اليوم (اكبر جمعية في العالم للتعليم اعضاؤها نحو مئتي الف ولها ألف وخمسماية مدرسة ثانوية وسبعماية مستشفى وثلاثماية دار ايتام ولها دار لتخريج المعلمين لمدارسها وللجمعية الآن فروع للسياسة والإقتصاد والثقافة والأوقاف والتبليغ .

اما جمعية الارشاد فلها الآن نحو خمسة آلاف مدرسة ، التدريس فيها بالعربية ومدرستها الكبرى في سورابايا في شرقي جاوه ... اكبر من التكنة الحميدية التي فيها كليات جامعة دمشق كلها .

وفي سنة ١٩٣٠ اسس كياي (أي الشيخ) عبد الرحمن شهاب جمعيته ولها اليوم في كل بلدة وكل قرية من (سومطرة) مدرسة ... [١٥٠] .

الجمعيات الخيرية الإسلامية في لبنان :

ان حركة التعليم في البلاد الإسلامية ـــ على انها حلقة في المقاومة الإسلامية ضد الهجوم الماكر ـــ اخذت في الانتشار والاتساع حتى لا تجد بلدا في الشرق المسلم يخلو من مدرسة اهلية انشئت لهذا الغرض ... فمثلا هنا في لبنان

---

(١٤٩).المرجع السابق ، ص ١٨٨ .

(١٥٠) من مقال للاستاذ علي الطنطاوي بعنوان : الحركة الإسلامية في اندونيسيا منشور في مجلة المسلمون المجلد السادس ص ٦٣٨

مركز الجامعات والكليات التبشيرية ، نجد جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت التي افتتحت عددا كبيرا من المدارس الابتدائية والثانوية في بيروت وصيدا والقرى ، والمستشفى المعروف بمستشفى المقاصد في بيروت . وكذلك نجد الجمعية الخيرية الإسلامية واسعاف المحتاجين في طرابلس التي اسسست دار التربية والتعليم وملجأ الأيتام والمعهد الديني الابتدائي ومدارس أخرى للبنات وفي القرى ... ومنذ عشر سنوات تقريبا تاسست في بيروت جمعية البر والاحسان وعلى أثرها افتتحت جامعة بيروت العربية التي أصبحت ، في الواقع ، احدى الجامعات المصرية ليس الا ! ...

وخلال سنة ١٩٦٧ تداعى في لبنان نفر مخلص من شباب الدعوة الإسلامية ، واسسوا جمعية التربية الإسلامية التي من اهدافها فتح المدارس لتخريج جيل يؤمن بالله وقد اخذت الموثق على نفسها ألا تنحرف عن جادة الحق وألا تقع في أخطاء الجمعيات الأخرى وقد افتتحت فعلا في طرابلس مدرسة الإيمان النموذجية واخرى لتعليم القرآن خلال اشهر الصيف ...

وقد سبقت هذه الجمعية في لبنان ، مدارس الأقصى في الأردن ، ومدارس وطنية مختلفة في سوريا (١٥١) خرجت بالفعل شبابا يجمع إلى الثقافة المدنية الثقافة الدينية والخلق والعمل الإسلاميين .

والملاحظة التي اسجلها هنا بألم وأسى ان بعض هذه المؤسسات والجمعيات الخيرية وخاصة هنا في لبنان قد تحولت عن مقصدها وغدت تجارية المظهر والجوهر ولم تعد تحقق اهدافها في تنشئة جيل مسلم يقوى على مواجهة التحديات والإنحرافات.

(١٥١) أممت هذه المدارس في سوريا في الآونة الأخيرة ككا أممت المدارس الأجنبية .

ان التعليم مجال ضيق لصقل نفوس النشء الجديد وتخريج اجيال تنطبع بالإسلام خلقا وسلوكا عقيدة ومنهاجا ... ومن نكد الأيام ان تتحول مؤسسات المسلمين التي نشأت من جيوبهم إلى معاهد للتعليم الرسمي شأنها شأن المدارس والكليات الرسمية الحكومية ...

وما يقال عن التعليم يقال أيضاً عن جمعيات الكشافة والأندية الرياضية والمستوصفات الطبية وجميعها قد نشأت بغرض تأدية خدمات اجتماعية إسلامية معارضة خدمات المبشرين ... بيد انها أصبحت تكايا للمتزعمين والمتنفذين وفقدت كل مظهر إسلامي كريم ...

محور الاحزاب والمنظمات الإسلامية

ولعل هذا المحور اعظم المحاور في المقاومة الإسلامية شأنا وأثرا . فهو المحور الذي تُلقى على جبهاته ثقل المقاومة بكاملها ، وهو الذي يملك مخططا ما لصد الهجوم الماكر ولاعادة مجد الإسلام في اقامة حكم إسلامي في الشرق المسلم ...

ومن المحقق ان الحركات الإسلامية منذ نشأتها في الشرق المسلم كانت شوكة في اعين المبشرين والمستعمرين وتلاميذهم من ابناء البلاد ...

ولقد واجهت هذه الحركات صعوبات شتى وخاضت معارك ضارية ضد اعدائها من اجانب ورسميين حكوميين وحزبيين محليين اصحاب الدعوات غير الإسلامية ... ويبدو ان كل ضغط واجهته هذه المنظمات كان وفق خطة مدروسة وبناء على محور أو اكثر من محاور الهجوم الماكر على الإسلام العقيدي والحركي .

يقول الاستذ برنارد لويس في كتابة الغرب والشرق الأوسط : (والشيء الواضح ان من بين جميع الحركات الكبرى التي هزت الشرق الأوسط في آخر قرن ونصف كانت الحركات الإسلامية وحدها أصيلة في تمثيلها لمطامح اهل هذه

المنطقة ، فالليبرالية والفاشية والوطنية والقومية والشيوعية والاشتراكية كلها اوروبية الأصل مهما اقلمها وعدلها اتباعها في الشرق الأوسط والمنظمات الإسلامية هي الوحيدة التي تنبع من تراب المنطقة وتعبر عن مشاعر الكتل الجماهيرية المسحوقة . وبالرغم من ان كل الحركات الإسلامية قد هزمت حتى الآن غير انها لم تقل بعد كلمتها الأخيرة) [١٥٢] .

الشعبية والجماعية في الحركة الإسلامية :

وتتميز الحركات الإسلامية ــ بوجه عام ــ بالشعبية أي انها تعمل في الوسط الشعبي لاختيار دعاة يمكن ان ينضووا تحت لواء العمل الجماعي ويخضعوا لتوجيه قيادي وفق نظام مدروس .

ولعل هذه الصفة ــ أي الجماعية ــ هي التي تحدد خطورة هذه الحركات في مقاومة الهجوم الماكر وبناء التجمع الإسلامي الجديد . فهي أي الحركة الإسلامية ليست افرادا يعملون متفرقين دون خطة أو تنظيم يبذرون البذور لا يتعهدونها بالرعاية والسقاية والتهذيب والتشذيب انما هي تنظيم قبل كل شيء محدد الأهداف والغايات مبين الوسائل والمسالك يتحرك بخطة ومنهج ويتوقف ليدرس ما نفذ وطبق وما يجب ان يعدل في الوسيلة والطريقة ، فهناك اذن قيادة وقاعدة أمراء وجنود وعي ونظام ..

هدف الحركة الإسلامية :

وهدف هذه الحركات ، بوجه عام ، اقامة مجتمع إسلامي ، يطبق حكم الإسلام وتصوراته في الدين والإنسان والحياة ... ومن أجل ذلك تحارب هذه الحركات كل فكرة جاهلية غير الإسلام غربية أو شرقية ، قومية أو اشتراكية ،

---

(١٥٢) الغرب والشرق الأوسط ، ص ١٧٩ .

ولا تدين ــ هذه الحركات ــ بالولاء الا لمفاهيم الإسلام وفق القرآن والسنة مرددة قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾ لقمان.

وسائل الحركة الإسلامية :

وتتوسل الحركات الإسلامية في سبيل اهدافها بكل شيء شرعي أو موافق للشرع فمن الخطابة إلى التدريس إلى التعليم إلى الكتب والمطبوعات والرسائل والصحف إلى المناقشة الفردية والجماعية والمحاضرات والندوات إلى التدريب والتجميع والخدمات الإجتماعية الخ ... والفارق الأساسي بين وسائل الحركات الإسلامية والشخصيات الإسلامية (العمل الفردي والجمعيات الخيرية) التنظيم ... فوسائل الحركات تسعى لاختيار العناصر الصالحة من مجموع الناس وسلكها في تجمع عضو حركي يخضع في النهاية لتنظيم (القيادة والقاعدة) ...فهي اذن تتعهد بالسقي ولارعاية حتى إذا ما اثمرت قطفت ثمارها بالانضمام إلى التنظيم الجماعي .

الأسلوب الحركي :

والملاحظة الثانية في الحركات الإسلامية الحديثة انها فهمت الإسلام فهما حركيا جيدا أو انها اضفت على تفهم الإسلام اسلوبا علميا فريدا . ويحسن بنا ونحن في هذا الصدد ان نوضح بعض خصائص هذا الأسلوب كما جاء بها ، ونبين بعض المبادئ كما هي معتمدة في تلك الحركات ...

ان أسلوب الدراسة الإسلامية في الحركات الإسلامية الحديثة هو اسلوب حركي علمي واع يتجاوز الخلافات المذهبية ويحاول ان يستقي المعلومات من القرآن والسنة مبشارة فيمكن بالتالي وصفه بأنه سلفي المنهج حركي الطابع .

ويستهدف الأسلوب (مجال التأثير عند الإنسان) لبيان ان الإسلام عقيدة الخلاص لهذه الإنسانية المعذبة المنهوكة بىلام الجاهلية وادران الضلال والزيغ ...

المبادئ التي اظهرتها الحركة بشكل جديد :

اما المبادئ التي اظهرتها الحركات الإسلامية في دراساتها ومؤلفات قادتها واعضائها فيمكن ان نوجزها بما يلي :

اولا : التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة وهو بحث يتعلق بالعقيدة وما يرافقها من ظلال ومعقبات (وإدارك المسلم لطبيعة التصور الإسلامي وخصائصه ومقوماته هو الذي يكفل له أن يكون عنصرا صالحا في بناء هذه الأمة ذات الطابع الاعتقادي هو أداة التوجيه الكبرى إلى جانب النظام الواقعي الذي ينبثق منه ويقوم على أساسه ويتناول النشاط الفردي كله والنشاط الجماعي كله في شتى حقول النشاط الإنساني) .

ولا بد (من صيانة التصور الإسلامي في قالب ذاتي مستقل) و(لا بد ان تعرض العقيدة باسلوب العقيدة اذ ان محاولة عرضها باسلوب الفلسفة يقتلها ويطفئ اشعاعها ويحاءها ويقصرها على جانب واحد من جوانب الكينونة الإنسانية الكثيرة) ان العقيدة ــ اطلاقا ــ والعقيدة الإسلامية ــ بوجه خاص ــ تخاطب الكينونة الإنسانية بأسلوبها الخاص وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والايقاع واللمسة المباشرة والايحاء) فإذا ما اردنا (البحث عن خصائص التصور الإسلامي ومقوماته) علينا (ان نستلهم القرآن الكريم مباشرة بعد الحياة في ظلال القرآن طويلا ــ وان نستحضر ــ بقدر الامكان الجو الذي تنزلت فيه كلمات الله للبشر ... ومنهجنا في استلهام القرآن الكريم الا نواجهه بمقررات سابقة اطلاقا لا هزات عقلية ولا مقررات شعورية من رواسب الثقافات التي لم نستقها من القرآن ذاته ، نحاكم اليها نصوصه أو نستلهم معاني هذه النصوص وفق تلك

المقررات) و (واننا لا نبغي بالتماس حقائق التصور الإسلامي مجرد المعرفة الثقافية ولا نبغي انشاء فصل في المكتبة الإسلامية يضاف إلى ما عُرف من قبل باسم الفلسفة الإسلامية ... انما نحن نبتغي (الحركة) من وراء المعرفة نبتغي ان تستحيل هذه المعرفة قوة دافعة لتحقيق مدلولها في عالم الواقع ، نبغي استجابة ضمير الإنسان لتحقيق غاية وجوده الإنساني كما يرسمها هذا التصور الرباني نبغي ان ترجع البشرية إلى ربها والى منهجها الذي اراده لها والى الحياة الكريمة الرفيعة التي تنفق مع الكرامة التي كتبها الله للانسان والتي تحققت من فترات التاريخ على ضوء هذا التصور عندما استحال واقعا في الرض يتمثل في أمة تقود البشرية إلى الخير والصلاح والنجاة ... [١٥٣] .

ثانيا : الجاهلية والإسلامية :

وبناء على التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة اطلقت الحركة الإسلامية لفظ الجاهلية على كل مجتمع لا تسوده شرعة الله (ليست الجاهلية صورة معينة محدودة ، كما يتصورها (الطيبون) الذين يرون انها فترة تاريخية مضت إلى غير رجوع . انما هي جوهر معين يمكن ان يتخذ صورا شتى بحسب البيئة والظروف والزمان والمكان فتتشابه كلها في انها جاهلية وان اختلفت مظاهرها كل الاختلاف .

وليست هي (المقابل) لما يسمى العلم والمعرفة والحضارة والمدنية والتقدم المادي والقيم الفكرية والإجتماعية والسياسية والإنسانية على اطلاقها كما يتصورها (الخبيثون) سواء بالنسبة للجاهلية العربية أو بالنسبة للقرن العشرين .

---

(١٥٣) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ــ سيد قطب مقتطفات متفرقة من الفصل الأول (كلمة في المنهج) انظر الجاهلية والإسلام للاستاذ المودودي ، والعدالة الاجتماعية في الإسلام لسيد قطب ، وعقيدة المسلم لمحمد الغزالي ، والانسان بين المادية والإسلام لمحمد قطب ، ومبادئ الإسلام للأستاذ المودودي .

انما الجاهلية ــــ كما عناها القرآن وحددها ــــ هي حالة نفسية ترفض الاهتداء بهدي الله ووضع تنظيمي يرفض الحكم بما أنزله الله ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ ﴾ المائدة .

هي اذن ــــ مقابل ــــ معرفة الله ، والاهتداء بهدي الله والحكم بما انزل الله وليست مقابل ما يسمى العلم والحضارة المادية ووفرة الإنتاج (١٥٤) .

ولعل الأستاذ ابا الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان كان اول من أطلق هذا اللفظ (الجاهلية) على المجتمعات الحديثة وذلك في رسالته الإسلام والجاهلية.

ثالثا : الإسلامية في المجتمع والدولة :

أكدت الحركات الإسلامية في اهدافها وكتاباتها ان الإسلام دين ودولة وصحف وسيف حرب ومحراب وانه يملك الأنظمة لكل شأن من شؤون الحياة صغيرها وكبيرها ، وراحت هذه المؤلفات تصور حياة الإسلام في الدولة والمجتمع في السياسة والإقتصاد في الفرد والأسرة وتقارن بين هذه الحياة الربانية الإيمانية الإسلامية وبين أنظمة الأرض قومية وشيوعية ورأسمالية وديكتاتورية وديمقراطية وحزبية . الخ ..

فالحكومة في الإسلام كما يقول الإمام الشهيد حسن البنا هي قاعدة من قواعد النظام الإجتماعي الذي جاء به للناس فهو لا يقر الفوضى ولا يدع الجماعة المسلمة بغير إمام ، ولقد قال رسول الله ﷺ لبعض أصحابه : (إذا نزلت ببلد وليس فيه سلطان فارحل عنه) كما قال في حديث آخر لبعض أصحابه كذلك : (إذا كنتم ثلاثة فأمروا عليكم رجلا) .

---

(١٥٤) جاهلية القرن العشرين ــــ محمد قطب ، ص ٩ ، انظر ايضا الإسلام والجاهلية لأبي الأعلى المودودي ، ومعالم في الطريق لسيد قطب .

فمن ظن ان الدين أو بعبارة أدق الإسلام لا يعرض للسياسة أو ان السياسة ليست من مباحثه فقد ظلم نفسه وظلم علمه بهذا الإسلام ولا اقول ظلم الإسلام فان الإسلام شريعة الله لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وجميل قول الغزالي ﷺ: (اعلم ان الشريعة اصل والملك حارس وما لا اصل له فمهدوم وما لا حارس له فضائع) . فلا تقوم الدولة الإسلامية الا على اساس الدعوة حتى تكون دولة رسالة لا تشكيل ادارة ـــ ولا حكومة مادة صماء لا روح فيها ـــ كما لا تقوم الدولة الا في حماية تحفظها وتنشرها وتبلغها وتقويها [١٥٥] .

وأما الإقتصاد فقد لخص حسن البنا قواعده الإسلامية بالنقاط التالية :

١ ـــ اعتبار المال الصالح قوام الحياة ووجوب الحرص عليه وحسن تدبيره وتثميره.

٢ ـــ ايجاب العمل والكسب على كل قادر .

٣ ـــ الكشف عن منابع الثروات الطبيعية ووجوب الاستفادة من كل ما في الوجود من قوى ومواد .

٤ ـــ تحريم موارد الكسب الخبيث .

٥ ـــ تقريب الشقة بين مختلف الطبقات تقريبا يقضي على الثراء الفاحش والفقر المدقع.

٦ ـــ الضمان الإجتماعي لكل مواطن وتأمين حياته والعمل على راحته واسعاده .

---

(١٥٥) مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي ـــ حسن البنا ص ٣٨ ، ٣٩ انظر ايضا النظرية السياسية في الإسلام للأستاذ المودودي ، والإسلام وأوضاعنا السياسية لعبد القادر عودة .

٧ ــ الحث على الانفاق في وجوه الخير وافتراض التكافل بين المواطنين ووجوب التعاون على البر والتقوى .

٨ ــ تقرير حرمة المال واحترام الملكية الخاصة ما لم تتعارض مع المصلحة العامة .

٩ ــ تنظيم المعاملات المالية بتشريع عادل رحيم والتدقيق في شؤون النقد.

١٠ ــ تقرير مسؤولية الدولة في حماية هذا النظام [١٥٦] .

وللعدالة الإجتماعية معنى وتصور فهي تقوم على اسس ثلاثة هي :

١ ــ التحرر الوجداني المطلق بمعنى انه (لن تتحقق عدالة اجتماعية كاملة ولن يضمن لها التنفيذ والبقاء ما لم تستند إلى شعور رئيسي باطن باستحقاق الفرد لها وبحاجة الجماعة اليها وبعقيدة في انها تؤدي إلى طاعة الله والى واقع انساني اسمى) .

٢ ــ المساواة الإنسانية الكاملة بمعنى انه (إذا استشعر الضمير كل هذا التحرر الوجداني فخلص من كل ظل للعبودية الا الله وأمن الموت والأذى والفقر والذل الا باذن الله وتفلت من ضغط القيم الإجتماعية والمالية ... إذا استشعر الضمير البشري هذا كله ووجد من الضمانات الواقعية والقانونية ما يؤكد في نفسه هذا الشعور فلن يكون في حاجة لمن يهتف له بالمساواة لفظا وقد استشعرها في اعماقه معنى ووجدها في حياته واقعا بل لن يصبر على التفاوت القائم على تلك القيم اطلاقا سيطلب حقه في المساواة وسيجد لتقرير هذا الحق وسيحتفظ به حين يناله .

---

(١٥٦) المرجع السابق ص ٧٥ انظر ايضا الاقتصاد بين الإسلام والأنظمة المعاصرة للستاذ المودودي ، واشتراكية الإسلام لمصطفى السباعي ، والعدالة الاجتماعية في الإسلام .

٣ ــ التكافل الإجتماعي الوثيق بمعنى انه للمجتمع مصلحة عليا لا بد ان تنتهي عندها حرية الأفراد وللفرد ذاته مصلحة خاصة في ان يقف عند حدود معينة في استمتاعته بحريته لذلك يقرر ــ الإسلام ــ مبدأ التبعة الجماعية التي تشمل الفرد والجماعة بتكاليفها وهذا ما ندعوه بالتكافل الإجتماعي [١٥٧] .

وعلى هذا المستوى الرفيع وبهذا الوعي العميق عالجت الحركة الإسلامية مختلف جوانب الحياة وأضفت عليها طابع البحث الدقيق وخاصة فيما يتعلق بالنفس البشرية وخصائص تكوينها وطرق معالجتها [١٥٨] .

الظروف الصعبة في نشأة الحركات الإسلامية :

لقد نشأت الحركات الإسلامية في ظروف صعبة فهي قد ولدت في قلب الصراع وفي وسط الهجوم الماكر عل الشرق المسلم ... وكانت هذه الظروف المعاكسة كفيلة بالقضاء عليها وطمس معالمها بيد ان الحركة استطاعت التغلب على كثير من الصعوبات وواجهت التحديات بايمان ووعي الأمر الذي يثبت حيوية هذا الدين وقدرته على المقاومة والانتصار ...

ولقد انتشرت الحركات الإسلامية في مختلف البلاد وكأنها حلقات متصلة تنتظمها سلسلة واحدة هي الإسلام وكأنها فروع لحزب واحد هو حزب الله مع ان هذه الحركات قد نشأت منذ البداية منفصلة عن بعضها ..

ولعل أبرز هذه الحركات في القرن العشرين هي كما يلي :

في البلاد العربية :	جماعة الاخوان المسلمون
في تركيا :	حركة النور

(١٥٧) العدالة الاجتماعية لسيد قطب ص ٣٦ و٥١ و٦٣ .

(١٥٨) نذكر هنا كتابي الاستاذ محمد قطب في النفس والمجتمع وخطوط متقابلة في النفس البشرية .

في ايران : فدائيان إسلام

في باكستان : الجماعة الإسلامية

ولا بد لنا ان نلقي اضواء كاشفة على هذه الحركات ...

اولا : الاخوان المسلمون في البلاد العربية :

يبدو ان بعض المؤرخين الموضوعيين قد كتب بشيء من التجرد على الاخوان المسلمين فالدكتور نبيه أمين فارس ــ أحد اعلام المؤرخين العرب المعاصرين كتب عن الاخوان يقول :

ان فكريتهم ومثاليتهم لا تزال اعمق مطامح المسلمين من المغرب إلى اندونيسيا [١٥٩].

اما البروفسور كانتول سميث فقد نقل عنه الاستاذ برنارد لويس قوله : (من الخطأ في نظري اعتبار الاخوان المسلمين حركة رجعية محضة ... فلقد قامت فيها مجهودات ايجابية بناءة محمودة لبناء مجتمع جديد مؤسس على العدالة والإنسانية المستمدة من افضل اقيم التي احتفظ بها من تقاليد الماضي ولقد مثلت حركة الاخوان جزئيا العزم على التخلص من الانحلال والتفسخ اللذين اغرقا المجتمع العربي ، وخصوصا الانتهازية الإجتماعية غير الاخلاقية التي امتزجت بالفساد الفردي وارادت العودة بالمجتمع إلى مقاييس خلقية مقبولة وتوحيد النظرة إلى هذه المقاييس والسير قدما في برامج التطبيق وتنفيذ الأهداف الشعبية بواسطة منظمة منتجة حسنة وهبت نفسها للمثل العليا . وحركة الاخوان تمثل جزئيا ــ التخلص من الاحترام السلبي لقيم ميتة تافهة متوارثة ... ومحاولة تحويل الإسلام من عاطفة حماية في قلوب المعجبين الكسالى إلى عمل وتحويل التقليديين المنحرفين

---

(١٥٩) نقلا عن كتاب الغرب والشرق الأوسط ، ص ١٧٨ .

محدودي الفكر والتنفيذ الذين يشدون انفسهم إلى عصور الانحطاط إلى قوة عاملة نشيطة فاعلة تحل مشاكل العصر) [١٦٠] .

طبيعة الحركة ووسائلها :

كتب الدكتور محمد كمال خليفة الاستاذ في جامعة القاهرة في مقدمة كتاب الاخوان المسلمون والمجتمع المصري [١٦١] يقول (وجاء حسن البنا ليأخذ من هذا وذاك ـــ أي من الافغاني وعبده ـــ ويسلك طريقا شعبيا يكفل العصبة المؤمنة وطريقة تعليمية تنشر العقيدة السليمة والفهم الصحيح الشامل للإسلام ونظامه وأخذ يكافح في سبيل ذلك كفاحا ادهش الجميع حتى ركز للإسلام مكانته في المجتمع وكل ذلك بتلك البساطة المعجزة في اقناعها بذلك الاسلوب الممتنع في سهولته وبذلك المنطق الذي ارضى العامة والخاصة وبتلك الروح الإنسانية التي تهدف إلى المبادئ الاساسية للإسلام وتبعد عن الخلافات الفرعية وتتجنبها حتى اكتسب ثقة الجميع ومحبتهم وكون تلك المجموعة من الشباب المؤمن التي كافحت ولا تزال في سبيل استخلاص الحقوق الوطنية وانقاذ الكرامة العربية وشهد لها الأعداء والأصدقاء .

ثم اتجه اتجاها عمليا في اصلاح المجتمع فاقام المؤسسات الإجتماعية والإقتصادية والصحية والتربوية باسم الإسلام . حتى عادت الثقة شيئا فشيئا إلى النفوس وترعرعت نبتة الإيمان الكامنة في القلوب ووصل الناس إلى مرحلة من فهم الإسلام الكامل الشامل كما يفهمه الاخوان وكما كان في عهود العصور

([١٦٠]) المصدر السابق ص ١٧٦ وقد علق المعرب الدكتور نبيل صبحي على قول كانتول سميث بما يلي هذا اول كاتب غربي لم يخل تحليله من بعض الموضوعية والتجرد فبالرغم من ترديده للنغمة المألوفة ـــ الرجعية والتعصب ـــ فانه لم يستطع ان يتجاهل النقاط الايجابية البارزة في دعوة وتاريخ هذه الجماعة التي رماها خصومها الكثيرا بالسهام المسمومة وبخل ، حتى المحايدون ، عليها بطاقة من الورد ...

([١٦١]) اعد هذا الكتاب الاستاذ محمد شوقي زكي عام ١٩٥٢ ليكون رسالة ينال على اساسها اجازته وقد اشرف على هذه الرسالة الدكتور خليفة وقدم لها ومن مقدمته نقلنا رأيه .

الأولى للإسلام وهكذا ادى الرجل رسالته حتى قضى حياته وقد خلف من بعده جيلا من الإيمان للرجولة المؤمنة والكفاح المجيد .

تاريخ الاخوان المسلمين :

تاريخ لخص الاستاذ برنارد لويس في كتابه الغرب والشرق الأوسط ، تاريخ الاخوان المسلمين فقال : (وكانت أقوى هذه المنظمات الإسلامية وأكثرها نجاحا منظمة الاخوان المسلمين وهي جمعية نصف علنية واسعة الانتشار تقوم على اساس الخلايا والفتوة ذات الطابع العسكري ، وشبكات ضخمة واسعة من المؤسسات الثقافية والإقتصادية) [١٦٢] .

ولقد اسست حوالي ١٩٢٨ على يد مدرس مصري اسمه الشيخ حسن البنا وكان يلقب بالمرشد العام ثم نمت الحركة باضطراد وبسرعة ما بين ١٩٣٠ ـــ ١٩٤٠ ودخلت الميدان السياسي ما بعد ١٩٤٠ وتمكن الاخوان بسرعة ان يلعبوا دورا عاما عاصفا في السياسة المصرية خصوصا في الفترة العصبية التي مرت ما بين آخر الحرب العالمية الثانية وقيام الحكم العسركي في مصر . ولقد عملت الحركة إلى فترة من الوقت كحزب سياسي ... وفي ١٩٤٨ حارب متطوعو الاخوان في فلسطين وعند عودتهم قيل انهم دبروا خطة الزحف على لاقاهرة والقيام بانقلاب للاطاحة بالملك والحكومة واقامة جمهورية إسلامية وجاءتهم الضربة الأولى من النقراشي (باشا) رئيس الوزراء . ففي سلسلة من التدابير التي

---

(١٦٢) من المؤسسات الاقتصادية الاخوانية شركةالمعاملات الإسلامية ولاشركة العربية للمناجم والمحاجر وشركة الاخوان المسلمين للغزل والنسيج ـــ شركة المطبعة الإسلامية (شركة الاخوان للطباعة) والجريدة اليومية (شركة الاخوان للصحافة) (شركة التجارة والاشغال الهندسية بالاسكندرية) (شركة التوكيلات التجارية) (شركة الاعلانات العربية) . وكان في القاهرة فقط وبندر الجيزة سبعة عشر مستوصفا طبيا اما بالنسبة للتعليم فقد كان هناك عدد كبير من المدارس موزعة وفق التصنيف التالي : (رياض الأطفال ـــ مدارس لمحو الأمية وتنمية الثقافة الدينية ـــ مكاتب لتحفيظ القرآن ـــ مدارس ليلية لتعليم العمال والفلاحين ـــ أقسام خاصة للراسبيين في الامتحانات العامة شعب لتعليم الغلمان الذين حرموا التعليم لاشتغالهم بالصناعات ـــ معاهد لتعليم البنين مدارس امهات المؤمنين لتعليم البنات ـــ دور الصناعات الملحقة بالمعاهد ... مدارس الجمعية ... راجع الاخوان المسلمون المجتمع المصري ، ص ١٧٧ وما يليها ...

بدأت في ٨ كانون اول ديسمبر ١٩٤٨ حل النقراشي جماعة الاخوان المسلمين وحجز موجوداها واعتقل العديد من اعضائها ... (*) وفي الثاني عشر من شباط (فبراير) سنة ١٩٤٩ قتل الشيخ حسن البنا صريعا في ملابسات غامضة لم تفسر كليا إلى الآن وقام نشاط سري قوي بعد ذلك واستلم منصب المرشد العام الاستاذ حسن الهضيبي وفي سنة ١٩٥١ سمح للاخوان دورا مهما في معركة القتال ضد الانكليز وفي الأحداث الجائحة التي أدت إلى قيام الثورة سنة ١٩٥٢ وبعد فترة قصيرة من التعاون الصعب بين الاخوان والحكم العسكري تدهورت العلاقات بسرعة (١٦٣) .فاتهموا بمحاولة الانقلاب واعدم ستة منهم من بينهم المرحوم الاستاذ عبد القادر عودة مؤلف كتاب التشريع الجنائي في الإسلام ... وزج بالالاف في السجون ثم في عام ١٩٦٥ اتهموا مجددا بنفس الاتهام وحوكم الأستاذ سيد قطب على كتابه معالم في الطريق وأعدهم هو واثنان في التاسع والعشرين من آب سنة ١٩٦٦ .

وللاخوان المسلمين فروع في مختلف البلاد العربية وقد لعبوا دورا بارزا في سياسة اقطارهم .

اهداف الاخوان :

اما أهداف الاخوان المسلمين فقد أوجزها المرحوم الدكتور مصطفى السباعي المراقب العام للاخوان المسلمين في سوريا ولبنان فقال :

(*) كتب الاستاذ البنا قبل مقتله وكان هذا آخر ما كتبه عن أسباب حل الاخوان وجاء فيها الضغط الأجنبي : فقد أقر وكيل الداخلية للمرشد العام ان مذكرة قدمت الى النقراشي باشا من سفير بريطانيا وسفير فرنسا والقائم بأعمال سفارة امريكا بعد ان اجتمعوا في فايد في ٦ ديسمبر ١٩٤٨ تقريبا يطلبون فيها المبادرة بحل الاخوان المسلمين انظر (الاخوان المسلمون والمجتمع المصري ص ٢٩) . ووصفه اللواء محمد نجيب في خطاب القاه بذكرى وفاة البنا بما يلي : ان الامام الشهيد حسن البنا احد اولئك الذين لا يدرك البلى ذكراهم ولا يرقى النيسان الى منازملهم لأنه رحمه الله لم يعش لنفسه بل عاش للناس ولم يعمل لمنفعته الخاصة بل عمل للصالح العام . انظر المرجع السابق ص ٣٥ .

(١٦٣) الغرب والشرق الأوسط ، ص ١٧٣ — ١٧٦ .

(تستهدف دعوة الاخوان خمسة امور رئيسية) :

اولا : اصلاح الفرد وصلاحه انما يتم ــ على الوجه الأكمل بتطهير عقيدته من الفساد وقلبه من الزيغ ونفسه من الشهوة وخلقه من الضعف وروحه من العزلة حتى يكون في المجتمع بناء يعمل بروح البرار ويكافح بعزيمة المناضلين ويفكر بعقل العلماء والحكماء .

ثانيا ــ اصلاح الاسرة : اذ هي الخلية الاساسية في المجتمع ، واستقامة شؤونها وتماسك بنيانها هو وحده السبيل إلى تماسك بنيان المجتمع على الأسس التالية :

١ ــ التحرر من الجهل والخوف والرذيلة والجوع والمرض والمهانة .

٢ ــ النظام المحكم الذي يجمع بين القوة والرحمة والعدالة والتسامح وينتفي فيه طغيان الفرد وميوعة الجماعة .

٣ ــ القوة التي تحفظ الأمة في داخل المجتمع وتصد العدوان عن حدوده وسيادته وتحارب الظلم والطغيان اينما كان ..

رابعا ــ كفاح الإستعمار : الاخوان المسلمون لا يرون لكفاح الإستعمار حدا يقفون عنده حتى تتحرر امتهم من كل آثاره العسكرية والسياسية والإقتصادية والفكرية وهم لا يرون استعمارا اولى بالمهادنة من استعمار . فكل عدوان على بلادهم وعلى عقائدهم وعلى كرامتهم وأموالهم يعتبر استعمارا يجب محاربته بكل وسيلة .. ويرى الاخوان ان كفاح اعوان المستعمرين من طغاة ومستبدين ومستثمرين هو كفاح للاستعمار ذاته لا يهادنون فيه احدا ..

خامسا ــ توحيد العرب والمسلمين : (.. مناجل ذلك نادى الاخوان المسلمون بوجوب تكتل العالم الإسلامي في اتحاد سياسي واقتصادي كالإتحاد

السوفياتي أو الأمريكي وفي ظل هذا الإتحاد يستطيع العرب وكل شعب من شعوب العالم الإسلامي ان يعملوا لبلادهم ولكياناتهم الخاصة في اطار من التعاون العملي الذي يجعل منهم امة مرهوبة الجانب محترمة الكيان تلعب دورا خطيرا في صيانة السلام في العالم وتوفير الرغد والأمن لشعوبه ..) [١٦٤] .

تعريف جماعة الاخوان :

ويعرف الدكتور السباعي جماعة الاخوان المسلمين بما يلي :

ليست دعوة الاخوان المسلمين دعوة حزبية ضيقة تقف عند حدود سوريا ولبنان ، فقط بل هي حركة عالمية في مصر والسودان وشمالي افريقيا وفلسطين وشرقي الأردن والعراق وسوريا ولبنان والحجاز وباكستان واندونيسيا واكثر مناطق الشرق العربي والإسلامي ، نهضة عالمية تمثل حركة البعث الجديد في شباب العروبة والإسلام بعثا قويا يعتمد على اقوى الدعائم التي احدثت كبرى الانقلابات الاصلاحية في العالم القديم والحديث وهي واضحة في اسسها واضحة في اهدافها ووسائلها ...

ونحن الاخوان المسلمين :

لسنا جمعية خيرية تنحصر مهمتها في جمع الأموال لاغاثة الفقراء والمنكوبين من المحسنين والأغنياء .

ولسنا جمعية وعظية تنحصر مهمتها في وعظ الناس بالخطب والمقالات والنشرات.

ولسنا حزبا سياسيا تنحصر مهمته في جمع الناس حوله ليصل اعضاؤه إلى الحكم فيحققوا منهجهم السياسي المحدود .

---

(١٦٤) دروس في دعوة الاخوان المسلمين .

ولسنا جماعة مادية تنحصر مهمتها في نطاق المشاريع الإقتصادية لفائدة اعضائها المنتمين اليها .

ولسنا هيئة اقليمية تنحصر مهمتها في نطاق محلي أو اقليمي أو قومي ضيق .

انما نحن :

دعاة انقلاب اصلاحي فكري وعملي شامل ..

دعاة سالة شاملة .. تشمل الناس جميعا وتنظم نواحي الحياة جميعا ..

دعاة عصبية للفضيلة والخير والحق والعزة .

دعاة دين ولسنا دعاة طائفية ..

انصار سلم لمن اراد بأمتنا وبلادنا سلما وخيرا وكرامة ..

جنود كفاح لمن اراد لنا الافناء ولأوطاننا الإستعمار ولشريعتنا التهديم ولجماهيرنا الافقار والاذلال ...

دعاة اصلاح اجتماعي في امتنا ..) (١٦٥) .

ثانيا : حركة النور في تركيا

حتى في تركيا ... في المجتمع المتغرب العلماني المترفع . مجتمع الجمهورية الكمالية .. كانت حركات دينية مكافحة تعارض الثورة الكمالية وكان على زعامتها الأخوة الدراويش و لم يكونوا من "العلماء" لأنهم كانوا موظفين رسميين . في حياة كمال اتاتورك كانت الحركة النقشبندية راس حربة المعارضة الدينية ، اذ قاد عدد غير قليل من افرادها ثورات مسلحة واهمها في المنطقة الجنوبية الشرقية

(١٦٥) المرجع السابق ص ٢١ ــ ٢٢ .

سنة ١٩٢٥ وفي مينيمين سنة ١٩٣٠ ، اما حديثا فالحركة التيجانية والحركة النورية هما اللتان تبشران وتدعوان مناهضة الثورة الكمالية .. ولكنهما لم تحملا السلاح بعد) هذا ما قاله الاستاذ برنارد لويس في كتابه الغرب والشرق الأوسط ص ١٧٧ .

والحقيقة ان حركة النور حركة ضخمة بلغ عدد افرادها الملايين وقد اسسها العلاقة الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي .

(ففي منتصف القرن الماضي نشات في الدولة العثمانية حركات علمانية قوية بين طبقات المثقفين بالثقافة الأوروبية من المدنيين والعسكرين تدعو إلى تجديد بناء الدولة العثمانية على اسس اوروبية محضة ، ونجحت هذه الحركات بعد محاولات كثيرة في الاستيلاء على الحكم وانشأت جمهورية حديثة على اسس علمانية وبدلت احكام الشريعة بأحكام قانونية غربية ثم تابعت محاولتها لفصل شعب تركيا المسلم عن سائر الشعوب الإسلامية الشقيقة وعلى الأخص الشعوب العربية .

ولكن شعب تركيا لاشجاع لم يستسلم لهذه الفتنة الجديدة بل راح يقاومها بكل ما اوتي من قوة قوامت حركات شعبية إسلامية تبين اصالة الشعب التركي في تعلقه بالإسلام دينا وشريعة وبالاخوة الإسلامية مع الشعوب العربية .

وكان من اهمل ستلك الحركات واغزرها فكرا واعمقها اثرا تلك الحركة التي قام بها العلامة الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي وتلامذته ــ طلاب رسائل النور ــ فكشف عن دقائق الإسلام الخالدة من جديد واعاد للأجيال الناشئة ثقتها بتاريخها وجهادها ونجح في بلورة تعاليم الإسلام وبين مزايا شريعته الخالدة

للشباب المتوثب في تركيا . واخذ يكتب عددا من لارسائل الإسلامية تحت عنوان (سلسلة رسائل النور) [١٦٦] .

وإذا كانت سنة الله في كونه اقتضت كما يقولون ان يبعث بين كل فترة واخرى من الزمن من يجدد للمسلمين امر دينهم ، يوقظ فيهم دواعي الجهاد ذودا عن شريعة الله ودينه فان بديع الزمان هو المجدد الذي اكرم الله به المسلمين في تركيا ابان حكم كمال اتاتورك فقد كان رمز الحرب الإسلامية لحكمه وكان المحور الذي استقطب حوله ملايين الشباب المسلمين للصمود في وجهه ، ولقد مات اتاتورك مصطفى كمال واتباع بديع الزمان يكثرون ويزيدون .

(وحينما توفي بديع الزمان منذ ثلاث سنوات (توفي في ٢٧ رمضان ١٣٧٩/ ١٩٥٩) تقريبا كان اتباعه يطرقون ابواب الحكم في تركيا من جميع اطرافه ورغم ان امريكا تداركت الأمر فقلبت الأوضاع وعملت على وضع الحكم من جديد في ايدي (الكماليين) فان اتباع بديع الزمان والأمناء على عهده وجهاده هم الذين يجمعون امرهم اليوم للثورة) [١٦٧] .

ففي سنة ١٩٠٨ حين ظهرت حرية محمد رشاد وجمعية الإتحاد والترقي التي كانت تتقنع بالدين ظاهرا وتخفي رجس الماسونية واليهودية باطنا ، بادر بديع الزمان فالف جمعية إسلامية باسم (الإتحاد المحمدي) سرعان ما انضم اليها من شتى اطراف الدولة العثمانية آلاف الناس .

محاربة الماسونية لبديع الزمان :

.. ولقد اثار عمل بديع الزمان هذا مخاوف الماسونيين الذين كانوا من وراء الحركة الإتحادية فارسلوا رئيس محفلهم الثري اليهودي العظيم (قرصو) لمقابلته

---

(١٦٦) من مقدمة لرسالة عن حياة سعيد النورسي للاستاذ الشيخ عبد الله الخالدي .

(١٦٧) الاستاذ محمد سعيد رمضان البوطي ، المرجع السابق ، ص ٦ ــ ٧ .

ولكنه ما لبث ان خرج من عنده قائلا لرفاقه (لقد كاد هذا الرجل العجيب ان يزجني في الإسلام بحديثه (وقرصو) هذا هو اول سهيوني ماسوني عمل على قلب الخلافة العثمانية وخلع السلطان عبد الحميد واستلاب فلسطين .

و لم يجد الإتحاديون من سبيل امامهم اخيرا سوى القبض على بديع الزمان فقبض عليه في حادثة ٣١ آذار سنة ١٩٠٩ التي اعدم فيها ١٥ مسلما وقدم إلى نفس المجلس الذي حوكم فيه هؤلاء .

وبعد ان حكم على الخمسة عشر بالاعدام توجه رئيس المحكمة خورشيد باشا إلى بديع الزمان قائلا : وانت أيضاً تدعو إلى تطبيق الإسلام ؟ وطلب منه ان يتكلم بما لديه فقال بديع الزمان :

لو ان لي ألف روح لما ترددت ان اجعلها فداء لحقيقة واحدة من حقائق الإسلام ... انني اقول لكم وانا اقف امام البرزخ الذي تسمونه السجن في انتظار القطار الذي يمضي بي إلى الآخرة لا لتسمعوا انتم وحدكم بل ليتناقله العالم كله :

... لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل أيام الإستبداد والآن فإنها تعادي الحياة وإذا كانت الحكومة هكذا فليعش الجنون وليعش الموت ... وللظالمين فلتعش جهنم.

لقد سألتموني : هل انت داخل في جمعية الإتحاد المحمدي ؟ وانا اقول لكم مع الفخر انني من أصغر افرادها ولكن هل لكم أن تخبروني من هم الذين يوجدون خارج هذه الجمعية غير المجانين والسفهاء ؟

وكانت جريمتي الأخرى اني تصديت للرد على دعاة الماسونية والالحاد من اصحاب الصحف وقلت لهم : ان على الأديب ان يكون اديبا في دعوته .. خصوصا إذا كان سمع الأمة ولسانها . وانني اقول الآن : كما انه لا يناسب

الشيخ الوقور ان يلبس لباس الراقصين فكذلك لا يناسب استانبول ان تلبس اخلاق اوروبا [١٦٨] .

وحكم على بديع الزمان ... ثم اخلي سبيله تحت ضغط الجماهير ... ونشبت الحرب الأولى ووقع بديع الزمان اسيرا في يد الروس ، واستطاع الفرار ... وبعد انتهاء الحرب الأولى استولى الانكليز على استانبول عام ١٩١٨ ووجهوا ستة اسئلة إلى المشيخة الإسلامية عن طريق كنيسة (انكلكان) اريد منها البدء بسلسلة مؤمرات على الإسلام فوجهت المشيخة الإسلامية هذه الاسئلة إلى بديع الزمان ليجيب عليها بستمائة كلمة حسب طلب الانكليز فكان جواب بديع الزمان (ان هذه الاسئلة لا يجاب عليها بستماية كلمة ولا بست كلمات ولا بكلمة واحدة . بل ببصقة واحدة على افواه السائلين فحكم عليه بالاعدام .. ثم عدل عن ذلك خوفا من ثورة الاناضول) .

حكم الخائن مردود :

وعندما قام مصطفى كمال بثورته ١٩٢٠ وكان يتظاهر بالإيمان والإسلام . ارسل بديع الزمان خطابا مطولا إلى المجلس النيابي الذي ترأسه مصطفى كمال ضمنه نصائح لهم في عشر فقرات وجعل عنوانه هذه الجملة :

(اعلموا ايها المبعوثون انكم مبعوثون ليوم عظيم) .

وكان من تأثير هذا البيان ... ان استقام على التدين واقامة الصلاة ستون نائبا منهم غير ان هذا اثار حفيظة مصطفى كمال ، فاستدعى بديع الزمان ودخل معه في مناقشة حادة وفي ديوان المجلس النيابي وكان مما قاله كمال : لا ريب اننا

---

(١٦٨) المرجع السابق .

بحاجة إلى استاذ قدير مثلك ... ولكن اول عمل قمت به لنا هو الحديث عن الصلاة لقد كان اول جهودكم هنا حديث الفرقة في اهل هذا المجلس .

فأجاب بديع الزمان : ان اعظم حقيقة تتجلى بعد الإسلام انما هي الصلاة وان الذي لا يصلي خائن وحكم الخائن مردود) [١٦٩] .

وبدا الصراع .. واستطاع كمال اتاتورك ان يحول تركيا الرسمية عن الإسلام ـــ على نحو ما رأينا [١٧٠] ـــ وعكف بديع الزمان على كتابة الرسائل مستهدفا التوعية الإسلامية ومقاومة اتاتورك بالفكرة والمبدأ . اما كيفية انتشار هذه الرسائل بين الناس ففيها الاعجوبة الخارقة التي تكشف عن مدى ما تفعله عقيدة هذا الدين في نفس صاحبها اذ تحول فيه الضعف إلى قوة والجبن إلى شجاعة .

كان اتاتورك اذ ذاك قد اسفر عن وجهه ... فالغى جميع وجوه النشاط الإسلامي وفي مقدمتها الكتابة بالأحرف العربية وما قد يتضمنها من بحوث وتعليمات إسلامية . فكان سبيل جماعة النور إلى نشر رسائل الاستاذ هو ان يأخذ كل فرد على نفسه كتابة ما يمكن من النسخ عن كل رسالة تظهر فاذا وزعها على القراء كان على كل من هؤلاء أيضاً ان يقوم بنفس الوظيفة وهكذا تتكاثر هذه الرسائل في الأيدي عن طريق التوالد المطرد وكما تنتشر الدوائر المتداخلة على سطح الماء اذ يقذف فيه بحجر تنتشر هذه الرسائل بسرعة مذهلة في مختلف البلدان والقرى والمجتمعات . لقد ظل جماعة النور قرابة عشرين عاما ينشرون رسائل النور بهذه الوسيلة ، فقد كانت ايدي الشبان والفتيات تقوم بما تعجز عنه آلات الطباعة . وكثيرا ما تعرضت فتيات للسجن والتنكيل اذ ظهر

([١٦٩]) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

([١٧٠]) راجع فصل كيف دالت دولة الإسلام من هذا الكتاب .

للسلطات انها تسهر الليالي الطويلة وهي تنسخ هذه الرسائل ثم توزعها في صناديق البريد أو في صفوف المدارس [١٧١] .

وعلى اثر ذلك امر اتاتورك بنفي بديع الزمان فنفي إلى بارلا ثم إلى اسكي شهر ثم حوكم بتهمة قلب نظام الحكم . وبعد ان انتهت مدة سجنه نفي إلى كاستامونو على البحر الأسود ... ولكنه حتى في هذه الحالة ظل يكتب البحوث والمواضيع الإسلامية ويهيب بالمسلمين ان لا يتركوا دينهم ويصيح بالشباب ان لا يعصب عينيه بعصائب الجهل بالإسلام . وظلت النشرات تنتقل سرا ..ز إلى صفوف الجامعات ومعسكرات الجيش ودواوين الحكومة.

(وشعر مصطفى كمال بالزلزال يسري في كيان حكومته ، فعقد اجتماعا سريا دعا اليه كبار رجال الماسونية الذين ساهموا مساهمة فعالة في تقويض بناء الخلافة الإسلامية وبناء الحكومة العثمانية على انقاضه ، انتهى باتفاقهم على احالة بديع الزمان مرة أخرى للمحاكمة بتهمة تأليف جمعية سرية والعمل على الإساءة لحكومة الثورة واتهام مصطفى كمال بالدجال) [١٧٢] .

بديع الزمان امام المحكمة من جديد :

ووقف بديع الزمان وكثير من اعضاء جماعتهامام المحكمة ... وكان مما قاله :

(انني لا أتوجه في بياني هذا إلى أعضاء هذه المحكمة فقط بل والى تلك الجماعة الماكرة في اسبارطة أيضاً ... اني لأعجب كيف يتهم اناس يتبادلون فيما بينهم تحية القرآن وبيانه ومعجزاته باتباعهم للسياسة والجمعيات السرية . على حين يحق لمارق مثل (الدكتور دوزي) ان يفتري على القرآن وحقائقه في وقاحة

(١٧١) المصدر السابق ، ص ٢٧

(١٧٢) المصدر السابق ص ٣٦ .

واصرار ثم يعتبر امرا مقدسا بذلك ، لأنه حرية للرأي والفكر . اما نور القرآن الذي يأبى الا ان يشع في أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين بدستوره فهي خطورة ينهال عليها جميع الفاظ الشر والخبث والسياسة.

(انكم تدورون ثم تقولون : ان اعمالي الدينية ما هي الا استغلال ووسيلة للاخلال بالأمن ولكن اقول لكم بالمقابل : ان دعواكم هذه ليست الا استغلالا ووسيلة لاعدام الدين باسم المحافظة على الأمن ... إذا فان تلك المادة ذات الرقم ١٦٣ ما هي الا عبارة عن كرة تقذفون بها إلى حيث أردتم وما

يوجد نقص ص ٢٣٢-٢٣٣

في السياسة والاكتفاء بالحياة الآخرة دون الحياة الدنيا ويتبعون لذلك الانزواء البعيد عن الحياة .

كلا : فهم ليسوا من هؤلاء المنعزلين في سبيل الوصول إلى الهدف ولكنهم جماعة يحبون العمل والحركة ويستعدون لاعلان الجهاد المقدس في سبيل اعلاء كلمة الله في الأرض ولذا فهم يحرصون على تربية افرادهم تربية روحية وعقلية كاملة بحيث تصبح الشهادة في سبيل العقيدة مطلبهم الرئيسي .

وحركة النور في تركيا ... تعرف ان الأحكام الإسلامية وما يتصل بها من قوانين حقوقية خاصة بالدولة قد استبدلت بأحكام مدنية لا دينية وهي تعلن انها تستنكر هذا الأمر .

... وهم لن يلجأوا إلى تغيير الأوضاع بالقوة ولكنهم سيمهدون لهذا التغيير بالأمور الدعوية حتى يعم الوعي وينتشر نور الإسلام في كل مكان ...

ثالثا ــ فدائيان إسلام في ايران :

يقول برنارد لويس في كتابه الغرب والشرق الأوسط (ويلاحظ نفس المزيج من المثالية والعنف ، من التقوى والارهاب في المنظمة الايرانية التي تسمى فدائيان إسلام ... وبالرغم من مذهبهم الشيعي فانهم يحملون فكرة عن الوحدة الإسلامية تماثل إلى حد كبير فكرة الاخوان المصريين . ولقد كانت بينهما اتصالات وفي ٧ آذار سنة ١٩٥١ قتل احد افراد فدائيان إسلام رئيس الوزراء الايراني الجنرال ازمارا ... وفدائيان إسلام هي في حالة خسوف الآن ولقد بقيت إلى مدة عامل اضطراب في سياسة ايران) [١٧٣] .

نواب صفوي وجهاده :

(كان نواب صفوي معارضا شديدا للجهاز الحاكم في ايران وكان يعتبره مؤلفا من دمى في ايدي المستعمرين وكان على يقين انه سيدعى ورفاقه ان عاجلا أو آجلا ليقدموا دماءهم في سبيل الأهداف التي يتمسكون بها وقال نواب اننا متأكدون من اننا سنقتل ان لم يكن اليوم فغدا ، ولكن دماءنا وتضحياتنا سوف تحيي الإسلام وتحفزه إلى النهوض ان الإسلام بحاجة إلى هذه الدماء والتضحيات اليوم ولن ينهض بدونها ابدا) [١٧٤].

ونواب هذا شاب متوقد الإيمان والحماس يبلغ من العمر تسعة وعشرين درس في مدينة النجف بالعراق ثم عاد إلى ايران ليقود حركة الجهاد ضد الخونة والمستعمرين اسس (نواب صفوي) حركة فدائيان إسلام التي تؤمن بأن القوة هي السبيل الوحيد لتطهير ارض الإسلام من الصهيونية والمستعمرين [١٧٥] .

فدائيان وجهادهم بفلسطين وضد الانكليز :

---

(١٧٣) ص ١٧٦ ــ ١٧٧ .

(١٧٤) مجلة المسلمون المجلد الخامس ص ٨٦ .

(١٧٥) الاستاذ فتحي يكن جريدة الشهاب اللبنانية العدد ٤ السنة الأولى ١٦٧ .

وعندما بدأت الحرب الفلسطينية عام ١٩٤٨ لبس رجال جماعة فدائيان إسلام الأكفان واستعدوا للزحف على فلسطين ... لكن توقيع الهدنة أعادهم) [١٧٦] .

وايضا عندما بدأت (معارك التحرير من النفوذ البريطاني عند تأميم مصافي عبادان كان فدائيان إسلام الشعلة التي اثارت السبيل ومهدت الطريق بسيل من الدماء ...

وأخيرا عندما نقضت اتفاقات التأميم انتكست الوثبة وعاد معه اذنابه واتباعه ، كان لا بد لفدائيان إسلام من ان يعملوا ... فقال زعيمهم نواب (لا) بالرغم من ان الكتل الوطنية كلها سكتت أو زج بها في السجون ...فكان ان شرفه الله بالشهادة مع نفر من اخوانه وسقط نواب صفوي برصاص الخونة والعملاء صباح يوم الاربعاء في الخامس من جمادى الثاني ١٣٧٠ الموافق ١٨ من كانون الثاني ١٩٥٦ ([١٧٧]) .

مبادئ فدائيان :

ويمكن ان نلخص مبادئ حركة فدائين إسلام بالمبادئ الأربعة التالية :

اولا : الإسلام نظام شامل للحياة

ثانيا : لا طائفية بين المسلمين اي لا سنة ولا شيعة.

ثالثا : لا تعارض بين الإسلام والوطنية .

رابعا : وحدة العالم الإسلامي على اساس (الإسلام طريق حل مشكلات المسلمين) .

([١٧٦]) الاستاذ فتحي يكن جريدة الشهاب اللبنانية العدد ٤ السنة الأولى ١٦٧.

([١٧٧]) المرجع السابق .

فمن المبدأ الأول يقول نواب (ليس الإسلام عندنا مجرد فرضية غيبية انه نظام شامل للحياة الإنسانية ، انه فكرة فعالة قادرة على تزويد الإنسان بكل خير في الدنيا والآخرة ، وينطوي على الحلول الحاسمة لجميع مشكلاتنا وقضايانا انه يوفر للجميع الغذاء والكساء والمأوى ويهيء لنا اشرف علم وأسمى ثقافة وتربية وفوق كل ذلك يضع لنا نظاما اجتماعيا اقتصاديا سياسيا يضمن الأمن والسلامة للفرد والمجتمع والناس كافة . انه يغنينا عن كل ما في النظم المعاصرة ـــ الرأسمالية والشيوعية ـــ من فوائد وينأى بنا عن مضارها) [١٧٨] .

وعن المبدأ الثاني قال نواب (لنعمل متحدين للإسلام ولننسَ كل ما عدا جهادنا في سبيل عز الإسلام ... ألم يأن للمسلمين ان يفهموا ويدعوا الانقسام إلى شيعة وسنيين . لينظروا جميعا في كتاب ربهم وهو كفيل بتوحيدهم حتى يكونوا جبهة قوية متحدة امام اعدائهم المتربصين . ان الالام والتضحيات التي يتحملونها في سبيل هدفهم المشترك سوف يكون لها الأثر الفعال في جميع القلوب) [١٧٩] .

اما المبدأ الثالث فقد اوضحه نواب للصحفي الباكستاني الذي ساله عن تعاون فدائيان مع حركة مصدق القومية المتطرفة التي آزرها حزب ثورة الشيوعي في نفس الوقت فقال (ان مصدق يعمل لنهضة ايران. وان تأميم البترول كان من الأهداف المشتركة التي جمعت بين مصدق وفدائيان ولذلك وقفت الجماعة من مصدق موقف المؤيد الثابت ، خصوصا عندما حاول المستعمرون التغلب عليه بالدسائس الدنيئة والمؤامرات بالتعاون مع عملائهم في ايران... وان الإسلام لا يتعارض والوطنية ولكنه يحارب الوطنية الحمقاء ... وإذا حصل اي تعارض بين

([١٧٨]) مجلة المسلمون ، ص ٧٥ .

([١٧٩]) مجلة المسلمون ، ص ٧٥ .

الإسلام والوطنية فان جماعة ،فدائيان) دون شك أو تردد تعتزم سبل الإسلام) [١٨٠] .

وجواباً على سؤال كيف يواجه المسلمون مشكلاتهم الكبرى التي تعترض سبلهم كمشكلة كشمير وفلسطين والمغرب (حين كان المغرب مستعمرا) اجاب نواب محددا المبدأ الرابع من مبادئ فدائيان فقال (ان الكمنولث الإسلامي هو الحل الصحيح بل هو الطريق الوحيد للخلاص ، ولكن هذا غير مستطاع ما دام العاملون المخلصون للإسلام لم يتقلدوا بعد أمور المسلمين وكل وحدة مصطنعة بين المسلمين مع وجود القوى المستعمرة التي لا تعمل الا لمصالحها فإنها رهينة التفكك . ان وحدة العالم الإسلامي ممكنة على اساس الإسلام ولصالح المسلمين ولا تصح الا على هذا الأساس) [١٨١] .

رابعا : الجماعة الإسلامية في باكستان :

الجماعة الإسلامية في باكستان حركة إسلامية بحتة تدعو إلى إحياء الدين الحنيف وتهدف إلى رفع كلمة الله في الأرض وتحكيم كتاب الله تعالى وسنة رسوله في الحياة العامة والخاصة وتطهيرها من شوائب التناقض والشرك واقامة مجتمع إسلامي سليم يمثل الإسلام في مبادئه النبيلة وتقاليده الذهبية وروحه الطيبة .

(ولقد تاسست الجماعة الإسلامية سنة ١٩٤١ اي قبل قيام باكستان ست سنوات بقيادة الاستاذ الكبير العلامة المجاهد الشجاع ابي الأعلى المودودي وما ان تأسست باكستان وبرزت إلى الوجود هذه الدولة الإسلامية حتى اخذت الجماعة الإسلامية زمام المبادرة للمطالبة بوضع دستور البلاد على اسس مستمدة من

([١٨٠]) المرجع السابق ، ص ٧٤ .

([١٨١]) المرجع السابق ، ص ٧٧ .

كتاب الله وسنة رسوله ، وقد لاقت في سبيل هذه الدعوة ما لاقت من المحن والمتاعب (١٨٢) . واصطدمت اصطدامات عنيفة بالفئات والاتجاهات التي اوجدها الاستعمار كالقاديانيين ومنكري السنة النبوية والمتفرنجين والمخدوعين بالحضارة الغربية .

وفي عام ١٩٦٣ صادرت الحكومة مجلة ترجمان القرآن ـــ التي كان يصدرها الاستاذ المودودي ـــ والغت امتيازها(*) (٩ بحجة ان المجلة حاولت اساءة العلاقة بين باكستان وايران (*) .

وفي عام ١٩٦٤ اصدرت الحكومة اوامرها بحل الجماعة وصادرت اموالها واغلقت دورها ومراكزها ، ثم القي القبض على امير الجماعة وجميع اعضاء مجلس الشورى وهم ستون شخصا ... وزج بهم في السجون والمعتقلات ... وبعدها قدم المودودي للمحاكمة وصدر الحكم فعلا ثم خفض إلى السجن المؤبد تحت ضغط العالم الإسلامي واستنكاره الشديد لموقف الحكومة من الجماعة الإسلامية (١٨٣) .

وتقلبت الجماعة الإسلامية ت بعد ذلك ـــ في أدوار مختلفة حتى إذا ما أعلنت الحكومة العسكرية الأخيرة عن اجراء انتخابات في باكستان في أواخر سنة ١٩٧٠ لوضع دستور للبلاد حتى راحت الجماعة الإسلامية تركز قواها في جميع أنحاء البلاد متآلفة مع المجموعات الإسلامية هناك .

---

(١٨٢) محنة الجماعة الإسلامية في باكستان ، ص ٣ .

(*) مع غرامة قدرها عشرة آلاف روبية باكستانية ، انظر ايضا كتاب محنة الجماعة الإسلامية في باكستان ففيه حياة هذه الجماعة واعمالها ومنها تهم الحكومة الباطلة .

(*) مقال نشرته المجلة كتبه علماء ايران عن الوضع في ايران وسياسة الحكومة ووضع اليهود انظر المرجع السابق ص ٧٠ وما يليها .

(١٨٣) للأستاذ فتحي يكن مجلة الشهاب اللبنانية العدد الرابع السنة الأولى ١٩٦٧ وقد افرج عن الاستاذ المودودي مؤخرا ثم اعيد اعتقاله ثم افرج عنه .

وقد كشف النقاب في باكستان عن أن الجماعة الإسلامية توجه ثلاثة تنظيمات جماهيرية كبرى هي منظمة العمال التي تضم خمسماية اتحاد مهني ومنظمات الشباب التي يتفرع عنها منظمة الطلاب المسلمين ومنظمة قوة الشباب الديمقراطية ومنظمة الفدائيين المسلمين الذين كتبوا بدمائهم استعدادهم للاستشهاد في سبيل الدعوة إلى الله .

ومن الناحية الإعلامية فإن الجماعة الإسلامية تحاول تغطية باكستان بشقيها الغربي والشرقي فقامت باصدار ست صحف يومية موزعة في المدن الرئيسية ومجلة شهرية وأخرى أسبوعية .

اما من الناحية التنظيمية فقد اصبح للجماعة في باكستان فرع يقوم على قيادتها خمسماية متفرغ لا عمل لهم الا التنظيم والدعوة إلى الله .

طبيعة ومصدر منهاج الجماعة :

وتتلخص دعوة الجماعة الإسلامية في باكستان بمبادئ ثلاثة كما اعلنوها وهي :

١ ــ دعوتنا للبشر كافة والمسلمين خاصة ان يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئا ولا يتخذوا الها ولا ربا غيره .

٢ ــ ودعوتنا لكل من أظهر الرضا بالإسلام دينا ان يخلعوا دينهم لله ويتركوا انفسهم من شوائب النفاق واعمالهم من التناقض .

٣ ــ ودعوتنا لجميع اهل الأرض ان يحدثوا اصلاحا عاما في اصول الحكم الحاضر الذي استبد به الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الأرض فسادا وان ينزعوا

هذه الامامة الفكرية والعملية من ايديهم حتى يأخذها رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ويدينون دين الحق ولا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا [١٨٤] .

وقد ذكر الاستاذ المودودي طبيعة ومصدر منهاج الجماعة في العمل الإسلامي فقال [١٨٥] : (والحقيقة ان منهاجنا ــ كدعوتنا ــ انما هو مأخوذ من القرآن الكريم وسيرة الأنبياء عليهم السلام فالذين يقبلون دعوتنا ويظهرون استعدادهم لحمل اعبائها وتبليغ رسالتها معنا ، فان اول ما نطالبهم به ان يدخلوا في دين الله كافة ويصطبغوا بصبغته بجملة شؤون حياتهم من فكرية وعملية ويجعلوا سلوكهم العام في الحياة هو الدليل على اخلاقهم وتجردهم ويبذلوا سعيهم لتزكية حياتهم وتطهيرها من كل شيء يخالف ايمانهم ومن هنا تأخذ ارواحهم تقوى ونفوسهم تعقل واخلاقهم تتهذب وسيرتهم تتزكى ويدخلون مرحلة الابتلاء والامتحان) .

ومن النتائج التي توصلت اليها الجماعة الإسلامية بعد مرورها بتجارب متنوعة واجتيازها مراحل عديدة ان الحركة الإسلامية ليست بغنى عن امرين اساسيين بحال من الأحوال ، في صدد دعم قواعدها وتثبيت خطواتها وتحقيق غاياتها :

احدهما : التخطيط والتنظيم

والآخر : التربية من الناحيتين الفكرية والروحية .

كما يلزم للعاملين للإسلام ان يكونوا مضطلعين بالثقافة العصرية والأفكار السائدة والدعوات الحديثة من مواطن الضعف والفساد والدمار اذ ان هذا

---

(١٨٤) راجع الصفحة الأخيرة من كتب الاستاذ المودودي وقد وقعت هذه الصفحة باسم الجماعة الإسلامية في باكستان وراجع ايضا تذكرة دعاة للأستاذ المودودي ص ١٠٩ .

(١٨٥) تذكرة دعاة الإسلام ، ص ٢٥ ــ ٢٦ .

يزيدهم ايمانا بنظرية الإسلام ودعوته ويؤهلهم لدحض الحجة بما هو اقوى منها ولاقناع الاذهان بخطا الخاطئ وصحة الصحيح بينما تحليهم بالتربية الروحية يجذب اليهم القلوب ... وهذا اقوى سلاح وانجح وسيلة واوفق منهاج واضمن عمل لنجاح صاحبه في الدنيا والآخرة (١٨٦) .

كتابات المودودي :

من أجل هذا عكف الاستاذ المودودي على تزويد اعضاء الجماعة والمسلمين في العالم بمباحث فكرية رصينة في مختلف مواضيع الحياة والحركة ، ونستطيع ان نقرر بكل طمأنينة ان لمؤلفات الاستاذ المودودي اعظم الأثر في بلورة الفكرة الإسلامية ليس فقط في الجماعة الإسلامية في باكستان بل في كافة الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي وتعتبر كتابات المودودي مرجعا غنيا للعاملين والمفكرين المسلمين .

ومن هذه المؤلفات :

في الحركة : تذكرة دعاة الإسلام والأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية

في العقيدة : مبادئ الإسلام ـــ البينات ـــ المصطلحات الأربعة في القرآن ـــ الإسلام والجاهلية ـــ الحضارة الإسلامية .

في الأنظمة : معضلات الإقتصاد وحلها في الإسلام ـــ النظرية السياسية في الإسلام ـــ الجهاد في سبيل الله ـــ نحو دستور إسلامي ـــ الربا ـــ الحجاب ـــ حركة تحديد النسل .

في الحضارة : الحضارة الإسلامية

---

(١٨٦) خليل احمد الحامدي معتمد دار العربية للدعوة الإسلامية بلاندر باكستان انظر تقديم كتاب تذكرة دعاة الإسلام ص ٧ ـــ ٨ وقد كتب هذا التقديم في شباط ١٩٦٦ .

وله مقالات عديدة منشورة في مختلف المجلات الإسلامية تبحث في الثقافة والتفسير (١٨٧) والرد على مفتريات المبطلين والخانعين ، وله ابحاث ودراسات موضوعية مختلفة .

وتعتبر الجماعة الإسلامية في باكستان من أقوى الحركات الإسلامية في العالم عددا وتنظيما .

خامسا : حزب ماشومي (أو مجلس شورى المسلمين) في اندونيسيا :

للحركة الإسلامية في اندونيسيا تاريخ يختلف عن تاريخ الحركات الإسلامية من حيث التكوين ، ومن حيث العدد والتنظيم . فحزب ماشومي مثلا يقدر اعضاؤه منذ عام ١٩٥٤ بأحد عشر مليوناً (١٨٨) وهو فعلا تولى المفاوضة على المائدة المستديرة التي انتهت باستقلال تام ومنجز لأندونيسيا ممثلون عن حزب ماشومي قائد الثورة (١٨٩) ثم كان للحزب ممثلون في البرلمان والوزارة واستلم رئاسة الوزارة لفترة من الزمن ثم بدأ الصراع عنيفا بينه وبين الرئيس سوكارنو مما ادى إلى اشتعال ثورة هائلة في اواسط سومطرة ... وظل الحزب بعيدا عن الحكم يقاوم الشيوعيين وحكم سوكارنو حتى أذن الله بزوال حكم سوكارنو وكشف مؤامرة الشيوعيين الأخيرة في أندونيسيا .

وقد كتب الأستاذ علي الطنطاوي تحليلا للحركة الإسلامية في أندونيسيا على اثر زيارته لهذه الدولة واطلاعه على الأوضاع الخاصة للأحزاب هناك نقتطف منه ما يلي :

---

(١٨٧) للأستاذ المودودي تفسير يسمى (تفهيم القرآن) وقد بدأ به منذ اكثر من خمس وعشرين سنة وظهر منه حتى الآن ثلاثة اجزاء من اول سورة الفاتحة الى آخر سورة الروم . ويكتب الاستاذ المودودي مؤلفاته بالاردية وقد عربت اكثرها .

(١٨٨) راجع الحركة الإسلامية في اندونيسيا للأستاذ علي الطنطاوي والمنشور في مجلة المسلمين المجلد السادس ص ٦٣٦ ولعله اراد بالأعضاء مآزري الحزب ومؤديه فضلا عن المنتظمين .

(١٨٩) من تصريح للاستاذ محمد ناصر زعيم الحزب .

(لتاريخ الجمعيات والأحزاب في اندونيسيا مراحل كثيرة :

١ ت اما مرحلة التأسيس ، فالفضل كله فيها لرجل واحد ، هو الذي شق للناس هذا الطريق ، هو الذي قادهم إلى العمل وهو الستاذ الأكبر عمر سعيد شكروامينوتو الذي اسس اول حزب في اندونيسيا سنة ١٩١٠ وهو (شركة إسلام) وشركة في اللغة الاندونيسية تستعمل بمعنى (جمعية) وكان هذا الحزب هو الساق الذي تفرعت منه الأحزاب والجمعيات كلها ولا يزال موجودا إلى اليوم .

(وكان شكروامينوتو شعلة حماسة وكنز اخلاص ومنار هداية ، ولقد بذل الهولنديون المستعمرون كل شيء ليصرفوه عن غايته : المناصب ، والأموال ، والمتع ن فوجدوه جبلا لا يتزحزح .

وفي هذا الوقت اسست جمعيتان وان لم تنصرفا للسياسة والجهاد كما فعلت شركة إسلام ، فلقد عملت عملا اثبت وابقى ، وهو فتح المدارس واعداد نشء صالح يكون عدة للمستقبل (الجمعية المحمدية) اسسها الحاج احمد دملان سنة ١٩١٢ و(جمعية الارشاد) (*) اسسها السوكرتي الانصاري وهو سوداني الأصل سنة ١٩١٢ .

وفي سنة ١٩٣٠ اسست جمعية وحدة العلماء ، وفي سنة ١٩٣٥ اسس الدكتور سوكيمان الحزب الإسلامي الاندونيسي وثم سنة ١٩٣٦ اسس الحاج اوغست سالم (وزير الخارجية الاندونيسي) حزب التنوير الإسلامي وجمعية الشبان المسلمين .

(*) راجع محور الجمعيات الخيرية من هذا الفصل .

وبدأت بعد ذلك حركة تقارب وتعاون بين هذه الجمعيات والأحزاب وتكون منها بين الحربين شبه اتحاد باسم المجلس الإسلامي الأعلى ، عقد مؤتمرات إسلامية عامة واشتغل بمسألة الخلافة ([١٩٠]) ... واشتغل المجلس بقضايا العرب في فلسطين وفي برقة وعمل على مقاطعة ايطاليا ... وانشأ فرعا للصحافة لرد مفتريات المجلات الأوروبية والصينية ... والمجلات الالحادية . وجاهد جهادا رائعا لأبطال القوانين الاستعمارية ومنها قانون الزواج المدني المخالف للإسلام ... وسمي الجبل القائم في منطقة المؤتمر باسم (جبل شركة إسلام) ولا يزال اسمه إلى اليوم تخليدا لهذا المؤتمر .

٣ ــ وكان الاحتلال الياباني لأندونيسيا والملايو .. وتشكلت الخلايا العسكرية ومنها فرق الدفاع الوطني بقيادة (الجنرال سوديرمان) وهو في الأصل من العلماء واكثر ضباطه من الجمعية المحمدية ومنها أيضاً (حزب الله) بقيادة زين العارفين (من جمعية نهضة العلماء) .

٤ ــ وايام حكم اليابان اجتمعت الجمعيات وكونت منها اتحادا أوثق وأقوى وكان مجلس الشورى الإسلامي بدلا من المجلس الإسلامي الأعلى .

٥ ــ ولما استقلت اندونيسيا وصارت فرق الدفاع الوطني هي الجيش وبقي حزب الله اعتزل والف شبه حكومة داخلية باسم دار الإسلام وهي موجودة إلى اليوم في جبلية من جاوة تضم ملايين من السكان وتقيم حكم الله . الا ان المؤتمر الأكبر الذي جمع الأحزاب والجمعيات كلها كان قد قرر توحيد الصفوف في حزب واحد دعي (ماشومي) ([*]) .

([١٩٠]) في أعقاب الغاء الخلافة في استانبول .

([*]) تكون اسم ماشومي من الحروف الأولى والأخيرة (المجلس الشوري الإسلامي) .

٦ ـــ ثم كان مؤتمر جوكجا في ١٩٤٩/١٢/٢٥ وقد دام خمسة ايام بلياليها وكان اعظم مؤتمر إسلامي شهده سبعماية مندوب وقرر :

١ ـــ تثبيت ماشومي وتكوين مكتب تنفيذي له واعتبار جميع الأحزاب والجمعيات اعضاء فيه .

٢ ـــ جعل للحزب اقساما للدعاية والنشر والنساء والإجتماعيات والإقتصاد والتربية والثقافة .

٣ ـــ تأليف جبهة تضم جمعيات الشباب كلها باسم (جبهة الشباب الاندونيسي).

٤ ـــ تأليف لجنة دائمة للحج .

٥ ـــ توحيد الصحافة الإسلامية في اندونيسيا

٦ ـــ.اعداد لجنة من العلاء لوضع الدستور الإسلامي

٧ ـــ تأييد فلسطين وتونس والجزائر ومراكش عمليا وماليا

٨ ـــ انشاء وقف بخمسين مليون روبية لانشاء مدارس إسلامية

ولكن الإتحاد هذا لم يدم . وكان ان انشقت جمعية نهضة العلماء وشكرة إسلام والتربية الإسلامية والفوا فيما بينهم حزبا واحدا (اسموه مسلم ليك) أي الجماعة الإسلامية ... واعلنوا ان الخلاف بينهما وبين ماشومي خلاف شكلي خلاف في الطريقة فقط لا في المبدأ ولا في لاغاية ... فصار في اندونيسيا جبهتان إسلاميتان ماشومي ورئيسها محمد ناصر ، وهو رجل عالم فاضل متواضع ويقدر عدد المنتسبين إلى ماشومي بأكثر من احد عشر مليونا (ومسلم ليك) ورئيسها دملان [١٩١] .

([١٩١]) المسلمون ، المجلد السادس ص ٦٣٦ وما يليها .

اهداف حزب ماشومي ونظرته للكون والحياة :

وقد نشرت مجلة المسلمون في مجلدها السادس سنة ١٩٥٨ النص الكامل للخطاب الذي القاه محمد ناصر زعيم حزب ماشومي في الهيئة التأسيسية التي انتخبت لوضع الدستور وقد اعلن محمد ناصر في الخطاب (ان فكرة دعوتنا ... تهدف إلى بناء دولة إسلامية اي ان تكون اندونيسيا دولة إسلامية).

وقد جاء خطابه جامعاً شاملاً لأكثر مناحي الصراع وجعل له عنواناً ذهب شعاراً في التحليل السياسي لأوضاع المسلمين (اختاروا احدى السبيلين : سبيل الدين أو سبيل اللادينية) وقد تكلم في مستهل خطابه عن مفهوم الدولة وتطورها وآراء الإتجاهات الفكرية المعاصرة والقديمة ثم نقد المبادئ الخمسة التي دعا اليها سوكارنو لبناء اندونيسيا وهي :

١. الإيمان بالله (بمعناه العام)

٢. القومية

٣. الديمقراطية

٤. الإنسانية

٥. العدالة الإجتماعية

ثم قال : (ليس مجال للحياة الإنسانية يمكن فصله عن الدين أو فلسفة الحياة ، فلا بد لنا ان نختار سبيلين : سبيل الدين أو سبيل اللادينية . اما سبيل اللادينية كما قد شاهدناه طوال هذه الفترة لا يمكنها ان تعطي اساسا راسخا لحياة المجتمع بل انها تقوض اسس حياة الأفراد والجماعات) .

ثم مضى قائلا : (مما لا يختلف فيه اثنان ان للدين ميزة خاصة فما هي حقيقة الدين ؟ الدين هو عقيدة ونظام للحياة يشتمل على عدة عوامل منها :

١. الإيمان بالله كمصدر للحكم وقيم الحياة

٢. الإيمان بالوحي المترل على الرسول ﷺ

٣. الإيمان بوجود صلة العبودية

٤. الإيمان بأن هذه الصلة تؤثر في حياة الأفراد

٥. الإيمان بوجود حياة أخرى بعد الممات .

٦. الإيمان بأن العبادات هي وسيلة للتقرب إلى الله

٧. الإيمان بالله كمصدر للقيم العليا

٨. الإيمان برضى الله كهدف اسمى في هذه الحياة.

ثم راح يقارن بين المبادئ الخمسة وبين مبادئ الإسلام وعقب بقوله : (فأنى لهذه المبادئ (اي الخمسة) ان تكون اساسا لدولة ... ليس في مقدور ـــ هذه المبادئ ـــ ان تخاطب ارواح المسلمين ، هؤلاء الذين لهم فكرة واضحة المعالم كاملة البناء تمتد جذورها إلى أعماق نفس الشعب كهدف لحياته ومصدر لكيانه المادي والروحي ، الا وهي فكرة الإسلام . اما ان ينتقل المسلم من فكرة الإسلام إلى ٠المبادئ الخمسة) فمثل ذلك كمثل من ينتقل من ارض يطؤها بقدمه إلى فضاء خال).

وبعد ذلك اختار سوكارنو طريق اللادينية وحل حزب ماشومي ثم قام بحل المجلس التأسيسي الذي وافق ، مبدئيا على ألا تتصادم الوقانين مع الشريعة الإسلامية سنة ١٩٥٩ ثم حل البرلمان ورشح اعضاء يرضى عنهم واكثرهم من اليساريين الشيوعيين.

وخلال هذه الفترة، نشا فراغ هائل في أندونيسيا خلفه تشتت الأحزاب الإسلامية وتوغلها في السياسة ... فتداعى فريق من الأندونيسيين الغيورين إلى

مؤتمر عقدوه في سربانا ــ اندونيسيا ــ في السابع من رمضان سنة ١٣٨٢ واتفقوا على (انشاء مؤسسة إسلامية غير سياسية ، لا تخوض في المسائل الخلافية المذهبية التي هي سبب انشقاق المسلمين بأندونيسيا ، مؤسسة تعترف بها الحكومة على الرغم من شيوعيتها) كما جاء في التقرير الذي أذاعه في مكة بتاريخ ١٩٦٧/٩/٣ الأستاذ حسين الحبشي بالنيابة عن مؤسسة الدعوة الإسلامية ويقول :

(هكذا اخترنا لها الاسم الذي بها عند الحكومة ثم ركزنا جهودنا على طبع رسائل ندحض بها مزاعم الاشتراكيين وندحض فيها خرافات الأناجيل[*] .

وقد لخص الاستاذ الحبشي في تقريره منهاج المؤسسة فقال :

السعي في توحيد كلمة المسلمين المنتشرين في شتى الأحزاب الإسلامية وتسوية كل خلاف نشأ بينهم

عدم الخوض في المسائل الفقهية المختلفة بين المذاهب الإسلامية

ايجاد جبهة إسلامية في اندونيسيا مكونة من الأحزاب الإسلامية على اختلاف مناهجها السياسية ، وفي هذه نأمل ان يسعدنا الحظ لدعوة قادة الفكر الإسلامي المنتشرين في جميع الأقطار الإسلامية لعقد مؤتمر تحضره الأحزاب الإسلامية .

حد الغزو الثقافي الصليبي والاشتراكي

وبعد ان أطيح بسوكارنو تنفس الإسلاميون الصعداء وصار بامكانهم التحرك والتفاعل والتوحد وقد لاحظت بالأفق تباشير ذلك.

(*) كان المبشرون تدعمهم سفارة امريكا واوروبا ، قد نشطوا نشاطا كبيرا خلال عهدسوكارنو الاسود راجع ص ١٠٩ من هذا الكتاب وكذلك الشيوعيون.

*　　　*　　　*

وبعد ...

فإن هذا العرض السريع وهذه الصفحات المعدودات لا يفيان بالجهد الكريم الذي بذله ويبذله الدعاة إلى الله في كل مكان من أرجاء وطننا الإسلامي الكبير ازاء الهجوم الصاعق الماكر .

ان خط المجابهة خط صعب المراس والقياد والثابتون على الثغور المنافحون عن هذا الدين الخالد لا يلتفتون إلى السهام السامة التي يرمون بها عن كل قوس بل انهم ليمضون في طريق الجهاد والكفاح مدركين تبعات العمل وثقل المسؤولية ومخاطر الصراع بين الجاهلية والإسلام .

ومما لا ريب فيه ان ثبات المجابهين على طول خط المجابهة أول علائم النصر القريب ... ولا يوجد ثبات دون ايمان ولا ايمان دون استعلاء ولا استعلاء ، دون تمرد ولا تمرد دون عناد ... والعناد صفة اصيلة من صفات المرابطين المجابهين .

والله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لا يعلمون .

الفصل الثامن

كيف نقيم
حكم الإسلام من جديد

انتهينا في الفصول الأولى ، من هذا القسم ، وخاصة في فصل النظام والحضارة إلى ان الإنسانية المعذبة الحائرة ستلقي رحالها ، في يوم من الأيام قريب ، على عتبة الإسلام تبغي عنده الراحة والطمأنينة والعدل والنظام .

وبالرغم من ان الإسلام العظيم قد راشقه ابناؤه ومختلف دول العالم بالسهام المسمومة القاتلة ـــ كما رأينا في فصل الهجوم الماكر ـــ فإنه على استعداد تام لابدال السهام القاتلة بالأنوار المحيية يشعها من قرآنه المبين ليضيء بها قلوب التائهين الحيارى وليخرجهم من جديد من ظلمات الجاهلية إلى وضاءة الإسلام .

ان الإسلام لن يحقد على الإنسانية ولن ينتقم منها كما انه لن يبخل عليها ، متى آبت إليه ، بمعطياته الأصيلة بغية انشاء انسانية سعيدة ، وإذا كان هذا شأن الإسلام مع العالم بأسره ، فحري به ان يكون كذلك مع ابنائه . فهؤلاء قد اخذوا على حين غرة ، وخدعوا بآلام الإنسانية المعذبة وظنوها على جهل منهم آمالا كبارا يجب ان يسعوا لمحاكاتها بكل قواهم ولو ضحوا بإسلامهم العظيم .

ورأينا في الفصل السابق ، كيف ان الله سبحانه منَّ على المسلمين في كل بلد من جدد لهم دينهم ونهض بخط المجابهة على مختلف محاوره حتى غدت الحركة الإسلامية بالرغم من المحن والضربات ، قوة لا يستهان بها وتيارا أصيلا نابعا من ضمير هذا الشرق المغلوب على أمره .

أو كما يقول برنارد لويس (وبالرغم من ان كل الحركات الإسلامية قد هزمت ، حتى الآن ، غير انها لم تقل بعد كلمتها الأخيرة) .

ان التيار الإسلامي يتحرك في كل مكان بالرغم من النكبات ، ويسعى جاهدا بالرغم من المعوقات والتحديات ، لإقامة حكم الله في أرض الله .

ان الحركات الإسلامية لم تقل بعد كلمتها كما يقول المراقبون ، لكنها ستقولها في ساعة الصفر ـــ أو بمعنى أدق ـــ في لحظة القدر الموعودة ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴿٥﴾ ﴾ الروم ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ البقرة .

ولا نكون غلاة في التفاؤل ان قلنا : ان ايماننا بمستقبل هذا الدين في الشرق المسلم وفي الإنسانية جمعاء ايمان لا يرتابه شك ولا تزعزعه قوى الشر العاتية .

ان نور الإسلام سيشرق من جديد ليبدد الظلمات فحلكة الليل البهيم سيكشفها فجر الإسلام القريب ان الليل لا يمكن ان يبقى ليلا ، والظلام لا يمكن ان يدوم ، وان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ؟

اخي ستبيد جيوش الظلام ويشرق في الكون فجر جديد
فأطلقْ لروحكَ أشواقَها ترَ الفجرَ يرمقُنا من بعيد
وان طوقتني جيوش الظلام فإني على ثقة بالصباح
أخي فامضِ لا تلتفت للوراء طريقُكَ قد خضبته الدماء
ولا تلتفت ها هنا أو هناك ولا تتطلع لغير السماء
فلنا بطير مهيض الجناح ولن نستذل ولن نستباح
واني لأسمع صوت الدماء قويا ينادي : الكفاح الكفاح
سأثأر لكن لرب ودين وامضي على سنتي في يقين
فإما إلى النصر فوق الأنام وإما إلى الله في الخالدين [١٩٢] .

(١٩٢) من قصيدة طويلة معزوة للستاذ سيد قطب .

وإيماننا بـــ (مستقبل هذا الدين) يواجه ـــ طبعا ـــ الهزء الساخر من (مثقفي الشرق المنكود) ممن ران على قلوبهم ظلام الغرب الدامس وجاهليته الرعناء بيد ان هذه السخرية القارصة لن تمنعنا من المضي قدما في الطريق يحدونا الأمل بالنصر الأكيد القريب.

ولن تكون حالنا ـــ عندما نرنو ببصرنا إلى الفجر الجديد ـــ بأحسن من حال رسوله والصديق ابي بكر عندما كانا يوم الهجرة مختبئين في غار ثور واعداؤهما على باب الغار يطاردونهما ... ومع هذا فقد نطق قلب رسول الله ﷺ (لا تحزن ان الله معنا) ... وكذلك عندما طاردهما وهما في الفلاة ، سراقة بن مالك ، طمعاً بمائة من البعير فما ان كبت فرسه حتى وعده رسول الله ﷺ بكنوز كسرى [١٩٣] واليوم كالأمس فمهما كان الهجوم الماكر شديدا والحكام العتاة بناة فإن النصر قريب (وسيشرق في الكون فجر جديد) .

الارتفاع إلى مستوى الدين والواقع :

أمر واحد يجب ان يكون في حسابنا .. ان أمامنا كفاحا مريرا شاقا طويلا لاستنفاذ الفطرة من الركام ، ثم لتغليب الفطرة على هذا الركام .

كفاحاً مريرا يجب ان نستعد له استعدادا طويلا يجب ان نستعد بأن نرتفع إلى مستوى هذا الدين ... نرتفع إلى مستواه في حقيقة ايماننا بالله . وفي حقيقة معرفتنا بالله فإننا لن نؤمن به حق الإيمان حتى نعرفه حق المعرفة .

ونرتفع إلى سمتواه في عبادتنا لله . فإننا لن نعرف الله حق المعرفة الا إذا عبدناه حق العبادة .

---

(١٩٣) راجع سيرة ابن هشام .

ونرتفع إلى مستواه في وعينا بما حولنا ، ومعرفتنا لأساليب عصرنا ، ورحم الله رجلا عرف زمانه واستقامت طريقته .

ونرتفع إلى مستواه في إحاطتنا بثقافة عصرنا وحضارته وممارسة هذه الثقافة وهذه (الحضارة) ممارسة اختيار واختبار ... فإننا لا نلمك الحكم على ما ينبغي ان نأخذ منها وما ينبغي ان ندع ، الا إذا سيطرنا عليها بالمعرفة والخبرة ، فمن المعرفة والخبرة نستمد سلطان الاختبار .

ونرتفع إلى مستواه في ادراكنا لطبيعة الحياة البشرية وحاجتها الحقيقية المتجددة . فنرفض ما نرفض من هذه الحضارة ، ونستبقي ما نستبقي عن خبرة بالحياة ذاتها فإنها تعادل خبرتنا بهذه الحضارة كذلك .

(وهذا كفاح مرير ... وكفاح طويل ... ولكنه كفاح بصير وكفاح أصيل) [١٩٤].

* * *

من أجل هذا ...

من أجل انبثاق الفجر من قلب الظلام الحالك ، ومن أجل استئناف الحياة الإسلامية قامت نظريات مختلفة ، ووجدت (أشكال) و(أساليب) عديدة ، إلا أنها مع اختلافها وتعددها تخدم غاية واحدة مشتركة : الإسلام .

ونحن هنا ، في هذا الفصل ، سنستعرض ان شاء الله ، أكثر هذه الطرق في إقامة الحكم الإسلامي .

ولا بد قبل البدء في تحديد مضمون هذه النظريات من القول ان المعني ، هنا ، هو الحكم الإسلامي بذاته أي مضمون الدولة الإسلامية لا شكلها بمعنى اننا

---

(١٩٤) المستقبل لهذا الدين ، ص ١١٧ ــ ١١٨ للأستاذ سيد قطب .

لا نقصد في دراسة هذه النظريات شكل الدولة : هل هي دولة تجمع كافة المسلمين في العالم في وحدة مركزية أم في اتحاد أم في جامعة ؟ وسنتحدث عن هذا ، في القسم الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله . إنما نقصد الحكم الإسلامي مجرداً من هذه الأشكال أي الحكم في أية دولة من الدول الإقليمية في الشرق المسلم . فالسؤال المطروح الذي تسود جوابه نظريات العمل المختلفة : كيف نقيم حكم الإسلام في أية دولة من الدول الحالية ... أو في أي مكان في العالم ؟

أولا : نظرية الحاكم المسلم :

تقول هذه النظرية اننا إذا استطعنا ان نوصل إلى سدة الحكم رجالا يؤمنون بالإسلام ايمانا عقيديا صحيحا على انه نظام حياة واجب تطبيقه امكننا ان نبني حكم الإسلام ... فعن طريق التشريع والتوجيه الرسميين تستقيم حياة الناس ويعودون إلى دينهم ... اذ ان امكانات الدولة خاصة في العصر الحديث ، امكانات هائلة وتملك هذه الأساليب في تقويم الناس ما لا يمكن ان يحققه الأفراد العاديون أو الحركات الإسلامية المنظمة .

وهذا الطريق ــ بنظر أصحاب هذه النظرية ــ أقصر الطرق وافضلها اذ لا يمكننا ان ننتظر حتى يعتقد جميع افراد الشعب بصلاح حكم الإسلام ــ كما تذهب إلى ذلك النظريات الأخرى ــ ولا بد من ان نحمل الناس حملا إلى الإسلام ... فهؤلاء ــ بفطرتهم ــ مسلمون وليسوا بحاجة الا إلى نظام مسلم يخطط لهم سبل الحياة الإسلامية ...

ويستدل أصحاب هذه النظرية على واقعية نظريتهم ما حدث في الهند عندما انحرفت الدولة الإسلامية فيها وشاع الفساد بين الناس خاصة في عهد جمال الدين أكبر وكان مضطرب العقيدة فاسد التصور . ووصف الامام احمد السرهندي حالة المسلمين وقتئذ فقال : (واحزناه واحسرتاه وامصيبتاه ان أتباع

محمد غرباء مهانون في بلادهم واعداؤه مكرمون ... ان الباطل بارز منصور وان الحق مخذول مقهور ... ولقد اتى على الإنسان والمسلمين حين من الدهر في هذه الديار ـــ يعني به عهد الملك اكبر ـــ إذا عمل مسلم بحكم شرعي يسجن ويعاقب ويهان ويعذب ، والديانات كلها حرة متمتعة بكل حق. لقد شمت بالمسلمين الأعداء. وسخروا منهم وأصبحوا هدفاً لكل تجريح وإهانة (١٩٥)

الإمام أحمد السرهندي ودولة الإسلام في الهند :

وصمم الشيخ على الإصلاح ... ووجد أن السبيل الوحيد هو التأثير على الملك والحاشية . ويموت السلطان جلال الدين اكبر ويؤول الحكم إلى ابنه جهان كير ... وينشط الشيخ في التأثير في بلاط الملك ورجال دولته وجيشه ويستثير همم رجال الدولة المسلمين ويستنهضهم لخدمة الإسلام واقالته من عثرته فيكتب إلى خانخانان ـــ وهو قائد الجيش والركن الأعظم للدولة ـــ (ان ميدان البطولة الإسلامية لا يزال خاليا ينتظر فارسا من فرسان الإسلام فهل تسبق إلى هذه السعادة وتحرز قصب السبق وتنصر هذا الدين المظلوم وتغضب لهذا الحق المهضوم وتبلغ بجهادك إلى حيث لا يبلغه المعبدون الصائمون القائمون . فحيهلا يا أهل الغيرة والفتوة ويا أهل الشهامة والمروءة) وظل الشيخ مثابرا على دعوته إلى وفاته حتى تغير اتجاه الدولة وتغيرت سيرة الملك ونفسيته وأصبحت الدولة تتقدم كل يوم من حسن إلى احسن فخلف جهان كير ابنه شاهجان الذي قال : (عجبا لفرعون جلس على عرض من الآبنوس فقال : انا ربكم الأعلى ، وها أنا ذا أسجد لله شكرا وأقع له ساجداً مقراً بعبوديتي وضعفي وقدرته وكبريائه) .

الملك الصالح صاحب الفتاوى الهندية :

(١٩٥) راجع تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند للستاذ ابي الحسن الندوي ، ص ١٦ ، ١٧ .

وخلف شاه جهان السلطان العظيم الملك الصالح اورنك زيب عالم كير وهو ممن عني اولاد المجدد (الشيخ احمد السرهندي) بتربيته وثقافته فنشأ متعبدا متبعا للشريعة فقيها في الدين غيورا عليه حريصا على تطبيق احكامه واصلاح المجتمع الفاسد وتقويم الحكومة الزائفة . ويذكر المؤرخون من استقامة اورنك زيب على الشريعة الإسلامية ومن عبادته وصلاحه ما يدهش رجال هذا العصر فقد حفظ القرآن بعد جلوسه على العرض وجمع أربعين حديثاً وشرحها وأمر بتدوين الفتاوى لتكون دستوراً للمملكة وألّف له لجنة كبيرة من العلماء وكان يشرف على هذه اللجنة ويطلع على عملها يومياً ويقرأ قبل النوم كل ما كتب في هذا الموضوع وهي الفتاوى المشهورة (بالفتاوى الهندية) ([١٩٦]) .

وهذه التجربة قريبة العهد وقد تكللت بالنجاح اذ استقامت الدولة على الحق وباستقامتها استقام الناس و لم يكلف ذلك جهدا كبيرا ... فالتأثير اذن على الحكام وجهاز الحكم يؤدي إلى تغيير كلي ويقلب الأوضاع رأسا على عقب ، وهو تغيير سلبي لا يتسم بالعنف .

وسيلة اصحاب نظرية الحاكم:

ويتوسل اصحاب هذه النظرة في ايامنا الحاضرة بالتأثير المباشر على الرؤساء ، وخاصة على الملوك ، في الأقطار الملكية وهذا ما حاوله جمال الدين الافغاني مع السلطان عبد الحميد بالنسبة لفكرة الجامعة الإسلامية ...

وأيضاً ينتهج أصحاب هذه النظرية سبيل البرلمان في محاولة تغيير معالم الدولة . فهؤلاء يؤمنون ان البرلمان ــ بالنسبة للدول الحالية البرلمانية ــ افضل طريق ... فعن البرلمان تصدر التشريعات والقوانين وهو الذي يرسم سياسة البلاد

([١٩٦])المرجع السابق الصفحات ١٦ ــ ٢١ . ويراجع ايضاً كتاب رجال من التاريخ فصل الملك الصالح للأستاذ علي الطنطاوي ص ١٨٩ وما يليها ...

العامة ويؤثر في مختلف انظمة الدولة ... فإذا كان للإسلاميين ممثلون ونواب أمكنهم على الزمن ، احداث انقلاب إسلامي صحيح فالإسلاميون سيعارضون القوانين التي تخالف الإسلام ثم يقترحون قوانين تحد من الانحراف وتقوّم الاعوجاج ثم اخيرا يقترحون قوانين إسلامية ... وهكذا يتدرج الحكم الإسلامي في الظهور حتى يصل إلى منتهاه .

وقصر هذا الطريق وحسناته دفعاً كثيراً من الإسلاميين من أصحاب محور العمل الفردي أو من اصحاب العمل الحركي إلى سلوكه فكان ولا يزال بعض الإسلاميين يتقربون من عظماء الدولة في محاولة لاصلاحهم وتقويمهم وهدايتهم إلى طريق الإسلام . كما ان عديدا منهم وخاصة من الحركيين الإسلاميين دخلوا البرلمان في دول عديدة .

الجماعة الإسلامية في باكستان والبرلمان :

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان في رسالته (واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم) ص ٦١ بعد ان عرض لمنهج قال : (اما كيف يتأتى هذا التغير ، فليس له من سبيل في نظام الا السعي في الانتخابات . وذلك ان نربي الرأي العام في البلاد مقياس الناس في انتخابهم لممثليهم ، ونصلح طريق الانتخاب ونطهر اللصوصية والغش والتزوير ، ثم مسلم مقاليد الحكم والسلطة إلى رجال يحبون ويقدرون ان ينهضوا بنظام البلاد على اسس الإسلام الخالص من حسن حظنا ان قرار مبادىء الدستور قد ازاح من طريقنا جميع الدستورية التي كانت تحول إلى الآن بيننا وبين اختيار هذا الطريق زوال هذه العقبات في سبيلنا بدأنا نشترك في معترك الانتخابات [١٩٧] .

([١٩٧]).بعد الانقلاب الأخير في باكستان تحدد يوم ٥ / ١٠ /١٩٧٠ موعدا لانتخابات في باكستان لوضع دستور دائم للبلاد ، وقد خاضت الجماعة الإسلامية الانتخابات بقوة لمختلف خصومها في عملية مجابهة خطيرة واذاعت منهاجها الانتخابي بتاريخ /١٢/٢ تضمن مقترحاتها في الاصلاحات التي تسعى لايجادها في حقول العدالة الاقتصادية والعمال الزراعي والاصلاح

ويمكن هنا أن نقرر ـــ بصورة عامة وقبل انتهاء معركة الانتخابات في باكستان ـــ ان التجربة البرلماني للحركة الإسلامية لم تنجح نجاحاً هاماً

التجربة البرلمانية الضخمة في أندونيسيا

ولعل أضخم تجربة إسلامية برلمانية كانت في اندونيسيا فقد استطاعت الحركة الإسلامية هناك ان تحتل عددا كبيرا من مقاعد البرلمان والهيئة التأسيسية وقد وصل قادتها أيضاً إلى منصب رئيس الوزراء والوزراء فالدكتور محمد حتا شكل الوزارة الأندونيسية واسند مناصب هامة وزارية إلى إسلاميين ... ومع هذا استطاع سوكارنو ان يغير الأوضاع مما أدى إلى نشوب ثورة هناك وقد علق الثوار شرط انهاء ثورتهم على اعادة تكليف الدكتور حتا ، ولكن ... اختار سوكارنو سبيل اللادينية [١٩٨] .

مباحث فكرية وفقهية حول جواز دخول البرلمان أو عدمه ؟

وقد نشأت في الدعوة الإسلامية مباحث فكرية وفقهية حول المدى الذي يجوز معه التعاون مع السلطات القائمة على غير ما أنزل الله ؟ ففريق ذهب إلى اباحة دخول البرلمان وقبول المناصب الوزارية . وفريق ثان اصر على رفض المناصب الوزارية على اعتبارها مشاركة في أعباء الحكم الإسلامي الا انه قبل بفكرة دخول البرلمان ... وفريق ثالث حظّر البرلمان والوزارة حتى تستقيم الدولة على حكم الله ..

الاجتماعي والتعليم والعدل والحرية والمساواة والسياسة الخارجية ، الجماعة في بيانها (ان عليها تثقيف الشعب واقناعه بالطرق العلمية ان الإسلام هو الحل للمشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تواجه باكستان) . راجع جريدة الشهاب البيروتية ١٥/ ٣/ ١٩٧٠ . بيد انه اثناء طباعة هذا الكتاب اعلنت الحكومة الباكستانية ارجاء الانتخابات مدة شهرين تقريبا .

[١٩٨] راجع المسلمون المجلد السادس صفحة ٢٠٠ و٩٦ وانظر خطاب محمد ناصر في الهيئة التأسيسية وقد اقتطفنا منه اجزاء في الفصل السابق ص ١٨٠ وقد اخزى الله سوكارنو مؤخرا .

ولا ريب ان نهج البرلمان ـــ والوزارة أيضاً ـــ يستلزم الاهتمام بأمور ليست من صلب الدعوة أو من جوهر العمل الإسلامي ... مما يشل جهود البرلمانيين ـــ والقائمين على امر الحركة ـــ ويحول اتجاه الدعوة الأصيل إلى عمل حزبي كبقية الأحزاب والشخصيات الزعامية . ولا شك ان هذا من مساوئ العمل البرلماني ولا يخفف من مضارها الا وجود كفايات قيادية داخلية تتولى العمل وهذه المساوىء وسواها وعدم نجاح التجربة البرلمانية في الحركات أدى إلى بروز اتجاه يقول بعدم جواز دخول البرلمان أو المشاركة فكلاهما يدعمان الحكم الجاهلي القائم بما يفرض هذا الوجود البرلماني من مساومات واعتبارات أخرى ... أو انهما يلحقان الضرر بالفكر عندما يطبقون ـــ وهذا في أحسن الظروف ـــ حكما إسلاميا يستقم بعد مفاهيم الإسلام ...

ويضيف هؤلاء في تدعيم وجهة نظرهم إلى أن الرسول ﷺ رفض تسلم الملك عندما عرض عليه المشركون علما بأنه ربما قيل : ﷺ كان خليقا بعد ان يستجيب له العرب هذه الاستجابة ، وبعد فيهم القيادة والسيادة ، وبعد استجماع السلطان في يديه والمجد فو ان يستخدم هذا كله في اقرار عقيدة التوحيد التي بعث بها ، في لسلطان ربهم بعد ان عبدهم لسلطانه البشري .

(ولكن الله ـــ سبحانه ـــ وهو العلي الحكيم لم يوجه رسوله ﷺ التوجيه انما وجهه إلى ان يصدع بلا اله الا الله وان يحتمل هو تستجيب له كل هذا العناء) [١٩٩] .

والحقيقة ان الرأي لم يستقر بعد ـــ ومن الصعب ان يستقر البحث وتضارب وجهات النظر ـــ وكلها هامة ومخلصة ـــ خاصة تعاظمت سلطات

([١٩٩]) انظر معالم في الطريق ، سيد قطب ص ٣٠

الدولة وكثر تدخلها في كثير من المجالات والقضايا الأمر الذي يدعو إلى مزيد من التفكير والتدبر ...

إذ لا يجوز للحركة ان تتخلى ــ عن رضى منها ــ عن أجهزة والتوجيه ، وعليها ــ في أسوأ الظروف ــ أن تعتبر طريق البرلمان للدعاية عن نفسها ، فالبرلماني يتمتع بحصانة لا يتمتع بها سواه ، كما بإمكانه ، أن يعلن مفهوم الإسلام للقضايا في أكبر محافل المجتمع الذي يعيش فيه ... والدعوة دوما تسعى للاعلان عن نفسها في أي مجال ، فكيف بأكبره . هذا فضلا عما يمكن ان تطلع عليه الحركة من اسرار الدولة في مختلف مؤسساتها السياسية والتشريعية والعسكرية والمالية ما لا يمكنها الوقوف عليه دون دخول البرلمان .

فعندي ، ان الحركة ، ولو لم تعتمد طريق البرلمان سبيلا للوصول إلى الحكم فإن عليها ألا تنسلخ عنه ، فإن اعتبرت ان الانتخابات بالرغم مما تفسحه من الدعاية لمنهج الإسلام في الحياة تلهيها عن طريقها الخاص بها لاقامة حكم الله ، فإن سلوك طريق البرلمان ولو بأعداد قليلة جدا فيه من العون للحركة على طريقها ما يكفي لتجاوز سيئاته ... علما انه يمكن التقليل من السيئات بالتخطيط والتنظيم الحركيين .

ثانيا : نظرية التوعية والمشاريع الإسلامية :

تعتمد هذه النظرية ــ أساساً لها ــ بث الوعي الإسلامي في مختلف طبقات الناس والتأكيد على فكرة الحكم الإسلامي على أنه (المخلص) الوحيد مما يعانيه المسلمون من ضعف وتفرقة وضياع ...

وفي سبيل اعطاء فكرة واضحة عن نجاح الحكم الإسلامي في حال قيامه تدعو إلى إنشاء مؤسسات إسلامية في المجتمعات الحالية كالمعاهد العلمية

والشركات التجارية ودور النشر والطباعة والمكاتب الهندسية والحقوقية والمستشفيات والمستوصفات الخ ..

وتذهب النظرية إلى القول ان الوعي الإسلامي لدى الناس المقرون بنماذج حية من المشاريع الإسلامية كفيل بقيام حكم إسلامي سليم . فعندما يتبلور الوعي العام الإسلامي في قلوب وعقول المسلمين ، وعندما تتضخم مؤسساتنا الإسلامية وتكثر حتى تشمل مرافق كثيرة من المجتمع نكون قد هيأنا المجتمع بكافة نواحيه لاقامة حكم إسلامي ، وينبثق هذا الحكم ، بصورة تلقائية لأنه عندئذ يكون التعبير الوحيد لرغبات الناس وأمانيهم .

اتجاهات ثلاثة في نشر الوعي :

وأصحاب هذه النظرية مختلفون ، خاصة ، فيما يتعلق بنشر الوعي الإسلامي فبينما يرى فريق ان نشر الوعي والتأكيد على شعار (الدولة والحكم الإسلامي) دون تعهد الناس أو مطالبتهم بالتزام الإسلام في حياتهم العامة والخاصة إلى ابعد المستطاع يكفل لنا تحقيق الحكم المنشود في اسوأ الاحتمالات أو يحمل الناس على التزام إسلامي وتطبيقها انما لا يرى ما يراه الفريق الثالث وهو تنظيم نشر الوعي ضمن عمل حركي .

ولا ريب ان الرأيين الأولين أي نشر الوعي بلا التزام التطبيق أو بالتزامه بلا تنظيم غير سحيحين ان من حيث المضمون (عدم الالتزام) أو من حيث الشكل (الاتلزام بلا تنظيم) . وفي الصفحات السابقة في فصل المجابهة تكلمنا عن طبيعة العمل الفردي (أي نشر الوعي بالتزام دون تنظيم) وناقشناه مما أغنى عن إعادته هنا(٢٠٠) أما الرأي الأول (أي عدم الإلتزام) فهو باطل مردود على أصحابه ...

---

(٢٠٠) راجع فصل المجابهة ، ص ١٤٠ .

ويتوسل أصحاب هذه النظرية خاصة فيما يتعلق بالوعي العام بالكلمة . فالكتابة والخطابة والمحاضرة والتدريس والمناقشة كلها وسائل فعالة في نشر الوعي الإسلامي . بيد أنه من المحقق ان ذلك دون تنظيم لا يؤدي الغرض المقصود منه أي اقامة حكم إسلامي مهما سودت الصفحات في ذم انظمة الحكم الأخرى وتبيان حسنات وفرضية الحكم الإسلامي .

قيمة المؤسسات :

أما بالنسبة للمؤسسات الإسلامية فالقول فيها مختلف ... الا انها بوجه عام ليست ــ بحد ذاتها ــ بطريق لاقامة الحكم الإسلامي . فمهما تضخمت هذه المؤسسات فلن تعدو إلا جزءاً يسيراً من مؤسسات المجتمع الجاهلي أو من مؤسسات الدولة الرسمية .

ولن تتضخم اصلا الا إذا كان وراءها تنظيم يربط بينها وينسق خطواتها ويخضعها إلى مخططه في معالجة شؤون المجتمع وإقامة حكم الإسلام . فالمؤسسات الإسلامية ، اذن ، وسيلة ضمن مجموعة الوسائل التي قد يعتمدها التنظيم في سعيه لإقامة الحكم .

وفائدة هذه المؤسسات وخاصة في ميدان التعليم انها تمد التنظيم بعناصر جديدة تكون قد نشات منذ الصغر في توجيه وتربية هادفين أو بعناصر قد تاثرت بالخدمات الإجتماعية في المؤسسات الأخرى [٢٠١] .

ولكن لا بد من ملاحظة هنا وهي ان انشاء مثل هذه المؤسسات وتضخيمها يجب الا يكون على حساب عمل الحركة الأصيل وهي الدعوة المباشرة وحمل الناس على تفهم الإسلام واخضاعهم إلى تنظيم حركي ويتوجب

([٢٠١]) راجع فصل المجاهة محرر التعليم والخدمات الاجتماعية ص ١٤٣ .

على خط العمل الحركي ان (يقرر) القدر الذي يراه مناسبا لتضخيم هذه المؤسسات وذلك دون المساس بفاعلية الحركة .

ثالثا : نظرية المجتمع الإسلامي والعمل الحركي المنظم :

لعل هذه النظرية اوضح النظريات واقربها للتصور الإسلامي عن الحكم والسياسة فهي تقول بعدم جدوى العمل الفردي وبضرورة تلاقي كافة الجهود في بوتقة التجمع الحركي ... فإن يد الله مع الجماعة (وانما يأكل الذئب من الغنم القاصية) .

محاكاة تجمع الرسول ﷺ في مكة :

وتحاول هذه النظرية ان تحاكي تجمع الرسول ﷺ في مكة [٢٠٢] ومراحل انتقال هذا التجمع وأساليب العمل وطرق التكوين ووسائل الانتشار والتضخم ... حتى تكاد هذه النظرية تكون مقتبسة بكاملها تجربة القرآن في اقامة حكم الله في الأرض ... فأصحاب هذه النظرية يقولون ان الخط الذي اتبعه القرآن في إقامة الدولة خط صحيح واضح وليس ــ وقد نجحت التجربة في الماضي نجاحا هائلا ــ الا ان نبدأ من النقطة الأولى ونسير مع تدرج هذا الخط حتى نصل إلى نهايته حيث تكون الحاكمية المطلقة في الأرض لله ... ولذلك فإن علينا اولا ان نختار الأفراد اعضاء الأول الذين يكونون نواة ومحور التجمع الحركي ... ويتضخم هذا التجمع حتى نستطيع ان نحيله ــ في لحظة القدر الموعودة ــ إلى تجمع إسلامي كامل أي إلى مجتمع إسلامي حيث ينبثق عنه الحكم الإسلامي بصورة تلقائية [٢٠٣] .

---

(٢٠٢) راجع فصل (كيف اقام الإسلام دولته) من هذا الكتاب .

(٢٠٣) راجع فصل (مفهوم الدولة) من هذا الكتاب .

فلا بد اولا من اصلاح الأفراد ثم اصلاح الأسر ثم اصلاح المجتمع ... يمكن ان يقوم حكم الله في الرض دون اتباع هذا الخط السوي .

وإذا حاكمنا هذا المنهج في إقامة حكم الإسلام إلى ما قررناه (في مفهوم الدولة) و(النظام والحضارة) لوجدنا استقامة هذا الخط في محاولتنا الجديدة لاقامة الحكم الإسلامي ... فقد قررنا هناك ان الحكم الإسلامي الذي هو ،عطاء الله) لا يظهر في دولة الا بعد ان يوجد التجمع الذي يعطي الله العقد والعهد ... أي ان استقامة التجمع على نهج الله وأمره دليل أكيد على اقتراب الوصول إلى عطاء في الأرض ...

الطليعة المؤمنة المنظمة :

وعلى نحو ما رأينا في التجربة الأولى في اقامة حكم الإسلام ... من ان لأعضاء التجمع الحركي اثرا كبيرا في المجتمع الجاهلي وفي اقامة المجتمع الإسلامي مع ان مجتمع يثرب لم يكن كله مجتمعا إسلاميا أي كانت هناك عناصر أخرى غريبة عن التجمع الإسلامي ... فان اصحاب النظرية في التجربة الجديدة يمكنهم ان يقرروا بكل حزم : اننا نريد الآن فقط طليعة مؤمنة منظمة تتقدم الصفوف ، وتضطلع بمهام القيادة وستستطيع هذه الطليعة ـــ باذن الله ـــ احداث الانقلاب المنشود وانشاء المجتمع الإسلامي الجديد.

ومن هنا ، يتبين ، خلافا للصورة المتبادرة في بعض الأذهان ، ان اصحاب هذه النظرية لا يؤقتون حكم الإسلام بإسلام كافة قطاعات المجتمع الحالي إسلاما كاملا ... انما ينيطون ذلك بطليعة تنبثق من هذا المجتمع الجاهلي فتخلع عنها كل ارتباط وتتمثل الإسلام عقيدة وسلوكا وتتحرك به تنظيما وتخطيطا .

ان الطليعة المؤمنة هي قاعدة هذه النظرية لا المجتمع بكامله اذ من غير الطبيعي ان تتأخر الحلقة الأولى في الحكم الإسلامي إلى الزمن الذي يرجع فيه

جميع المسلمين إلى عقيدة الإسلام ومنهاجه ... لكن لنا أن نقول ان كافة حلقات الحكم الإسلامي لا تتجسد بكاملها الا في مجتمع استقام أمره على الإسلام ...

اذن ، لا بد من طليعة ــ تكون قوة بذاتها ــ تتسلم مقاليد الحكم وتخطو خطوات أولى نحو مجتمع إسلامي كامل ... وهذا ما فعله الرسول ﷺ فقد تسلم الحكم في يثرب وأقر له الجميع بما فيهم اليهود ، بالسيادة والحاكمية [٢٠٤] فاستطاع أن يقود يثرب أولا والعرب ثانيا إلى مجتمع إسلامي كريم .

ان جميع الحركات الإسلامية في العالم اليوم ، تلتقي ، على هذه النظرية ... أو بمعنى ادق ، ان اصحاب هذه النظرية هم الحركات الإسلامية ... فهم يعملون في تكتيل القوى وتنظيم الجهود ويحاولون ايجاد الطليعة التي يمكنها تسلم الحكم وخطو الخطوات الأولى الحاسمة .

حركة الاخوان المسلمون والجماعة الإسلامية تعبير عن مضمون النظرية :

ولعل حركة الاخوان المسلمين في العالم العربي والجماعة الإسلامية في باكستان اوضح هذه الحركات في التعبير عن مضمون النظرية ... فقد اعلن الاخوان المسلمون ([٢٠٥]) انهم يريدون : ١) الرجل المسلم في تفكيره وعقيدته وفي خلقه وعاطفته وفي عمله وتصرفه فهذا هو تكويننا الفردي . ٢) ونريد بعد ذلك البيت المسلم في تفكيره وعقيدته وفي خلقه وعاطفته وفي عمله وتصرفه ونحن لهذا نعني بالمرأة عنايتنا بالرجل ونعنى بالطفولة عنايتنا بالشباب وهذا هو تكويننا الأسري . ٣) ونريد بعد ذلك الشعب المسلم في ذلك كله ، أيضاً نحن لهذا نعمل على أن تصل دعوتنا إلى كل بيت وان يسمع صوتنا في كل مكان وان تنتشر فكرتنا وتتغلغل في القرى والنجوع والمدن والمراكز والحواجز والأمصار لا نألوا

([٢٠٤]) راجع كيف أقام الإسلام دولته .

([٢٠٥]) انظر دروس في دعوة الاخوان المسلمين ص ٢٠٦ .

في ذلك جهدا ولا نترك وسيلة . ٤) ونريد بعد ذلك (الحكومة المسلمة) التي تقود هذا الشعب إلى المسجد وتحمل به الناس على هدى الإسلام من بعد كما حملتهم على ذلك بأصحاب رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر من قبل .

ونحن لهذا لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على اساس الإسلام ولا يستمد منه ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية ولا بهذه الأشكال التقليدية التي ارغمنا اهل الكفر واعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها وسنعمل على احياء نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام .

مراحل العمل الإسلامي في دعوة الاخوان :

ويؤمن الاخوان المسلمون ــ شأن بقية الحركات الإسلامية ــ بالتدرج والاعتماد على التربية ووضوح الخطوات ... فلذلك فهم يعتقدون كما أعلن الامام الشهيد حسن البنا [٢٠٦] ان كل دعوة لا بد لها من مراحل ثلاث :

اولها : مرحلة الدعاية والتعريف والتبشير بالفكرة وايصالها إلى الجماهير من الشعب) .

ثم مرحلة التكوين وتخير الأنصار وإعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين) .

(ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والإنتاج ، وكثيرا ما تسير هذه المراحل الثلاث جنبا إلى جنب نظرا لوحدة الدعوة وقوة الارتباط بينها جميعا فالداعي يدعو وهو في الوقت نفسه يتخير ويربي وهو في الوقت عينه يعمل وينفذ

---

(٢٠٦) رسالة المؤتمر الخامس للاخوان المسلمين ، مجموعة رسائل الامام الشهيد نشر دار الاندلس بيروت ص ٢٥٤ .

كذلك . ولكن لا شك في ان الغاية الأخيرة أو النتيجة الكاملة لا تظهر الا بعد عموم الدعاية وكثرة الأنصار ومتانة التكوين) .

الغاية والوسيلة :

ويكتب حسن البنا عن غاية الاخوان المسلمين ووسيلتهم فيقول (٢٠٧) : (ان غاية الاخوان تنحصر في تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح(٢٠٨) يعمل على صبغ الأمة بالصبغة الإسلامية الكاملة في كل مظاهر حياتها (٢٠٩) ... وان وسيلتهم في ذلك تنحصر في تغيير العرف العام وتربية انصار الدعوة على هذه التعاليم حتى يكونوا قدوة لغيرهم في التمسك بها والحرص عليها والنزول على حكمها) .

ويجيب حسن البنا عن سؤال (٢١٠) : (هل في منهاج الاخوان المسلمين ان يكونوا حكومة وان يطالبوا بالحكم وما وسيلتهم إلى ذلك . فيقول : (ان الاخوان المسلمين يسيرون في جميع خطواتهم وآمالهم وأعمالهم على هدي الإسلام الحنيف كما فهموه ... وهذا الإسلام الذي يؤمن به الاخوان المسلمون يجعل الحكومة ركنا من أركانه ... لذلك فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفرها الا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من ايد الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف ، وعلى هذا فالاخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم ، فإن وجدوا من الأمة من يستعد لحمل هذا العبء واداء هذه الأمانة والحكم بمنهاج إسلامي قرآني فهم جنوده وأنصاره وأعوانه وان

(٢٠٧) المرجع السابق ص ٢٦٨ .

(٢٠٨) أي الطليعة المؤمنة .

(٢٠٩) تسلم الحكم .

(٢١٠) المرجع السابق ٢٧١ وما بعدها .

لم يجدوا فالحكم من منهاجهم وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كل حكومة لا تنفذ اوامر الله .

وعلى هذا فالاخوان اعقل واحزم من ان يتقدموا لمهمة الحكم ونفوس الأمة على هذا الحال ، فلا بد من فترة تنتشر فيها مبادئ الاخوان وتسود ويتعلم فيها الشعب كيف يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة .

هل القوة وسيلة للوصول إلى الغاية ؟

(ويتساءل [٢١١] كثير من الناس : هل في عزم الاخوان المسلمين ان يستخدموا القوة في تحقيق اغراضهم والوصول إلى غايتهم ؟ وهل يفكر الاخوان المسلمون في اعداد ثورة عامة على النظام السياسي والإجتماعي ؟..)

ويجيب حسن البنا بعد ان شرح شعار القوة في الإسلام فيقول : (ولكن الاخوان المسلمين اعمق فكرا وابعد نظرا من ان تستهويهم سلطحة الأعمال والفكر فلا يغوصوا إلى اعماقها ولا يزنوا نتائجها وما يقصد منها وما يراد بها فهم يعلمون ان اول درجة من درجات القوة قوة العقيدة والايمان ويلي ذلك قوة الوحدة والارتباط ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح ، ولا يصح ان توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعاني جميعا ، وانها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح وهي مفككة الأوصال مضطربة الناظام أو ضعيفة العقيدة خامدة الايمان سيكون مصيرها الفناء والهلاك . هذه نظرة ونظرة أخرى هل اوصى الإسلام والقوة شعاره باستخدام القوة في كل الظروف والأحوال ؟ ام حدد لذلك حدودا واشترط شروطا ووجه القوة توجيها محدودا ؟

([٢١١]).المرجع السابق ص ٢٦٩ .

ونظرة ثالثة هل تكون القوة اول علاج ام ان آخر الدواء الكي ؟ وهل من الواجب ان يوازن الانسان بين نتائج استخدام القوة النافعة ونتائجها الضارة وما يحيط بهذا الاستخدام من ظروف ؟ ام من واجبه ان يستخدم القوة وليكن بعد ذلك ما يكون ؟

هذه نظرات يلقيها الاخوان المسلمون على سالوب استخدام القوة قبل ان يقدموا عليه ، والثورة اعنف مظاهر القوة ، فنظرة الاخوان اليها ادق واعمق ... وبعد كل هذه النظرات والتقديرات اقول لهؤلاء المتسائلين ان الاخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدي غيرها ، وحيث يثقون انهم استكملوا عدة الايمان والوحدة وهم حين يستخدمون هذه القوة سيكونون شرفاء حرصاء وسينذرون اولا وينتظرون بعد ذلك ثم يقدمون في كرامة وعزة ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وارتياح .

المفهوم الحركي الجديد في دعوة الاخوان :

و لم تتضح المبادئ التي حددها الامام الشهيد الا (بالمعالم) التي رسمها سيد قطب ، فكتابات (سيد) خاصة بعد عام ١٩٦٢ احدثت مفهوما حركيا واعيا عميقا في دعوة الاخوان ، فـــ (سيد) بعد ان عاش في ظلال القرآن مدة من الزمن خرج على الناس وعلى الحركة بتوضيح عميق جديد لمفاهيم الدعوة الأولى فهو يرى أن (قاعدة انطلاق المجتمع الإسلامي وطبيعة تكوينه العضوي ، تجعلان منه مجتمعا فريدا لا ينطبق عليه أي من النظريات التي تفسر قيام المجتمعات الجاهلية وطبيعة تكوينها العضوي ... المجتمع الإسلامي وليد الحركة والحركة فيه مستمرة ، وهي التي تعين أقدار الأشخاص فيه وقيمهم ومن ثم تحدد وظائفهم ومراكزهم .

والحركة التي يتولد عنها هذا المجتمع ابتداء حركة آتية من خارج النطاق الأرضي ، ومن خارج المحيط البشري ... انها تتمثل في عقيدة آتية من الله للبشر ، تنشيء لهم تصورا خاصا للوجود والحياة والتاريخ والقيم والغايات ، وتحدد لهم منهجا للعمل يترجم هذا التصور ... الدفعة الأولى التي تطلق الحركة ليست منبثقة من نفوس الناس ، ولا من مادة الكون ... انها ـــ كما قلنا ـــ آتية من خارج النطاق الأرض ومن خارج المحيط البشري ... وهذا هو المميز الأول لطبيعة المجتمع الإسلامي وتركيبه . انه ينطلق من عنصر خارج عن محيط الانسان وعن محيط الكون المادي.

وبهذا العنصر القدري الغيبي الذي لم يكن احد من البشر يتوقعه أو يحسب حسابه ، ودون ان يكون من شأن يد فيه ـــ في ابتداء الأمر ـــ تبدأ اولى خطوات الحركة في قيام المجتمع الإسلامي . ويبدأ عمل الانسان ايضا ...انسان يؤمن بهذه العقيدة الآتية له من ذلك المصدر الغيبي بقدر الله وحده . وحين يؤمن هذا الانسان الواجد لن يتلقى هذه العقيدة وينطوي على نفسه / انه سينطلق بها ، هذه طبيعتها ، طبيعة الحركة الحية ، ان القوة العليا التي دفعت بها إلى هذا القلب تعلم انها ستتجاوزه حتما ... ان الدفعة الحية التي وصلت بها هذه العقيدة إلى هذا القلب ستمضي في طريقها قدما ... وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر ، فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم : انتم الآن مجتمع ، مجتمع إسلامي مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلي الذي لا يدين لهذه العقيدة ، ولا تسود فيه قيمها الأساسية ... وهنا يكون المجتمع الإسلامي قد وجد (فعلا) .

(والثلاثة يصبحون عشرة)

(والعشرة يصبحون مئة)

(والمئة يصبحون الفا)

(والألف يصبحون اثني عشر الفا)

(ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامي) .

وفي الطريق تكون المعركة قد قامت بين المجتمع الوليد الذي انفصل بعقيدته وتصوره ، وانفصل بقيمه واعتباراته ، وانفصل بوجوده وكينونته عن المجتمع الجاهلي ـــ الذي اخذ منه افراده ـــ وتكون الحركة من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوجود البارز المستقل قد ميزت كل فرد من افراد هذا المجتمع ـــ حسب الميزان والاعتبار الإسلامي ـــ ويكون وزنه هذا معترفا له به من المجتمع دون ان يزكي نفسه أو يعلن عنه ، بل ان عقيدته وقيمه السائدة في نفسه وفي مجتمعه لتضغط عليه يومئذ ليواري نفسه عن الأنظار المتطلعة اليها في البيئة .

ولكن ـــ الحركة ـــ التي هي طابع العقيدة الإسلامية ، وطابع هذا المجتمع الذي انبثق منها ، لا تدع احدا يتوارى ! ان كل كل فرد من أفراد المجتمع لا بد ان يتحرك الحركة في عقيدته ، والحركة في دمه والحركة في مجتمعه وفي تكوين هذا المجتمع العضوي ... ان الجاهلية من حوله ، وبقية من رواسبها في نفسه وفي نفوس من حوله ، والمعركة مستمرة والجهاد ماض إلى يوم القيامة .

على ايقاعات الحركة ، وفي أثناء الحركة ، يتحدد وضع كل فرد في هذا المجتمع وتتحدد وظيفته ويتم التكوين العضوي لهذا المجتمع بالتناسق بين مجموعة افراده ومجموعة وظائفه .

هذه النشاة ، وهذا التكوين خاصيتان تميزان نظامه والاجراءات التنفيذية لهذا النظام ايضا وتجعلان هذه الملامح كلها مستقلة ، لا تعالج مفهومات اجنبية

عنها ولا تدرس وفق منهج غريب عن طبيعتها ولا تنفذ باجراءات مستمدة من نظام آخر ([٢١٢]) .

وقبل هذا التفصيل كان سيد قد كتب في عام ١٩٦٢ عن (الإسلام ومشكلات الحضارة) ضمنه رأيه ، في اختصار ، عن موضوع اقامة مجتمع إسلامي بتمثيل الإسلام في كل مناحي حياته ووجوده فهو يرى ([٢١٣]) ان (الأمر في اختصار واجمال) ..

توجد نقطة البدء . نقطة استقرار هذه الحقيقة في قلب ... في عدة قلوب ... في قلوب العصبة المؤمنة ... ثم تمضي القافلة في الطريق . في الطريق الطويل .. الشائك ... الغريب اليوم على البشرية ، غربته يوم جاءها الهدى في اول مرة ـــ فيما عدا بعض الاستثناءات ـــ ثم تصل القافلة في الطريق الطويل الشائك ... كما وصلت القافلة الأولى ...

الطريق طويل لكن النتيجة مضمونة :

ويعقب سيد على هذا الطريق في اقامة المجتمع الإسلامي فيقول : (لست ازعم انها مسألة هينة . ولا انها معركة قصيرة ... ولكنها مضمونة النتيجة ... كل شيء يؤيدها ... كل شيئ حقيقي ، وفطري ، في طبيعة الكون وفي طبيعة الانسان ... يوعارضها ركام كثير ... ويقف في طريقها واقع بشري ضخم ولكنه غثاء ! ضخم نعم . ولكن غثاء) .

وسيد يرى ان الجهاد بأجمعه يجب ان ينصب في هذا المجال وفي الحركة ... وفي الاعداد ... ولذلك فهو ينصح بعدم اضاعة الجهود والأوقات في (معرفة يكف يواجه المجتمع الإسلامي (في حالة قيامه) الحياة الحاضرة) وكيف يتصرف

([٢١٢]) معالم في الطريق ـــ سيد قطب ١٥٦ ـــ ١٥٩ ، الطبعة الأولى ١٩٦٤ .

([٢١٣]) المشكلات ص ١٩١ .

في أوضاعها القائمة ــ وعلى الأخص صياغة هذا في قالب فقهي مقنن فهذا ما اعتقد ان كل كلام فيه ــ في غير الاطار العام ، سابق لأوانه ... بل أشبه شيء باستنبات البذور في الهواء (٢١٤) .

وهناك سبب آخر دفع سيد إلى هذا التصور وهو ان المشكلات التي سيواجهها المجتمع الإسلامي الجديد ،سينشأ بشكل خاص وبحجم خاص وفق ظروف في عالم الغيب ووفق ملابسات لا يمكن التكهن بها الآن ...(٢١٥) .

المجتمع المسلم حتمية :

ويحب سيد ان يؤكد ان ايجاد مجتمع إسلامي ليس ضرورة إسلامية فقط بل ضرورة انسانية لانقاذ البشرية فوجود المجتمع المسلم حتمية .. حتمية بوصفه ضرورة انسانية لانقاذ الانسانية وبوصفه الترجمة العملية للمنهج الالهي الذي لا بد غالب ...

ويؤكد ايضا على ان هذه الحتمية ليس معناها ، ان الطريق اليه نزهة مريحة ولا انه هناك على قيد خطوات .

كلا ان حتمية الميلاد لا تغني عن آلام المخاض .

(والطريق إلى المجتمع الإسلامي طويل وشاق .. ومليء بالأشواك وأعسر ما في هذا الطريق هو ان نرتفع نحن بتصوراتنا وبأفكارنا وبأخلاقنا وبسلوكنا ــ ثم بواقعنا الحضاري المادي ــ إلى مستوى الإسلام .

(ولكنه ــ بعد هذا كله ــ ضرورة انسانية وحتمية فطرية ولا بد من ميلاد ولا بد للميلاد من مخاض ولا بد للمخاض من آلام) (٢١٦) .

---

(٢١٤) المرجع السابق ص ١٧٣ .

(٢١٥) المرجع السابق ص ١٨٤ .

(٢١٦)المرجع السابق ص ١٨٢ .

وسيد ــ وهو يرسم معالم الطريق التي تؤدي إلى قيام مجتمع إسلامي ــ اقتنع بجدوى تكتيل الجهود في جميع الحركات الإسلامية لايجاد مجتمع إسلامي ــ ولو كان صغيرا ــ في أية بقعة في العالم ... فإيجاد مثل هذا المجتمع الصغير هو الذي سيحدث الانقلاب الأكبر في الكون بأسره ، والبشرية لا تستجيب عادة لمنهج مقروء أو مسموع ... انما تستجيب لمنهج حي متحرك مجسم ، ممثل في حياة جماعة من البشر ، مترجم إلى واقع تراه العين وتلمسه اليد وتلاحظ آثاره العقول) .

ولذلك فهو يرى ان ألف كتاب عن الإسلام . وألف خطبة في مسجد أو قاعة أو ميدان ,الف فلم في الدعاية للإسلام ، وألف بعثة من الأزهر أو غير الأزهر في كل مكان . كل أولئك لا يغني غناء مجتمع صغير يقوم في ركن من أركان الأرض ، يعيش بمنهج الإسلام ويعيش لمنهج الإسلام وتتمثل فيه صورة الحياة في الإسلام [٢١٧] .

* * *

الجماعة الإسلامية في باكستان :

أما الجماعة الإسلامية في باكستان فقد كتب أميرها رسالتين (مناهج الإنقلاب الإسلامي) و(واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم) .

ووجهة النظر هذه ــ كما سنرى ــ لا تختلف من حيث الأساس مع نظرة الاخوان المسلمين .

فالأستاذ المودودي يقول بعد شرح معنى الانقلاب وهو العمل الذي تتكون منه (الحكومة الإسلامية) كنتيجة طبيعية [٢١٨] . ان الذين لهم ادنى المام

---

(٢١٧) المرجع السابق ص ١٨٠ .

(٢١٨) منهاج الانقلاب الإسلامي ، ص ٣ .

بعلوم العمران يعرفون ان الحكومة مهما كان من هيئتها لا تتكون ولا توجد بالطرق المصطنعة فليست هي مما تصنع في مصنع ثم تنقل منه وتثبت في موضع آخر ، بل انها منشأة في الهيئة الإجتماعية والتاريخية بتفاعلها في ما بينها شعورا طبيعيا .

(لا بد من جمع أسباب تلائم طبيعة الهيئة المنشودة للحكومة وفطرتها الخاصة وإنتاج طريق يوصل إلى ما يقصدون . فلا جرم أن تقوم حركة توافق تلك وتلائمها في طبيعتها وأن تتهيأ السيرة الفردية والأخلاق الإجتماعية التي تقتضيها تلك الهيئة المطلوبة المنشودة . وكذلك لا بد لها من زعامة وعمل اجتماعي تستدعيها هيئة ذلك النظام الذي نحن بصدد ايجادها [٢١٩] .

وبعد ان عرض الاستاذ المودودي للمفاسد وذكر ان لها أصلا متأصلا وان مفاسد الشعب المختلفة متساندة في ما بينها استنادا قويا محكما . قال تحت عنوان ماذا نريد [٢٢٠] فلا ارى بعد كل ذلك رجلا قد اوتي حظا من العلم والبصيرة يمتنع عن التسليم بأن مشروعا من مشاريع الإصلاح الجزئي لا يكاد يجدي شيئاً في هذا الشأن وقصارى ما يمكنكم بانشاء المدارس الدينية وتلقين الناس الشهادتين والصلاة ووعظهم بالاقلاع عن الفسق والعصيان ومحاربة الفرق الضالة ان تحولوا بعض الحيلولة دون مصير إلى الهلاك وتمسكوا بعنانه حتى ينسأ في عمره قليلا وتحظى الحياة الدينية العامة بأنفاس قليلة أخرى .

(ولكن كيف يرجى من مثل هذه التدابير ان تعلو كلمة الله وتذل بازائها كلمات الجاهلية ؟ لا بد لازالة فساد شامل للحياة كلها من برنامج جامع يقوم

---

(٢١٩) المرجع السابق ص ٤ ـــ ٦ .

(٢٢٠) واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ، ص ٥٠ .

بعمل الإصلاح من الجذور إلى الفروع بغاية من الاتزان والتناسب فماذا ينبغي ان يكون هذا البرنامج وما هو عندنا) .

برنامج الإصلاح والإنقلاب :

ثم يذكر الاستاذ المدودي اجزاء هذا البرنامج فهي [٢٢١] :

١ ـــ الجزء الاول : تطهير الافكار وتعهدها بالغرس والتنمية

٢ ـــ الجزء الثاني : استخلاص الأفراد الصالحين وجمعهم في نظام واحد وتربيتهم .

٣ ـــ الجزء الثالث : السعي في الإصلاح الإجتماعي وهو يشمل اصلاح كل طبقة في المجتمع حسب احوالها وتتسع دائرته على قدر ما تتوافر وسائلنا . فنقسم اعضاءنا والعاملين من انصارنا إلى مختلف شعب العمل على حسب كفاءاتهم ومواهبهم ونوسد إلى كل منهم العمل ما يلائم فطرته .

٤ ـــ الجزء الرابع : هو اصلاح الحكم والادارة ذلك بأنه من عقيدتنا انه لا يمكن ان ينجح تدبير من التدابير في اصلاح مفاسد الحياة الحاضرة ما دامت لا تبذل المساعي لاصلاح نظام الحكم والادارة مع المساعي الأخرى للاصلاح .

*　　　*　　　*

وبعد هذا الاستعراض لمختلف أساليب وأشكال العمل الإسلامي الهادف لاستئناف حياة إسلامية يتعين علينا ان نؤكد ايماننا بجدوى العمل الحركي المنظم ... ويبدو ان هذا العمل أقرب النظريات إلى واقع الشرع ووقع الحياة .

([٢٢١]).

فقد رأينا في الفصول السابقة كيف أقام الإسلام دولته وكيف اعتمد على طليعة تكاملت فيها الشروط والمواصفات .. وكيف جرى العقد والعهد بينهما وبين الله ؟ !

الحركة أسلوب الشرع والعصر :

ونرى اليوم كيف ان اكثر الدول في العالم تقوم على اكتاف طلائع هي احزاب وتجمعات تلك الدول .. فروح العصر أيضاً تنبع من مصدر تجمعي لا من أعمال فردية.

لذلك كان التجمع الحركي الإسلامي الطريق الأسلم والأوفق لإقامة حكم الإسلام .

بيد أن الحركات الإسلامية ، لم توفق بعد ، وحتى تاريخه ، إلى إقامة حكم إسلامي في أي قطر من الأقطار .

ومرد ذلك إلى أسباب كثيرة وقفنا على معطياتها في فصل الهجوم الماكر ، وتلمسناها من خلال فصل المجابهة .

فالغزو الفكري والإعلامي والإرهاب السياسي والحزبي والتنكيل المستمر بطلائع البعث الإسلامي أسباب أصيلة في تخلف الحركة عن غايتها الأساسية . لكن ليست هذه الأسباب الوحيدة في هذا الصدد ... فهناك أسباب أخرى قد تكون نائشة عن الأسباب الأولى ... وقد تكون نتيجة طبيعية لنوع من التفكير ؟!

أسباب عدم نجاح الحركة بإقامة حكم الإسلام :

إنّ الحركة الإسلامية اليوم ، وبصورة خاصة في البلاد العربية ، تعاني حالة من الضياع والتردد أمام الزمن وتغير المواقف وتعدد محاور العدو .

وهي بدل ان تعدل استراتيجيتها في العمل والمجابهة تتبدل بتبدل الأزمان وما يصلح للثلاثينات والأربعينات . زمن ابتداء الحركة في اكثر مناطق العالم الإسلامي ، لا يصلح للستينات والسبعينات ؟! والواقع اليوم ، ان كثيرا من الإسلاميين ... يتخوفون من استخدام وسائل جديدة في العمل العام ... ويترددون في اخذ زمام المبادرة في القضايا العامة ... كما انهم لا يتخذون القرار المناسب في الوقت المناسب .

إنّ تعديل استراتيجية العمل لا يكون إلا بعد إقامة تصور سليم عن المجتمع الذي نعيشه .

التصور السليم لمجتمع اليوم :

وعندي ، ان معطيات هذا التصور يجب ان تصدر عن مفهوم واضح يحدد العلاقة مع هذا المجتمع ... فالمجتمع هو مجتمع مسلم في اصله . وفي غفلة من اصحاب الحق وعبر الزمن ، كما رأينا في الفصول السابقة ، اقدم سارقو السلطات على اغتصاب السلطة فيه وبفعل هذه السلطة تمكنوا من تحريفه وتمويهه محاولة منهم لتغطية سرقتهم وطمسا لمعالم الجريمة النكراء .

بيد أن أصحاب الحق بعد أن أدركوا ان مجتمعهم قد سرق منهم يرفضون باصرار ويعملون بقوة لاسترجاع ما سلب منهم .

وهذا المفهوم يحدد ضربين من الناس في المجتمع : القمة والقاعدة ... فاصحاب القاعدة هم ابناء هذا المجتمع وهم بغالبيتهم طيبون ضللهم الهجوم الماكر وهم بعد ذلك بيئة الحركة منها تستخلص عناصرها وفيها تنشط وتمارس وجودها ... فلا يجوز بحال معاملة هؤلاء بأسلوب الحقد والكراهية ولا يجوز اعتبارهم الا مرضى بحاجة إلى عطف ومحبة والى صدق ومودة.

إنّ أبناء المجتمع هم ممن سرقوا منا بمعنى انهم هم المعنيون في الهجمة الماكرة ... فما يصيبهم يصيبنا وما يؤذيهم يؤذينا ولا بد لنا من الدفاع عنهم ونحن بينهم ، ثم لا بد من بناء ثقتهم بنا بكوننا دعاة انقاذ وخلاص .

إنّ خلاف هذا الفهم يعطل كثيرا من احكام الإسلام التي طولب بها المؤمنون في كل زمان ومكان كالبر والصدقة والزكاة وفعل الخير والنجدة والمروءة والمودة والرحمة ؟!

أما القمة ــ رأس الحربة ــ اللصوص الذين سلبوا حقنا وطمسوا وجودنا فهؤلاء لا بد من حربهم بلا هوادة ولا بد من فضحهم ولا يجوز التهاون معهم ..

أمَا رأيت رسول الله ﷺ كيف لم يستنكف عن الدعاء على أسياد عتبه وربيعة وامية ثم كيف لم يتوانَ عن استباحة دماء آخرين [٢٢٢] .

بين الإنفتاح والانغلاق :

إنّ هذا المفهوم للمجتمع الذي نعيش فيه يحتم على الحركة الإنفتاح وتركيز الخطوات ومن ثم الإنقضاض على السلطة واستعادتها من مغتصبيها .

ولا يتناقض هذا المفهوم مع ما ذهب إليه سيد قطب في المعالم . فسيد يرى وجوب العزلة الشعورية لأعضاء التنظيم ... هذه العزلة التي لا غنى عنها لكل عضو من أعضاء الحركة وخاصة أولئك الذين يريدون الإنقضاض على السارقين ... لكنها عزلة في المفاهيم والشعور لا في العمل والحركة .

إن العمل والحركة لا يعيشان ، إلا في جو منفتح ولا يمكن تصورهما منعزلين ... ان العزلة تعدمهما من الوجود وتقضي على كل نشاط فعال .

([٢٢٢]) ابن هشام مجلد واحد ، دار الريحاني ، ص ٥٠٦ .

ومن الواجب هنا التأكيد على أن العزلة بمعنى البناء النفسي والتصوري ، يجب أن ترافق الداعية في شتى مجالات التفكير والتقويم .. ترافقه وهو طالب وترافقه وهو عامل وترافقه وهو خطيب وترافقه وهو في أعلى مناصب المجتمع الذي يعيش .

وسيد ـــ رحمه الله ـــ يرى كما رأينا في مستهدل هذا الفصل الإرتفاع إلى مستوى وعي عميق بما حولنا ومعرفتنا لأساليب عصرنا ... ورحم الله رجلاً عرف زمانه واستقامت طريقته . ويرى الإرتفاع أيضاً إلى مستوى الإحاطة بثقافة عصرنا و(حضارته) وممارسة هذه الثقافة وهذه (الحضارة) ممارسة اختبار واختيار ... فإننا لا نملك الحكم على ما ينبغي أن نأخذ منها وما ينبغي أن ندع إلا إذا سيطرنا عليها بالمعرفة والخبرة .

وهذه الرؤيا الصادقة لسيد هي الحركة الفاعلة فلا يجوز الانعزال عن ممارسة الإختبار والإختيار ولا يجوز العمل دون معرفة عميقة بالواقع الذي نتعامل معه ... ولا يجوز أخيراً الجمود على طريقة واحدة وعدم التقويم فيها والتغيير اذ رحم الله رجلا عرف زمانه واستقامت طريقته .

بيد أن التفتح هذا لا يعني حتماً الإنغماس في كل شيء والتلهي بأمور جانبية عن جوهر العمل أو القيام بأمور حظرها الشرع أو لا تتلاءم مع روح الإسلام ... إذ ان هذا يغدو انحرافاً والتواءً كما أن العزلة في العمل وكراهية التحرك بجدية ومحبة انحراف والتواء .

إن كلتا السيئتين التلهي بأمور جانبية وكراهية التحرك خطر على الحركة وعلى سيرها العام .

الخطوة الاولى في طريق الحكم الإسلامي :

لذلك كان لا بد من محاكمة هادئة لأساليب العمل الإسلامي وطرقه .

ولا بد من مراجعة ناضجة لمناهج العمل الحركي في مختلف الحركات العالمية ومقارنتها بما عند الحركات الإسلامية بعد أخذ طبيعة هذه الحركات أو البيئة التي تواجهها بعين الإعتبار .

ولا بد بالنتيجة من الاهتداء إلى سياسة في العمل وطريقة في الحركة اكثر دقة وأشد عمقا وأقرب إلى تفهم الواقع مما لدى الحركات اليوم .

ان المحاكمة هذه تؤدي بالحركة والدعاة إلى العيش في قلب العمل وتبصرهم بحقيقة الصراع الناشب في أعماق الحياة ... وبهذا (العيش) وبهذه (البصيرة) يبقى دعاة الحكم الإسلامي سائرين على خط مستقيم .

وهذه هي الخطوة الأولى في الطريق الطويل !

الخطوة الثانية : وحدة الحركات الإسلامية :

أما الخطوة الثانية فلا بد من ايجاد ترابط بين الحركات الإسلامية في العالم ... ترابط يشير إلى وحدة في الأهداف ووحدة في السياسة الحركية ووحدة في التنظيم .

إن ترابط الحركات في حركة واحدة ضرورة إسلامية كبرى يفرضها الفهم الإسلامي ويوجبها العمل الحركي وتحتمها فوق ذلك كله ظروف المجابهة في الشرق المسلم.

فإذا كانت غاية جميع الحركات الإسلامية في العالم تعبيد الناس لربهم !

وإذا كان العمل الإسلامي طريقا لها لا مفر من سلكه للوصول إلى الغاية المنشودة.

وإذا كانت جميع الحركات تتمنى قيام مجتمع مسلم في أي مكان في العالم بل ترى ضرورة قيامه وانه خير ــ في دعوة سائر المجتمعات في العالم وجذبها إليه ، من مليون موعظة ومليون كتاب ومليون خطبة وكلام .

وإذا كان ذلك كله فلمَ لا تتحد الحركات في عمل بناء مشترك تتبادل فيه التجارب وتحشد فيه الإمكانيات والطاقات ؟ ولم لا يكون على راس هذا العمل قيادة واحدة تخطط بعمق وتتحرك بسرعة وتوزع التبعات والمسؤوليات في مختلف الأقطار وتحدد المواقف وتجابه من يريد السوء بأي فرع من الفروع مجابهة واحدة ؟!

الخطوة الثالثة : دراسة قدرات مجتمعات الشرق وتخير المجتمع الملائم :

والخطوة الثالثة في الطريق الطويل ان تحزم الحركة الإسلامية أمرها وتدرس أفضل الأمكنة لإقامة مجتمع مسلم .

ولعل أول من دعا إلى أخذ المبادرة في إقامة مجتمع إسلامي ولو كان صغيرا ، سيد قطب ، وظهر ذلك باجمال واختصار في كتابه مشكلات الحضارة الصادر سنة ١٩٦٢ .

وهذا التفكير جدير بالتأمل والتمحيص ويستدعي مزيدا من التجارب والتفاعل رغم الصعاب والمعوقات ، خاصة عندما تطرح اسئلة تتعلق بمكان هذا المجتمع وزمانه ؟

ان الرسول ﷺ قد نقل في ــ اللحظة المناسبة ــ تجمعه في مكة إلى تجمع يثرب وعندما التقى التجمعان وتلاحما تولد عنهما مجتمع المدينة المسلم . بيد انه هنا لا بد من تقرير حقيقة وهي أن يثرب مستقلة عن مكة بمعنى انها غير خاضعة لسلطانها ولو انها كانت تابعة لها لتغير الوضع ولتبدلت الظروف وبالتالي الكيفية .

ولا ريب ان ظروف مجتمعاتنا الحالية والأوضاع الاقليمية والقانونية والدولية تزيد المشكلة تعقيدا وتعسر عملية المخاض ... بيد ان هذا لا يعدم الولادة فالولادة ستتم لا محالة ... ولو تعاظمت آلام المخاض حتى تقطعت الأوصال .

ويعود السؤال يطرح نفسه من جديد : كيف ستتم الولادة واين ومتى ؟

والحقيقة ان هذا التساؤل خطير للغاية وهو بداية جدية للخطوة الثالثة في طريق اقامة حكم الإسلام الطويل .

وطبيعي ان لا يكون الجواب عليه بالسهل فليس لدى أحد بعد ، جواب . بيد ان هذا لا يمنعنا من تحديد بعض الخطوط ونحن نحاول رسم الطريق .

فأول الأمر لا بد من استطلاع اوضاع جميع مجتمعات الشرق المسلم والوقوف على اسسها ومتناقضاتها وعلى طاقاتها الإقتصادية ومراكزها الاستراتيجية ولا بد أيضاً من معرفة اصيلة لوعي جماهيرها واستعدادهم لأن يكونوا قاعدة اولى للطليعة الإسلامية .

وبعد ذلك تغدو قاعدة للانطلاق ... ويتعين حشد الطاقات والامكانيات فيها تمهيدا لعملية الانقضاض على السلطة ... سواء كان الانقضاض بطريقة ثورة إسلامية لاهبة ام بطريق انتخابات برلمانية .

وفي كلتا الحالتين لا بد من قوة عسكرية ذاتية للحركة الإسلامية تستعلمها في ساعة الصفر وفي لحظة القدر الموعودة تحمي بها انطلاقها أو تختطف بها السلطة من ايدي أولئك الذين سرقوا من الإسلاميين حقهم في الحكم والسيادة .

ان امتلاك القوة الذاتية امر محتوم في التحرك نحو حكم إسلامي .. اذ ان قيام مثل هذا الحكم ليس بالأمر الهين أو المقبول من سارقي اسلطات في الشرق المسلم أو من اعيانهم وأشياعهم واسيادهم في العالم .

وقد يجابه هذا المجتمع الوليد بهجمة بربرية من قبل اعدائه .. فإن لم يكن بإمكانه الذود عن نفسه طوته الأحداث وتجازه الزمن .

وقد لا يولد الا في ظل ظروف دولية معقدة غاية التعقيد فقد لا يأتي المخاض الا حين يكون العالم في غمرات احداث ضاربة ... وحينها قد يكون مدعوا لاثبات رجولته من اول يوم كما حدث للثورة البلشفية في روسيا سنة ١٩١٧ وكما حدث للمجتمع المسلم في المدينة فها هو يخوض حربا مخيفة في بدر مع تجمع العدو ولقد كان وليدا لكن كان عليه ان يظهر بأسه وشدته منذ اللحظة الأولى وقد فعل ...

ان أحداث العالم اليوم أحداث ضخام وبإمكان الحركة الإسلامية في العالم ان تخطط للإفادة منها في ولادة المجتمع المسلم المنشود .

وفضلا عن ذلك فإن الانسانية التائهة ــ كما رأينا في فصل الحضارة والنظام ــ تستطلع منهج حياة جديد رشيد ينقذها من براثن الدمار والخراب والتيه والعذاب .

والمجتمع المسلم كفيل بإعطاء القدوة الصالحة لمنهج الإسلام الخالد .. فلا بد اذن من قيامه ...

وقد يقوم في باكستان والحركة الإسلامية هناك تخطط من زمن وبروية لهذا الأمر الخطير وتخوض اليوم انتخابات لوضع دستور إسلامي وقد يقوم هذا المجتمع في فلسطين فيما لو استخلصت الحركة الإسلامية الجهاد والفداء والتحرير

لأن فلسطين لمن يحررها ... وقد يقوم في أقطار أخرى عربية أو آسيوية أو افريقية ...

وقد يقوم هنا أو هناك... فقيامه ضرورة إسلامية أو انسانية ـــ ودولية ـــ لكن لن يقوم الا إذا توافرت الشروط والمواصفات في جيل الدعوة إلى الله ...

فهل تحقق الحركات الإسلامية رجاء الإسلام فيها وهل يحقق الشرق المسلم رجاء العالم فيه ؟؟..

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ آل عمران .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ الجنّ .

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ ﴾ الجنّ .

صدق الله العظيم .

فهرست الطريق

في هذا الكتاب

- الحكم الإسلامي فريضة والطريق إليه واجب ، والتخلف عنه ردَّة.
- الخلافة بالتصور الإسلامي نظرية أصيلة ، وعلى ضوئها يفسر الإسلام دور الإنسان في الوجود .
- الخلافة الراشدة صورة عن الإسلام المطابق لفطرة الإنسان وليست استثناء مثالياً.
- إن الإسلام بمبادئه وتنظيماته لا يرضى بواقع الخلفاء المذل ، وبما آل إليه أمر الخلافة من ضعف وهوان . كما انه لا يرضى بإلغاء منصب الخلافة وبإزالة معالمها من الوجود .
- دارسة مفصلة لوسائل التبشير والإستشراق وهجومها الماكر على الإسلام .
- دراسة واعية ونقد موضوعي لجميع الإتجاهات الفكرية الحديثة من قومية واشتراكية وماسونية.
- دراسة لمحاور المقاومة الإسلامية وعرض لجميع الحركات الإسلامية وأساليبها في طريق الحكم الإسلامي في جميع أنحاء العالم الإسلامي .

الناشر